روايات

ELIZABETH GASKEL

إليزابيث غاسكل

كرانفورد

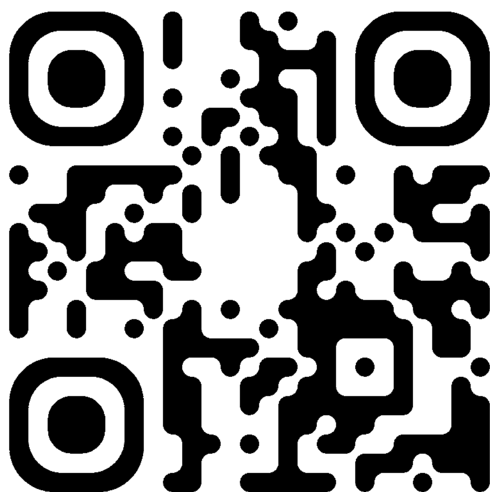


مكتبة

ترجمة: عماد إبراهيم عبده

الأهلية

كرانفورد



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ

: AlAhliaBookstore

: alahlia_bookstore

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34



سلسلة (نصّ الآخر) (8)

كرانفورد / رواية إنجليزية

إليزابيت غاسكل / إنجلترا

ترجمة : عماد إبراهيم عبده / الأردنّ



الطبعة العربيّة الأولى، *2021*



تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95297109***



الصفّ الضوئيّ : **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95349156***

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: (2021/5/2753)

الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-380-9

نصوص الآخر وأنا

8

رواية من إنجلترا

مكتبة

t.me/soramnqraa

إليزابيث غاسكل

كرانفورد



ترجمة: عماد إبراهيم عبده



المحتويات

1

مجتمعنا

قبل كل شيء، كرانفورد هي في حوزة الأمازونيات. حيث كان جميع سكان المنازل، التي يتجاوز إيجارها حداً معيناً، من النساء. وإذا جاء زوجان للاستقرار في البلدة، يختفي الرجل المحترم بطريقة ما. ذلك إمّا أن يكون قد أصيب برعب شديد لكونه الرجل الوحيد في حفلات كرانفورد المسائية، وإمّا أن يُعزى الأمر إلى كونه مع كتيبته أو في سفينته، أو إلى انخراطه بشدة في العمل طوال الأسبوع في درمبل، البلدة التجارية الكبيرة المجاورة التي تبعد عشرين ميلاً فحسب عن خط سكّة الحديد. باختصار، أياً كان ما يحلّ بالرجال، فإنهم لا يكونون في كرانفورد. ماذا عساهم أن يفعلوا لو كانوا هناك؟ للطبيب المؤهَّل جولته التي تبلغ مسافتها ثلاثين ميلاً، وينام في كرانفورد. ولكن لا يستطيع كل رجل أن يكون طبيباً. ومن أجل أن تبقى الحدائق المُنسّقة مليئة بأزهار مُختارة بعناية دون أعشاب ضارّة تُلطّخها، ومن أجل إخافة الصبيان الصغار الذين ينظرون إلى الأزهار المذكورة من خلال الأسيجة بتوق حزين، ومن أجل الاندفاع وراء الإوزّات التي تتجرأ أحياناً على الدخول إلى الحدائق إذا تُركت البوابات مفتوحة، ومن أجل تقرير جميع القضايا الأدبية والسياسية دون انزعاج النساء أنفسهن بالحجج والنقاشات غير المفيدة، ومن

أجل الحصول على معرفة واضحة وصحيحة بأمور جميع أفراد الرعية، ولكي يحافظن على انضباط خادماتهن الأنيقات الجديرات بالإعجاب، ومن أجل الإحسان إلى الفقراء (الدكتاتوري إلى حد ما)، والمساعي الحميدة الرقيقة تجاه بعضهن في أي وقت يكنَّ فيه في محنة، من أجل كل ذلك فإن النساء في كرانفورد كافيات تماماً. وكما قالت لي إحداهن ذات مرة، «يكون الرجل مُعيقاً إلى حد بعيد في المنزل!» وعلى الرغم من أن النساء في كرانفورد يعرفن جميع وقائع بيوتهن وأحوالهنّ، إلا أن الواحدة منهن تكون غير مبالية إلى حد بعيد بآراء الأخريات. في الواقع، بما أن كل امرأة تتمتع بفردانيتها الخاصة، ناهيك عن غرابتها، المطوَّرة بقوة، فلا شيء أسهل من القِصاص اللفظي. ولكن، بطريقة ما، تسود المصافاة فيما بينهن إلى حد كبير.

لا يقع بين نساء كرانفورد سوى مماحكة عرَضية بين الفينة والأخرى، وتُصْرَف ببضع كلمات متسرّعة وهزّات غاضبة من الرأس، بما يكفي للحيلولة دون أن تُصبح نزعة حياتهن جامدة أكثر من اللازم. لباسهن مستقل جداً عن الأزياء الدارجة، حيث يعلّقن على ذلك بقولهن، «ماذا يهمّ كيف نلبس هنا في كرانفورد حيث يعرفنا الجميع؟» وإذا ذهبن من وطنهنّ، تكون حجتهنّ مقنعة بالدرجة ذاتها، «ماذا يهم كيف نلبس هنا، حيث لا يعرفنا أحد؟» وموادّ ملابسهنّ تكون، عموماً، جيدة وبسيطة، ومعظمهن شديدات التدقيق مثل الآنسة تيلر تقريباً، التي عُرفت بإصرارها على النظافة. ولكنني سوف أكون مسؤولة عمّا أقول، إن آخر ثوب بأكمام ساق الضأن، وآخر تنّورة تحتية ضيقة وقصيرة ارتُديت في إنجلترا، شوهِدَت في كرانفورد، وشوهِدَت دون ابتسامة.

أستطيع أن أُدلي بشهادة على مظلة عائلية حريرية حمراء ضخمة، كانت عانس ضئيلة لطيفة، تُرِكت وحيدة لأخوة وأخوات كُثر، تذهب إلى الكنيسة محميّة بمظلتها في الأيام الماطرة. هل شاهدت أيّ مظلة حريرية حمراء في لندن؟ لقد كان بدعة شوهِدت أول مرة في كرانفورد، وتجمهر حولها الصبيان الصغار وأسموها، «عصا في التنانير التحتية». ربما كانت المظلة الحريرية الحمراء ذاتها التي وصفتُها، أمسك بها أب قوي فوق مجموعة من الأطفال الصغار، والآنسة الضئيلة المسكينة، الناجية الوحيدة من بينهم جميعاً، كانت تكاد لا تستطيع حملها.

ثم كانت هناك قواعد وأنظمة للزيارات والزيارات القصيرة. وكانت تُعلن لجميع الأشخاص من الشباب الذين يمكن أن يحضروا للإقامة في البلدة، بكل الوقار الذي كانت تُقرأ فيه قوانين مانكس القديمة مرة في السنة على جبل تينوالد.

«أرسلتُ صديقاتنا للاستفسار عنك بعد رحلتك الطويلة هذه الليلة، يا عزيزتي» (خمسة عشر ميلاً في عربة رجل محترم). «سوف تحظين ببعض الراحة غداً، ولكن في اليوم التالي سوف يحضرن لزيارتك، بلا ريب. لذا كوني غير مرتبطة بعد الثانية عشرة – فمن الثانية عشرة حتى الثالثة هي الساعات المخصصة للزيارات القصيرة».

ثم بعد أن يقمن بالزيارات القصيرة ..

«إنه اليوم الثالث. أظن أن أمكِ قد أخبرتكِ، يا عزيزتي، ألّا تسمحي أبداً بمرور أكثر من ثلاثة أيام بين استقبال زيارة قصيرة وردِّها. وكذلك ألّا تمكثي أبداً في الزيارة القصيرة فترة أطول من ربع ساعة».

«ولكن هل يتعين عليَّ النظر إلى ساعتي؟ كيف أستطيع معرفة متى مرّت ربع ساعة؟»

«ينبغي لكِ أن تستمري بالتفكير في الوقت، يا عزيزتي، وألّا تسمحي لنفسك نسيان أمره في أثناء المحادثة».

ونظراً إلى أن الجميع كن يضعن هذه القاعدة نصب أعينهنّ، سواء أكنَّ يقمن بزيارة قصيرة أم يتلقينها، فمن الطبيعي ألّا يتطرق الحديث مُطلقاً إلى مواضيع تستحوذ على الذهن. فكنّا نلزم أنفسنا باستخدام جمل قصيرة في أحاديث بسيطة، وكنّا حريصات على الدقة في أوقاتنا.

تخيل أن عدداً قليلاً من الأشخاص من طبقة اجتماعية راقية نسبياً في كرانفورد كانوا فقراء، ويواجهون صعوبة في كسب ما يكفي لضرورات حياتهم. ولكنهم كانوا مثل الإسبارطيين، فكانوا يخفون لوعتهم خلف وجه مُبتسم. لم يتحدث أي منا بشأن المال، لأن ذلك الموضوع يخص التجارة والمقايضة، فقد كنا جميعنا أرستقراطيين على الرغم من أن بعضنا قد يكون فقيراً. يتمتع الكرانفورديّون بذلك النوع من روح الجماعة الكيّس الذي جعلهم يتغاضون عن جميع أوجه القصور في النجاح عندما كان بعضهم يحاول إخفاء فقره. فعلى سبيل المثال، عندما أقامت السيدة فوريستر حفلة في مسكنها، الشبيه ببيت الدمى، وأزعجت الخادمةُ الصغيرة النساءَ الجالسات على الأريكة باستئذانهن في إخراج صينية الشاي من تحتهن، تقبّل الجميع هذا العمل الجديد كما لو كان أكثر شيء طبيعي في العالم، وواصلنا الحديث حول الشكليات والمراسم المنزلية كما لو كنا جميعنا

نعتقد أن لدى مُضيفتنا صالة خدم قياسية، ومنضدة ثانية، مع مدبرة منزل ومسؤولة خدمات، بدلاً من الخادمة الوحيدة الصغيرة القادمة من مدرسة خيرية، والتي لم تكن ذراعاها القصيرتان الضاربتان إلى الحمرة قويتين بما يكفي لحمل الصينية إلى الطابق العلوي ما لم تتلقَّ، بمنأى عن الأنظار، مساعدة من سيدتها التي جلست الآن متظاهرة بعدم معرفتها بنوع الكعكات التي كانت تُرسَل إلى الطابق العلوي، على الرغم من أنها كانت تعرف، وكنا نحن نعرف، وكانت تعرف أننا كنا نعرف، وكنا نعرف أنها كانت تعرف أننا كنا نعرف أنها كانت منشغلة طوال فترة الصباح، تُعِدُّ خبز الشاي وكعكات إسفنجية.

نجم عن هذا الفقر العامّ غير المعترف به، وعن هذا التعلق بمظاهر الحياة الأرستقراطية المُعلن إلى حد كبير، بضع عواقب مُستحبة، كان من الممكن إدخالها في الكثير من أوساط المجتمع لتحسينها إلى حد كبير. على سبيل المثال، اعتاد سكان كرانفورد النوم والاستيقاظ في وقت مبكر، وإصدار صوت قعقعة في منازلهم في أثناء المشي بقباقيب خشبية، بإرشاد حامل فانوس، حوالى الساعة التاسعة مساء، ويكون سكان البلدة بأسرها قد ذهبوا إلى الفراش وأخلدوا إلى النوم عند الساعة العاشرة والنصف. علاوة على ذلك، كان تقديم أي شيء مُكلف في الحفلات المسائية، سواء أكان للأكل أم للشرب، يُعدّ أمراً «مبتذلاً» (وهي كلمة مُخيفة في كرانفورد)، فرقائق الخبز والزبدة والبسكويت الإسفنجي هو كل ما كانت تقدمه فخامة السيدة جاميسون التي كانت زوجة شقيق الراحل إيرل غلينماير. وعلى الرغم من ذلك، كانت تمارس هذا النوع من «الاقتصاد الراقي».

«الاقتصاد الراقي!» يلجأ المرء إلى عبارات كرانفورد بصورة طبيعة إلى حد كبير! لقد كان الاقتصاد «راقياً» دائماً، وإنفاق المال «مبتذلاً وتفاخرياً» دائماً، إنه أمر يُشبه إلى حد ما حموضة العنب ما جعلنا مسالمين وراضين جداً. لن أنسى أبداً الشعور بالفزع عندما حضر شخص ما اسمه النقيب براون لكي يعيش في كرانفورد، وتحدث بصراحة بأمر فقره - ليس همساً إلى صديق، داخل أبواب ونوافذ موصدة، بل في الشارع العامّ! بصوت عسكري هادر! متذرعاً بفقره بشأن عدم استئجار منزل معين. وكانت نساء كرانفورد أصلاً يتذمّرنَ إلى حدّ ما من تعدي رجل، بل رجل محترم على المناطق الخاصة بهن. لقد كان نقيباً متقاعداً، وحصل على وظيفة ما في خط سكة حديد مجاور، كانت البلدة الصغيرة قد قَدمت التماساً ضده بشدّة. وإذا كان وقحاً جداً إلى درجة التحدث بكونه فقيراً، إضافة إلى أنه ذَكَر، وإلى صلته بسكة الحديد المزعجة، فلماذا إذن الشكوى من الفقر؟ في الواقع، كان ينبغي أن يُرسل إلى كوفنتري. لقد كان الفقر حقيقياً وشائعاً مثل الموت، ومع ذلك لم يتحدث الناس قطُّ بشأنه بصوت مرتفع في الشوارع. لقد كانت كلمةً ينبغي عدم ذكرها لآذان مهذبة. لقد اتفقنا ضمنياً على أن نتجاهل بشكل مطلق أن يكون أي شخص، نرتبط بعلاقة معه على أساس المساواة في الزيارات، قد حال الفقر بينه وبين عمل أي شيء يرغب في عمله. فإذا ذهبنا إلى حفلة ما، أو خرجنا منها، سيراً على الأقدام، فذلك لأن الليلة كانت جميلة جداً، أو لأن الهواء كان منعشاً جداً، وليس لأن الكراسي الحمّالة كانت مُكلِفة. وإذا ارتدينا أقمشة مطبوعة، بدّلا من الحرير الصيفي، فذلك لأننا كنا نُفضّل المواد التي يسهل غسلها، وهلم

جراً، إلى أن حجبنا عن أنفسنا الحقيقة الشائعة المتمثلة في أننا كنا، جميعنا، أناساً متوسطي الحال. وبطبيعة الحال، إذن، فلم نكن نعرف كيف نفسر أفعال هذا الرجل وأقواله، فهو كان يستطيع التحدث بشأن الفقر كما لو لم يكن وصمة عار. ومع ذلك، بطريقة ما، فقد فرض النقيب براون احترامه في كرانفورد، وكان يُدعى ويُزار، على الرغم من كل تلك القرارات التي تتعارض مع ذلك. ففي زيارة إلى كرانفورد كنتُ قد قمتُ بها بعد حوالى سنة من استقراره في البلدة، تفاجأت من سماع آرائه تُقتبس بوصفها من مصدر موثوق. لقد كانت صديقاتي من بين أشد المعارضات لأي طلب لزيارة النقيب وبناته، وذلك قبل اثني عشر شهراً فحسب. والآن يُسمح له بالدخول في الساعات المحظورة قبل الساعة الثانية عشرة. ذلك صحيح، كان ينبغي اكتشاف سبب خروج الدخان من مدخنة ما قبل أن تُشعل النار. ولكن مع ذلك كان النقيب براون يصعد إلى الطابق العلوي غير هيّاب ولا وَجِل، ويتحدث بصوت أعلى مما تتحمل الغرفة، ويمزح كثيراً بطريقة رجل من أهل البيت. لقد كان غير منتبه نهائياً لكل تلك الإهانات الصغيرة والإغفالات للمراسم الدارجة التي كان يُستقبَل بها. لقد كان ودوداً، ويردُّ على المجاملات الساخرة بحسن نية على الرغم من أن نساء كرانفورد كنّ فاترات. وتغلّب بصراحته الرجولية على كل النفور الذي قوبِلَ به بسبب كونه رجلاً لا يشعر بالخجل من أنه كان فقيراً. وأخيراً، فإن حسن تمييزه الذكوري الممتاز، وبراعته في استنباط وسائل للتغلب على المُعضلات المنزلية، قد أكسبته مكانة استثنائية بوصفه مرجعاً موثوقاً بين نساء كرانفورد. ومضى هو نفسه على نهجه غير مُدرك لشعبيته بقدر ما كان غير

مدركٍ لنقيضها. وأنا متأكدة من أنه أصيب بذهول ذات يوم، عندما اكتشف أن نصائحه كانت تُقدر تقديراً عالياً إلى درجة جعلت مشورة كان قد قدّمها على سبيل المزاح تؤخذ على محمل الجدّ.

لقد كانت تلك المشورة تدور حول هذا الموضوع: سيدة عجوز تمتلك بقرة «ألديرني» كانت تعتبرها مثل ابنة لها، فلا يمكنك أن تمكث ربع ساعة الزيارة القصيرة دون أن تُحدَّث بشأن روعة حليب هذه البقرة أو بذكائها المدهش. كانت البلدة كلها تعرف ذلك، وتقدِّر بعطف بقرة الآنسة بيتسي بيكر. لذلك، كان التعاطف كبيراً وكانت اللوعة شديدة عندما سقطت البقرة المسكينة في حفرة جير في لحظة غفلة، وأخذت تئنّ بصوت عالٍ جداً، فسُمِعت وأُنقِذت بسرعة، إلا أن البهيمة المسكينة كانت قد فقدت مُعظم شعرها فخرجت بجلد مكشوف وهي تبدو عارية وباردة وبائسة. أشفق الجميع على البقرة، على الرغم من أن قلة منهم لم يتمكنوا من كبت ابتساماتهم بسبب مظهرها المضحك. وبالتأكيد بكت الآنسة بيتسي بيكر بحزن ولوعة، وقيل إنها فكرت في تجربة حمام الزيت. وربما أوصاها بهذا العلاج شخص ما من الأشخاص الذين طلبت نصيحتهم. إلا أن هذا الاقتراح، إن كان قد اقتُرِحَ فعلياً، قد استُبعِد فوراً باعتماد اقتراح النقيب براون الجازم «أحضري لها صدرية وسروايل تحتية من قماش الفلانيلا يا سيدتي، إذا كان لديك رغبة في إبقائها على قيد الحياة. إلا أن نصيحتي هي قتل البقرة المسكينة في الحال».

جففت الآنسة بيتسي بيكر عينيها، وشكرت النقيب بحرارة، ثم بدأت العمل. وقبل مرور وقت طويل، كانت البلدة بأكملها قد خرجت من منازلها لترى بقرة ألديرني تذهب إلى المرعى بشكل

وديع مكسوّة بملابس من الفلانيلا الرمادية. وقد شاهدتها أنا نفسي مرات عديدة. هل سبق لك أن رأيت أبقاراً ترتدي فلانيلا رمادية في لندن؟

كان النقيب براون قد استأجر منزلاً صغيراً في أطراف البلدة، حيث أقام مع ابنتيه. ولا بد أنه كان فوق الستين في وقت زيارتي الأولى إلى كرانفورد بعد مغادرتي لها بصفتها مكانَ إقامة. إلا أنه كان يتمتع بهيئة نحيلة، لكن قوية وجيدة التدريب ومرنة، وبرأس مرفوع إلى الخلف في ثبات عسكري وخطوة قافزة، ما جعله يبدو أصغر كثيراً مما كان. وكانت ابنته الكبرى تبدو في عمره تقريباً، فكشفت حقيقة أن عمره الحقيقي كان أكبر من عمره الظاهري. ولا بد أن الآنسة براون كانت في سنّ الأربعين، وكان يعلو وجهَها علائمُ استياء وحزن وسقم، وبدت كما لو أن مباهج الشباب قد تلاشت وتوارت عن الأنظار منذ أمد طويل. ولا بد أنها كانت حتى في صغرها عادية وذات ملامح قاسية. وكانت الآنسة جيسي براون أصغر من أختها بعشر سنوات، وأجمل بعشرين مرة. كان وجهها مستديراً وذا غمازات. قالت السيدة جينكينز ذات مرة في حالة غضب من النقيب براون (سأتحدث بسببها بعد قليل)، «إنها تعتقد أنه قد حان الوقت لكي تتخلى الآنسة جيسي عن غمّازتيها وألا تحاول دائماً أن تبدو مثل طفلة». لقد كان صحيحاً أن هناك شيئاً ما طفوليّاً في وجهها، وسوف يبقى، في رأيي، حتى تموت، وإن عاشت حتى تبلغ المائة. كانت عيناها زرقاوين وواسعتين وفضوليتين، تنظران مباشرة إليك. وكان أنفها عديم الشكل وأفطس، وكانت شفتاها حمراوين ونديّتين. وكانت تُسرح شعرها، أيضاً، في صفوف صغيرة من

الضفائر، ما أبرز هذا المظهر. لا أدري إذا كانت جميلة أم لا. ولكن وجهها أعجبني، وأعجب كل شخص آخر ولا أعتقد أنه كان باستطاعتها عمل أي شيء لغمّازتيها. كانت تتمتع بشيء من سلوك والدها وبهجته ومرحه. لقد كان باستطاعة أية أنثى اكتشاف فرق طفيف في ملابس الشقيقتين، فقد كانت ملابس الآنسة جيسي أكثر تكلفة من ملابس الآنسة براون بمقدار جنيهين إسترلينيين سنوياً. ويُعدّ الجنيهان سنوياً مبلغاً كبيراً في نفقات النقيب براون.

ذلك هو الانطباع الذي تكوَّن لديّ حول أسرة براون عندما شاهدتهم جميعاً أول مرة في كنيسة كرانفورد. وكنت قد التقيت النقيب من قبل، وذلك بمناسبة المدخنة التي كان ينبعث منها دخان أسود، والتي عالجها بتغيير بسيط في أنبوب المدخنة. وفي الكنيسة، وضع نظارته المزدوجة على عينيه في أثناء تلاوة ترنيمة الصباح، ثم رفع رأسه مستقيماً وأنشد بصوت مرتفع وببهجة. لقد جعل الجواب أعلى من رجل الدين الذي كان رجلاً مسنّاً ذا صوت ضعيف وهادئ، والذي شعر، حسب ظني، بامتعاض من صوت النقيب الجهوري الرنان، فارتجف أكثر وأكثر نتيجة لذلك.

كان النقيب المفعم بالحيوية يولي ابنتيه أكبر قدر من الاهتمام الشهم عند الخروج من الكنيسة.

كان يومئ ويبتسم لمعارفه. ولكنه لم يصافح أي شخص إلى أن ساعد الآنسة براون على فتح مظلتها، وأخذ منها كتاب الصلاة، وانتظر بصبر إلى أن رفعت ثوبها بيديها المرتعشتين لكي تسير خلال الطرق المبلّلة.

أتساءل كيف كانت سيدات كرانفورد يتدبرن أمر النقيب براون في حفلاتهن. لقد كنا في كثير من الأحيان، في أيام سابقة، نستمتع كثيراً لأنه لم يكن هناك أي رجل علينا أن نهتم به، وأن نجد كلاماً نحدثه به، في حفلات لعب الشدة. وقد هنأنا أنفسنا على حميمية تلك الأمسيات. وكذلك، انطلاقاً من حبنا لدماثة الأخلاق ونفورنا من الرجال، كنا قد أقنعنا أنفسنا تقريباً بأن أي رجل لا بد أن يكون «بذيئاً». لذلك، عندما وجدت أن صديقتي ومُضيفتي، الآنسة جينكينز، كانت ستقيم حفلة على شرفي، وأن النقيب وابنتيه كانوا مدعوّين، تساءلت كثيراً عما ستكون عليه تلك الأمسية. كانت هناك مناضد لعب شدّة مُغطاة بنسيج جوخ أخضر، وكان قد تم إعدادها في ضوء النهار، كالمعتاد تماماً. لقد كان الأسبوع الثالث من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، لذا فقد كانت الأمسيات تُختتَم حوالى الساعة الرابعة. كانت كل منضدة مجهزة بشموع ومجموعات «شدة» نظيفة، والنار مشتعلة. وكانت الخادمة الأنيقة قد تلقت التعليمات الأخيرة. وكنا نقف هناك، مرتدين أفضل ثيابنا، تحمل كل منا بيديها ولاعة شمعات، مُتأهبات لقذفها تجاه الشمعات حالما نسمع أول طرقة. كانت الحفلات في كرانفورد احتفالات رسمية، تجعل النساء يشعرن بابتهاج هائل في أثناء جلوسهن معاً مرتديات أفضل ثيابهن. وبمجرد وصول ثلاث منّا، جلسنا لكي نلعب «بريفيرنس»، وكنتُ أنا الرابعة سيئة الحظ. وأُجلِست القادمات الأربع التاليات فوراً إلى منضدة أخرى. وفي الحال كانت كل صينية من صواني الشاي، التي كنت قد رأيتها مُعدّة في المخزن عند مروري في الصباح، قد وُضِعَت في وسط منضدة «شدة». كان الخزف الصيني في رقة قشر البيض. وتلألأت الفضة العتيقة من التلميع. ولكن المأكولات كانت من أبسط نوع.

وعندما كانت الصواني ما تزال على المناضد، دخل النقيب براون وابنتاه. وكان بإمكاني أن أرى، بطريقة أو بأخرى، أن النقيب كان أثيراً لدى جميع النساء الحاضرات، فقد مُسِّدت الحواجب المنفوشة، وخُفِّضت الأصوات الحادة عند اقترابه. بدت الآنسة براون مريضة، ومكتئبة إلى حد الأسى تقريباً. وابتسمت الآنسة جيسي كالعادة، وبدا أنها كانت محبوبة مثل والدها تقريباً. لقد باشر دور الرجل في الغرفة فوراً وبهدوء، فاهتمّ بحاجات الجميع، وخفف عبء الخادمة الجميلة من خلال تقديم الخدمة للنسوة اللواتي كانت أكوابهن فارغة وليس لديهن خبز وزبدة. ومع ذلك، فقد فعل كل شيء بطريقة سهلة وموقرة، وكما لو كان الأمر الطبيعي هو أن يقوم القوي على الاهتمام بالضعيف، فكان رجلاً حقيقياً طوال الوقت. لقد لعب على نقاط من ثلاث بنسات باهتمام شديد كما لو كانت جنيهات إسترلينية. ومع ذلك، ومع كل اهتمامه بالغرباء، فكان يُراقب ابنته التي تُعاني، وقد كنتُ متأكدة من أنها كانت تُعاني، على الرغم من أنها قد تبدو بالنسبة إلى أعين كثيرة أنها مضطربة فحسب. لم يكن بإمكان الآنسة جيسي لعب الشدة: لكنها تحدثت إلى غير المشاركات، اللواتي كنّ يمِلن إلى حد ما إلى أن يكنّ غاضبات قبل مجيئها. لقد غنَّت، أيضّا، على موسيقى بيانو قديم متصدع، أظن أنه كان آلة سبنيت أيام شبابه. غنت الآنسة جيسي، «جوك هيزلدين» مع شيء من الخروج عن اللحن. ولكن لم تكن أي منا مولعة بالموسيقى، على الرغم من أن الآنسة جينكينز كانت تحرك قدمها بتوافق مع الإيقاع الموسيقي، دون التزام بالنغم، من باب التظاهر بأنها كانت كذلك.

لقد كان عمل الآنسة جينكينز هذا جيداً جداً، إذ إنني كنت قد رأيتها، قبل ذلك بقليل، منزعجة كثيراً من اعتراف الآنسة جيسي

براون العفوي (فيما يتعلق بصوف شيتلاند) بأن لديها خالاً كان صاحب متجر في إدنبره. حاولت الآنسة جينكينز أن تحجب هذا الاعتراف بسعال عنيف حيث إن فخامة السيدة جاميسون التي تجلس إلى إحدى مناضد لعب الشدة كانت هي الأقرب من الآنسة جيسي، وماذا عساها أن تقول أو تفكر إن هي اكتشفت أنها كانت في الغرفة ذاتها مع ابنة أخت صاحب متجر! ولكن الآنسة جيسي براون (التي كانت تفتقر إلى اللباقة، كما اتفقنا جميعنا في صباح اليوم التالي) كررت المعلومة، وأكدت للآنسة بول أنها تستطيع بسهولة أن توفر لها صوف شيتلاند المطلوب نفسه، «عن طريق خالي، الذي لديه تشكيلة بضائع شيتلاند هي الأفضل ممّا لدى أيّ تاجر آخر في إدنبره». وقد اقترحت الآنسة جينكينز الموسيقى من أجل إخراج طعم هذا الكلام من أفواهنا، وصوت هذا الكلام من آذاننا. لذا أقول مرة أخرى، إنه كان عملاً جيداً جداً منها أن تحرك قدمها بتوافق مع إيقاع الأغنية.

عندما ظهرت الصواني مرة أخرى مع البسكويت والنبيذ، في الساعة التاسعة إلا الرّبع بالضبط، كانت هناك محادثة ومقارنة لأوراق الشدة وحديث بشأن الحِيَل. ولكن بعد قليل شارك النقيب براون بجرعة صغيرة من الأدب.

قال، «هل شاهدتن أي عدد من 'مذكرات بيكويك'؟» (كانت تُنشر في حلقات في ذلك الوقت). «شيء عظيم!»

والآن، كانت الآنسة جينكينز ابنة قسيس كرانفورد المتوفّى. واستناداً إلى عدد من المواعظ المكتوبة بخط اليد وإلى مكتبة لاهوتية

جيدة جداً، كانت تعتبر نفسها واسعة الاطلاع، فكانت تَعتَبر كل محادثة حول الكتب تحدياً لها. لذا فقد ردّت وقالت، «نعم، لقد رأيتها». وفي الواقع فقد كان من الممكن أن تقول إنها قرأتها أيضاً.

قال النقيب براون، «وما رأيك فيها؟ أليست ممتازة؟»

بعد أن استُحِثّت الآنسة جينكينز بهذه الطريقة، فلم يكن في وسعها إلا أن تتكلم.

«يتعين عليَّ أن أقول إنني لا أعتقد أنها تضاهي كتابات الدكتور جونسون في أي حال من الأحوال. ومع ذلك، ربما كان المؤلف شاباً. دعه يُثابر، ومن يدري ماذا يمكن أن يُصبح إن هو اتخذ من الدكتور العظيم نموذجاً يحتذي حذوه؟» كان واضحاً أن هذا كان كثيراً جداً ليتقبله النقيب براون بهدوء. وشعرتُ أن هناك كلمات على طرف لسانه قبل إنهاء الآنسة جينكينز لجملتها.

فبدأ يقول، «إنه أمر مختلف تماماً يا سيدتي العزيزة».

ردّت، «أنا مُدركة لذلك تماماً. وأنا أراعي ذلك، أيها النقيب براون».

فأجاب، «اسمحي لي أن أقرأ لكِ فحسب مشهداً من عدد هذا الشهر. لقد استلمته في هذا الصباح، وأعتقد أن الزائرات لم يقرأنه بعد».

فقالت، «كما تشاء»، وعدّلت جلستها في رضوخ للأمر الواقع. قرأ قصة «حفلة مسائية» التي قدمها سام ويلر في باث. ضحكت بعضهن بشدة. ولم أجرؤ أنا على الضحك، لأنني كنتُ أُقيم في

المنزل. جلست الآنسة جينكينز في جدية وصبر. وعندما انتهى، التفتت نحوي وقالت في وقار معتدل:

«أحضري لي رواية 'راسيلاس'، يا عزيزتي، من غرفة الكتب».

وعندما أحضرتها لها استدارت نحو النقيب براون وقالت:

«اسمح لي الآن أن أقرأ لكَ مشهداً، ثم تستطيع الزائرات الحاضرات أن يكوِّنّ رأياً بين المفضّل لديك، وهو السيد بوز، وبين الدكتور جونسون».

قرأتْ إحدى المحادثات بين راسيلاس وإملاك بصوت مجلجل مهيب: وعندما انتهت، قالت، «أتصور أن لديّ مبرراتي في تفضيلي للدكتور جونسون كاتباً روائياً». لوى النقيب براون شفتيه نحو الأعلى، ودقّ على المنضدة، لكنه لم يقل شيئاً. فكرتْ في أن تسدد له بضع ضربات أخرى فتجهزَ عليه.

قالت، «في رأيي أن النشر بالتسلسل هو أمر مبتذل، ودون مكانة الأدب».

«كيف نُشِر رامبلر يا سيدتي؟» سأل النقيب براون هذا السؤال بصوت خفيض أعتقد أن الآنسة جينكينز لم تسمعه.

«إن أسلوب الدكتور جونسون يعدُّ نموذجياً للمبتدئين الصغار. لقد أوصاني به والدي عندما بدأت بكتابة الرسائل، وشكّلتُ أسلوبي الخاص بناء عليه. وأنا أزكّيه على المفضل لديك».

قال النقيب براون، «ينبغي أن أُشفق عليه كثيراً أن يستبدل أسلوبه بأي أسلوب مبهرج كهذا».

شعرت الآنسة جينكينز أن هذا كان مثابة إهانة شخصية لها، بطريقة لم تخطر في بال النقيب. لقد كانت تعتبر هي وصديقاتها أن الكتابة الرسائلية هي موطن قوتها. لقد رأيت كثيراً من النسخ من العديد من الرسائل مكتوبة ومصححة على اللوح الأردوازي، قبل أن «تستغل النصف ساعة الأخيرة مباشرة قبل وقت إرسالها لكي تُطمْئِن» صديقاتها من هذا أو ذاك. وكان الدكتور جونسون، كما قالت، هو نموذجها المُحتذى في هذه الكتابات. اعتدلت بوقار، وردت على ملاحظة النقيب براون الأخيرة بقولها، مع تشديد ملحوظ على كل مقطع، «أنا أُفضِّل الدكتور جونسون على السيد بوز».

يُقال -لن أشهد على صحة ذلك- إن النقيب براون قد سُمِع يقول، همساً، «الل...نة على الدكتور جونسون!» إن كان قد فعل ذلك، فقد ندِم عليه فيما بعد، كما أظهر ذلك من خلال ذهابه للوقوف بجانب كرسي الآنسة جينكينز، ومحاولة إغرائها بالحديث في موضوع سارّ أكثر. ولكنها كانت متعنتة. وفي اليوم التالي أدلت بالملاحظة التي كنتُ قد ذكرْتها بشأن غمّازتي الآنسة جيسي.



2

النقيب

من المستحيل العيش مدة شهر في كرانفورد دون معرفة العادات اليومية لكل مقيم. لقد عرفتُ الكثير من ثلاثي عائلة براون قبل انتهاء زيارتي بوقت طويل. لم يكن هناك أي شيء جديد يُمكن أن يُكتشف بخصوص فقرهم، ذلك أنهم، منذ البداية، كانوا قد تكلموا ببساطة وصراحة بشأنه، ولم يجعلوا من ضرورة كونهم مُقتصدين لغزاً. كل ما تبقى ليُكتشَف كان طيبة قلب النقيب اللامحدودة، والأشكال المختلفة التي أظهرها فيها دون وعي منه. كان يجري الحديث ببعض الحكايات القصيرة بعد مرور بعض الوقت على حدوثها. وحيث إننا لم نقرأ كثيراً، وحيث إن علاقات جميع النساء مع خادماتهن كانت حسنة جداً، فقد كان هناك شحّ في مواضيع الحديث. لذا، فقد ناقشنا واقعة حمل النقيب غداء امرأة مسكينة في يوم أحدٍ زَلِقٍ جداً، حيث كان قد التقى بها في أثناء عودتها من المخبز عند خروجه من الكنيسة، ولحَظَ مشيتها المتزعزعة، فأراحها من عبئها بالقدر الكبير من الوقار الذي كان يفعل به كل شيء، وسار في الشارع بجانبها، وهو يحمل حملها من لحم الضأن المشوي والبطاطا بشكل آمن إلى منزلها. لقد كان هذا يُعدُّ أمراًغريباً جداً،

وكان من المتوقع إلى حد ما أن يقوم بجولة من الزيارات في صباح يوم الاثنين لكي يُفسِّر ويعتذر لتعدّيه على ما هو مقبول اجتماعياً في كرانفورد: ولكنه لم يُقدِم على فعل أي شيء من هذا القبيل: وعندئذ اعتُبِر أنه كان يشعر بالخجل، فتوارى عن الأنظار. وانطلاقاً من رأفةٍ عطوفٍ به، بدأنا نقول، «على الرغم من كل شيء، فقد أظهرت حادثة صباح يوم الأحد طيبة قلب عظيمة». وتقرَّر أنه ينبغي لنا مواساته عند ظهوره التالي بيننا. ولكن، أوه! لقد جاءنا دون أثر لأي شعور بالخجل، وكان يتحدث بصوت مرتفع وجهير، ورأسه مرفوع إلى الخلف، وشعره المستعار أنيق ومتموج جيداً كالمعتاد، واضطررنا إلى استنتاج أنه قد نسي كل شيء بخصوص يوم الأحد.

نشأ بين الآنسة بول والآنسة جيسي براون نوع من الألفة بناء على قوة صوف شيتلاند وغرز الحياكة الجديدة. لذلك، عندما ذهبتُ لزيارة الآنسة بول، رأيتُ من أفراد أسرة براون أكثر مما رأيت في أثناء مكوثي مع الآنسة جينكينز، التي لم تنسَ قطُّ ما أسمته تعقيبات النقيب براون المُهينة حول الدكتور جونسون بوصفه كاتباً بارزاً للروايات الخفيفة والممتعة. لقد اكتشفتُ أن الآنسة براون كانت تُعاني، إلى حد خطير، من مرض مزمن لا علاج له، وأدى الألم الذي تسبّب به إلى ذلك التعبير الحزين في ملامح وجهها، والذي ظننتُ أنه كان غضباً تاماً. وكانت في بعض الأحيان تصبح غاضبة، أيضاً، عندما كانت حدة الطبع العصبية، التي يسببها مرضها، تتجاوز القدرة على التحمل. كانت الآنسة جيسي تتحمل معها بأناة في هذه الأوقات، بل تتحمل بصبر أكبر مما تتحمله من التوبيخ الذاتي المرير الذي كان يلي تلك الأوقات دائماً. وكانت الآنسة براون تلوم نفسها، ليس لحدة طبعها

وتسرعها فحسب، بل لكونها السبب الذي يجعل والدها وشقيقتها مضطرين إلى التقتير لكي يتيحا لها الحصول على الكماليات البسيطة الضرورية في حالتها. كانت تتمنى أن تُضحي من أجلهما بسرور بالغ، وأن تخفف من عنايتهما، إلى درجة أن السخاء الأصيل لسجيتها قد أضاف حدة إلى طبعها. لقد تحملت الآنسة جيسي ووالدها، بحنان خالص، كل ذلك بما هو أكثر من الهدوء. لقد غفرتُ للآنسة جيسي خروجها عن المألوف، وارتداء ملابس الصبايا، عندما رأيتها في المنزل، وأدركتُ أن شعر النقيب براون المستعار الأدكن، من نوع بروتس، ومعطفه المبطن (واأسفاه! رثٌّ في كثير من الأحيان) كانا بقايا هندامه العسكري أيام شبابه، وهو يرتديها اليوم بلا وعي. لقد كان رجلاً يتمتع بمهارات لا حدود لها اكتسبها في أثناء خدمته في الثكنات. وكما اعترف، فلن يتمكن أي شخص، سوى نفسه، من صبغ جزمته باللون الأسود بشكل يُرضيه. لكنه، فعلياً، لم يكن يترفع عن التخفيف من أعمال الخادمة الصغيرة بكل طريقة - مُدرِكاً، على الأرجح، أن مرض ابنته جعل المكان صعباً.

لقد سعى إلى التصالح مع الآنسة جينكينز فوراً بعد النقاش المشهود، بتقديم هدية كانت مجرفة فحم خشبية (صنعها هو نفسه)، بعد أن سمعها تقول كم كان يُزعجها صرير المجرفة الحديدية. تلقت الهدية بامتنان فاتر، وشكرته بصورة رسمية. وعندما غادر، طلبت مني أن أضعها جانباً في مستودع الحطب. وربما شعرتْ بأنه ليس هناك هدية، من رجل يُفضِّل السيد بوز على الدكتور جونسون، يمكن أن يكون صريرها أقل من صرير مجرفة حطب حديدية.

كان هذا هو الحال عندما غادرتُ كرانفورد وذهبتُ إلى درمبل. إلا أنه كانت لذي عدة مراسلات أبقتني مطلعة على مجريات الأمور في البلدة الصغيرة العزيزة. فكانت هناك الآنسة بول، التي أصبحت تستغرق في الكروشيه بقدر ما كانت في السابق تستغرق في الحياكة، والتي كان عبء رسالتها شيئاً مثل «لكن لا تنسي النسيج الصوفي الأبيض عند فلِنت» من أغنية عتيقة. ذلك أنه في نهاية كل جملة من الأخبار كانت تأتي تعليمات جديدة لمهمة تتعلق بالكروشيه التي كان عليَّ إنجازها من أجلها. وكانت الآنسة ماتيلدا جينكينز (التي لم تكن تمانع من أن تُسمى الآنسة ماتي عندما لا تكون الآنسة جينكينز قريبة) تكتب رسائل جميلة وودية ولطيفة ومتنقلة في المواضيع، وتجازف بين الفينة والأخرى في كتابة رأي خاصّ بها. ثم تكبح جماح نفسها فجأة، فإما أن تتوسل إليّ بأن لا أذكر ما قالته، حيث إن ديبورا كانت تفكر بشكل مختلف، وهي كانت تعرف ذلك، أو أن تضع ملاحظة في حاشية مفادها أنها تحدثت مع ديبورا بعد كتابة ما سبق، واقتنعت تماماً بأنه، إلخ. (من المحتمل هنا أن يتبع تراجع عن كل رأي أدلت به في الرسالة). ثم جاءت الآنسة جينكينز - ديبورا، كما كانت تُحب أن تناديها الآنسة ماتي، وقد قال والدها ذات مرة إن الاسم العبري ينبغي أن يُلفظ هكذا. وأعتقد في قرارة نفسي أنها اتخذت من النبيّة العبرية نموذجاً يُحتذى. وفي الواقع إنها، من غير شك، لم تكن مختلفة عن النبيّة الصارمة في بعض النواحي، مع أخذ الأعراف والأزياء الحديثة بالاعتبار. كانت الآنسة جينكينز ترتدي ربطة عنق، وقلنسوة صغيرة مثل قبعة الفارس، وكان مظهرها بوجه عام هو مظهر امرأة مستقلة الرأي، على الرغم من أنها

كانت تحتقر الفكرة الحديثة القائلة بمساواة النساء مع الرجال. متساوون، عجباً! كانت تعرف أنهن كنّ متفوقات. ولكن بالعودة إلى رسائلها فقد كان كل شيء فيها جليلاً ومهيباً مثلها هي نفسها. كنتُ أتفحص تلك الرسائل (عزيزتي الآنسة جينكينز، كم أجلّها!) وسوف أُقدِّم مُقتطفاً، بصورة خاصة أكثر لأنه يتعلق بصديقنا النقيب براون:

غادرتْ منزلي فخامة السيدة جاميسون توّاً. وأبلغتني، في سياق محادثتنا، معلومةَ تلقّيها يوم أمس زيارة قصيرة من سيادة اللورد ماليفير الموقر، وهو صديق سابق لزوجها. لا يمكنكِ أن تُخمني بسهولة ما الذي جلب سيادةَ اللورد إلى مشارف بلدتنا الصغيرة. لقد كان من أجل رؤية النقيب براون، الذي، على ما يبدو، تعرّف إليه سيادة اللورد في أثناء 'حروب المُزيَّنين بالريش'، والذي كان قد حظي بشرف درء الهلاك عن رأس سيادة اللورد عندما كان هناك خطر كبير محدق به قبالة رأس الرجاء الصالح، المسمى بالاسم غير الملائم. وأنت تعرفين افتقار صديقتنا فخامة السيدة جاميسون إلى روح الفضول البريء، لذلك لن تُفاجَئي كثيراً عندما أُخبرك بأنها كانت غير قادرة على أن تكشف لي طبيعة الخطر الدقيقة التي نتكلم بها. أعترف أنني كنتُ تواقة إلى التأكد من الطريقة التي يمكن أن يستقبِل بها النقيب براون، بوضعه المحدود، ضيفاً مرموقاً إلى ذلك الحد. واكتشفتُ أن سيادة اللورد قد أوى إلى الفراش في فندق إنجيل من أجل الراحة والتأمل، ومن أجل غفوات نوم مجددة للقوى. ولكنه شارك في الوجبات البرونوانية خلال اليومين اللذين شرَّف فيهما كرانفورد بحضوره في شهر آب/ أغسطس. وأبلغتني

السيدة جونسون، زوجة جزّارنا اللطيفة، أن الآنسة جيسي كانت قد اشترت ساق حَمَل. ولكن، إلى جانب ذلك، لم يصل إلى مسامعي أي تحضيرات أخرى لتقديم استقبال ملائم لزائر مرموق إلى هذه الدرجة. ربما إنهم روّحوا عنه بـ'مناقشة فكرية وأحاديث لطيفة'. وبالنسبة إلينا نحن، العارفات بافتقار النقيب براون المحزن إلى تذوق 'ينابيع الإنجليزية النقية غير المدنسة'، فقد يكون مدعاة إلى التهنئة أن تكون قد أتيحت له الفرصة لتحسين ذوقه من خلال الحديث مع عضو مؤدب ومهذب من الطبقة الأرستقراطية البريطانية. ولكن من هو الذي يخلو تماماً من بعض أوجه النقص الدنيوية؟»

كتبت الآنسة بول والآنسة ماتي إليّ في دفعة البريد نفسها، فخبرٌ مثل هذا بزيارة اللورد ماليفير كان جديراً بألا تُفوّته كاتبات الرسائل في كرانفورد: لقد عملن على استغلاله إلى أقصى حد. اعتذرت الآنسة ماتي بتواضع لكتابتها في الوقت ذاته الذي تكتب فيه أختها، التي كانت أقدر منها بكثير على وصف الشرف الذي حظيت به كرانفورد. ولكن على الرغم من الأخطاء الإملائية القليلة، فقد زودني وصف الآنسة ماتي بأفضل فكرة في شأن حالة الاهتياج التي تسببت بها زيارة سيادة اللورد، بعد حدوثها. ذلك أنني لم أسمع بأي شخص تحدث معه سيادة اللورد باستثناء الأشخاص في فندق إنجيل، وأسرة براون، والسيدة جاميسون، وصبي صغير شتمه سيادة اللورد لدفعه طوقاً قذراً على الساقَين الأرستقراطيتين.

كانت زيارتي التالية لكرانفورد في الصيف. لم تكن هناك، منذ كنت فيها آخر مرة، لا ولادات ولا وفيات ولا زيجات. كان كل شخص يعيش في المنزل ذاته، ويرتدي تقريباً الملابس القديمة ذاتها

المُحافَظ عليها بحالة جيدة. وكان الحدث الأكبر هو أن الآنسة جينكينز قد اشترت سجادة جديدة لغرفة الاستقبال. أوه، العمل الذي أبقانا أنا والآنسة ماتي منشغلتين بتصيّد أشعة الشمس عند سقوطها في فترات ما بعد الظهر على هذه السجادة من خلال النافذة غير المجهزة بستائر! كنا نبسط الصحف فوق مواقع ونجلس لنقرأ في كتاب أو لنقوم بعمل ما، وهيه! في غضون ربع ساعة تكون الشمس قد تحركت لتسطع في بقعة جديدة، فنركع على ركبنا لتغيير موقع الصحف. لقد كنا منشغلتين جداً، أيضاً، طوال صباح أحد الأيام قبل أن تُقيم الآنسة جينكينز حفلتها، باتباع توجيهاتها، وبقصّ قطع من الصحف ثمّ خياطتها معاً بحيث تُشكّل مسارات صغيرة للوصول إلى كل كرسي مُعدّ من أجل الزوار المتوقَّعين، وذلك خشية أن توَسِّخ أحذيتهم طهارة السجادة أو تدنسها. هل تُجهَّز مسارات من الصحف لكل ضيف ليسير عليها في لندن؟

لم يكن النقيب براون والآنسة جينكينز مُتَوادَّيْن كثيراً، فالنقاش الأدبي، الذي شهدتُ بدايته، كان «جرحاً غير مُلتئم»، وكان أبسط تطرُّق إليه يسبب انقباضاً لهما. لقد كان هو الاختلافَ الوحيد في الرأي الذي وقع بينهما على الإطلاق، ولكن ذلك الاختلاف كان كافياً. لم يكن في وسع الآنسة جينكينز أن تعزف عن التحدث إلى النقيب براون. وعلى الرغم من أنه لم يردّ، فقد طرق بأصابعه، ما جعلها تشعر بأن ذلك كان عملاً مهيناً جداً للدكتور جونسون، واستاءت منه. لقد كان متباهياً جداً في تفضيله لكتابات السيد بوز، فكان يسير في الشوارع مُستغرقاً فيها إلى درجة أنه كان يوشك أن يرتطم بالآنسة جينكينز. وعلى الرغم من أن اعتذاراته كانت جادة

وصادقة، وعلى الرغم من أنه في الواقع لم يفعل ما هو أكثر من ترويعها وترويع نفسه، فقد اعترفت لي بأنها كانت تُفضِّل أن يطيح بها أرضاً، لو أنه كان يقرأ أسلوباً أدبياً رفيعاً أكثر فحسب. النقيب الشجاع المسكين! لقد بدا أكبر سناً وأكثر ضعفاً، وكانت ملابسه رثة جداً. ولكنه بدا مُشرقاً ومبتهجاً كما هو شأنه دائماً، إلا إذا سُئِل عن صحة ابنته.

«إنها تُعاني معاناة شديدة، ولا بد أن تعاني أكثر: إننا نفعل ما في وسعنا لكي نُخفف ألمها - إنها إرادة الرب!)» ورفع قبعته عندما نطق هذه الكلمات الأخيرة. لقد اكتشفتُ، من الآنسة ماتي، أن كل شيء قد تم عمله بالفعل. فقد استُدعيَ طبيب يحظى بسمعة طيبة في المناطق الريفية المجاورة، وأُخذَ بكل نصيحة قدمها، بصرف النظر عن الكُلْفَة. وكانت الآنسة ماتي متأكدة من أنهم قد حرموا أنفسهم من أشياء كثيرة من أجل جعل المريضة مرتاحة، ولكنهم لم يتحدثوا قطُّ بذلك. أما بالنسبة إلى الآنسة جيسي! «أعتقد حقاً أنها ملاك»، قالت الآنسة ماتي المسكينة ذلك وهي متأثرة جداً. وأضافت، «إن مشاهدة الطريقة التي تتحمل فيها غضب الآنسة براون، والوجه المشرق الذي تتصنّعه بعد السهر ليلة كاملة مع التعرض للتوبيخ في الجزء الأكبر منها، هو أمر رائع تماماً. ومع ذلك تظهر بمظهر أنيق وتكون مستعدة للترحيب بالنقيب في وقت الإفطار كما لو كانت نائمة في فراش الملكة طوال الليل. يا عزيزتي! لن تستطيعي أن تضحكي مطلقاً من خصلات شعرها الملتفة الصغيرة الأنيقة أو من أنشوطاتها الوردية مرة أخرى لو أنك شاهدتها كما شاهدتها أنا». لا يسعني إلا أن أشعر بندم شديد، وأن أُحَيّي الآنسة جيسي بقدر

مضاعف من الاحترام عندما أقابلها في المرات القادمة. لقد بدت باهتة وذابلة، وبدأت شفتاها ترتعشان كما لو كانت سقيمة جداً، عندما تحدثت بشأن أختها. ولكنها أشرقت، وقاومت دموعها التي كانت تتلألأ في عينيها الجميلتين عندما قالت :

«لكن من المؤكد أن كرانفورد بلدة أهل الكرم! لا أتصور أن يكون لدى أي شخص غداء مطهوّ أفضل من المعتاد، دون أن يأتي الجزء الأفضل من كل شيء داخل وعاء مُغطى من أجل أختي. ويترك الفقراء بواكير خضرواتهم عند بابنا من أجلها. إنهم يتكلمون بإيجاز وبصوت أجش، كما لو كانوا يشعرون بالخجل من ذلك: ولكن من المؤكد أن رؤية اهتمامهم تُشجعني في كثير من الأحيان». عادت الدموع الآن وانهمرت. ولكنها بدأت توبخ نفسها بعد بضع دقائق، وانتهى بها الأمر إلى الانصراف وهي الآنسة جيسي المبتهجة ذاتها كما هو شأنها دائماً.

قلتُ، «لكن لماذا لا يفعل اللورد ماليفير هذا شيئاً ما من أجل الرجل الذي أنقذ حياته؟»

«آه، كما تعرفين، لا يتكلم النقيب براون مُطلقاً بشأن فقره ما لم يكن هناك سبب وجيه لذلك. وقد سار بجانب سيادة اللورد سعيداً ومبتهجاً مثل أمير. ونظراً إلى أنهم لم يلفتوا الانتباه لغدائهم بالاعتذارات، ونظراً إلى أن الآنسة براون كانت في حال أفضل في ذلك اليوم، وبدا كل شيء مُشرقاً، فأعتقد أن سيادة اللورد لم يعرف قطُّ مدى الاهتمام بعيداً عن الأنظار. لقد أرسل لحوم طرائد في كثير من الأحيان في فصل الشتاء، ولكنه سافر إلى الخارج الآن».

أُتيحت لي فرصة، في كثير من الأحيان، لملاحظة النفع الذي كان يُجنَى من الفتات والفرص الصغيرة في كرانفورد. فقد كانت أوراق الورد تُجمع قبل سقوطها لكي تُحوّل إلى أوراق عطرية لأشخاص ليس لديهم حديقة. وتُرسل الحزم الصغيرة من أزهار اللافندر لتكسو خزانة أدراج أحد سكان البلدة، أو لكي تُحرق في غرفة مريض ما. وهناك أمور يمكن أن يُقلل الكثيرون من شأنها، وأعمال بدا أنها لا تستحق القيام بها، كانت محل اهتمام في كرانفورد. لقد ملأت الآنسة جينكينز تفاحة بأعواد كبش القرنفل، لكي تُسخَّن فتفوح عطراً بعذوبة في غرفة الآنسة براون. وفي كل مرة كانت تغرز فيها عوداً كانت تقول جملة كتبها جونسون. في الواقع إنها لم تستطع قطُّ التفكير في أسرة براون دون ذكر اقتباس من جونسون. ونظراً إلى أنهم نادراً ما كانوا يغيبون عن ذهنها، فقد سمعتُ الكثير من الجمل رفيعة المستوى تتدفق.

جاء النقيب براون ذات يوم لكي يشكر الآنسة جينكينز على العديد من الأعمال اللطيفة الصغيرة، التي لم أعرف حتى ذلك الوقت أنها كانت قدمتها. لقد أصبح فجأة مثل رجل مُسِنّ، فكانت هناك رعشة في صوته الجهوري، وبدت عيناه باهتتين، وتجاعيد وجهه عميقة. لم يتكلم بشأن حالة ابنته بمرح، فلم يكن قادراً على ذلك. ولكنه تكلم باستسلام رجولي ورِع، وليس كثيراً، فقد قال مرتين، «الرب وحده يعرف ماذا كانت جيسي بالنسبة إلينا!» وبعد المرة الثانية، نهض بسرعة، وصافح الجميع دون أن يتكلم، ثم غادر الغرفة.

بعد ظهر ذلك اليوم، لاحظنا جماعات صغيرة في الشوارع. كانوا جميعهم يُصغون بوجوه مشدوهة إلى حكاية ما. تساءلت

الآنسة جينكينز بعض الوقت عما يمكن أن تكون المسألة قبل أن تتخذ الخطوة غير الملائمة بإرسال جيني لكي تستفسر.

عادت جيني بوجه شاحب من الذعر. «أوه يا سيدتي! أوه يا آنسة جينكينز، يا سيدتي! لقد قتلت سكة الحديد البغيضة القاسية النقيب براون!» ثم انفجرت باكية. لقد خبرت هي، إلى جانب آخرين، لُطف النقيب المسكين.

«كيف؟ .. أين .. أين؟ يا إلهي الرحيم! لا تُضيعي الوقت في البكاء يا جيني، بل قولي لنا شيئاً». اندفعت الآنسة ماتي فوراً خارجة إلى الشارع، وأمسكت بياقة الرجل الذي كان يروي الحكاية.

«ادخل، ادخل إلى أختي في الحال، الآنسة جينكينز، ابنة القسيس. أوه أيها الرجل! قُل إن ذلك ليس صحيحاً». صاحت قائلة ذلك في أثناء جلبها سائق العربة المذعور وهو يمسِّد شعره، إلى داخل غرفة الاستقبال، حيث وقف بجزمته المبللة على السجادة الجديدة، ولم يلحظ أحد ذلك.

«أرجوك يا سيدتي، إنه صحيح. لقد رأيته بأم عينيّ». وارتجف عند تذكر المشهد. «كان النقيب مُستغرقاً في قراءة كتاب جديد وهو ينتظر القطار القادم من العاصمة. وكانت هناك فتاة صغيرة أرادت المجيء إلى أمها والهرب من أختها، فجاءت تخطو خلال خط سكة الحديد. ورفع نظره فجأة، عندما سمع صوت القطار قادماً، ورأى الطفلة، فاندفع إلى خط سكة الحديد، ورفعها، فانزلقت قدمه، وسار القطار فوقه في الحال. أوه يا إلهي! سيدتي، إن ذلك صحيح تماماً، وقد جاؤوا إلى هنا لكي يُخبروا ابنتيه. الطفلة في أمان، مع كدمة في

كتفها فحسب حيث كان قد رماها إلى أمها. النقيب المسكين، لا بد أن يكون مسروراً بذلك، أليس كذلك؟ فليباركه الرب!» جعّد سائق العربة الضخم المضطرب وجهه الرجولي، واستدار لإخفاء دموعه. التفتُّ نحو الآنسة جينكينز. لقد بدت معتلة جداً، كما لو كانت توشك أن يُغمى عليها، وأشارت إليّ لأفتح النافذة.

«أحضري لي قلنسوتي يا ماتيلدا. ينبغي لي أن أذهب إلى تلكما الفتاتين. سامحني يا رب إن كنتُ قد كلمت النقيب بازدراء في أي وقت!»

رتبت الآنسة جينكينز هندامها لكي تخرج، وطلبت من الآنسة ماتيلدا أن تقدِّم كأس نبيذ إلى الرجل. وفي أثناء وجودها في الخارج، جثمتُ والآنسة ماتي قرب النار نتحدث بصوت منخفض في ذهول تملؤه الرهبة. وأعرف أننا كنا نبكي بهدوء طوال الوقت.

عادت الآنسة جينكينز إلى المنزل في مزاج صامت، ولم نجرؤ على طرح الكثير من الأسئلة عليها. قالت لنا إن الآنسة جيسي قد أغمي عليها، وأنها والآنسة بول قد واجهتا صعوبة في إعادتها إلى الوعي. ولكن بمجرد أن تعافت طلبت بتوسل أن تذهب واحدة منهما للجلوس مع أختها.

«يقول السيد هوغينز إنها لن تستطيع العيش أياماً كثيرة، وإنها يجب أن تُجنَّب هذه الصدمة». قالت الآنسة جيسي ذلك بمشاعر لم تجرؤ على إطلاق العنان لها.

سألت الآنسة جينكينز، «ولكن كيف يمكنك تدبُّر ذلك الأمر يا عزيزتي؟ فأنت غير قادرة على التحمل، ولا بد أن تُرى دموعك».

«سيساعدني الرب. لن أستسلم. لقد كانت نائمة عندما وصل الخبر. وربما كانت ما تزال نائمة. سوف تكون بائسة جداً، ليس لمجرد موت أبي، ولكن من التفكير فيما سيحدث لي. إنها طيبة جداً معي». نظرتْ بجدية في وجهيهما بعينيها الرقيقتين الصادقتين، وقالت الآنسة بول، مُحدِّثة الآنسة جينكينز فيما بعد، إنها تكاد تكون غير قادرة على تحمل الأمر، نظراً إلى أنها تعرف كيف عاملت الآنسةُ براونُ أختَها.

ومع ذلك، فقد سُوِّيَ الأمر وفقاً لرغبة الآنسة جيسي. وكان ينبغي إبلاغ الآنسة براون بأن والدها استُدعي للقيام برحلة قصيرة في عمل لسكة الحديد. وقد تدبرتا الأمر بطريقة ما، ولم يكن باستطاعة الآنسة جينكينز أن تعرف كيف تم ذلك الأمر بالضبط. وتعيَّن على الآنسة بول أن تبقى عند الآنسة جيسي، وأرسلت السيدة جاميسون لتستفسر عن الأمر. وكان هذا هو كل ما سمعنا به في تلك الليلة. لقد كانت ليلة حزينة. وفي اليوم التالي، كان هناك وصف كامل للحادث المُهلك في صحيفة المقاطعة التي أحضرتها الآنسة جينكينز إلى الداخل. قالت إن عينيها كانتا ضعيفتين جداً، وطلبت مني أن أقراها. وعندما وصلتُ إلى: «كان السيد الشهم مُستغرقاً بعمق في قراءة عدد من 'بيكويك' الذي كان قد استلمه توّاً»، هزَّت الآنسة جينكينز رأسها طويلاً برزانة، ثمَّ تنهدت، «رجل مُتيّم، عزيز، مسكين!»

كان من المُقرر نقل الجثة من المحطة إلى الكنيسة الرعوية، لكي تُدفن هناك. وكانت الآنسة جيسي مُصممة على السير وراءها إلى القبر. ولم يتمكن أحد من إقناعها بالعدول عن عزمها. لقد جعلتها

القيود التي وضعتها على نفسها عنيدة إلى حد ما. لقد قاومت جميع التماسات الآنسة بول ونصيحة الآنسة جينكينز. وأخيراً تخلت الآنسة جينكينز عن هذا الأمر. وبعد فترة صمت، خشيتُ أنها كانت تُنذر باستياء عميق ضد الآنسة جيسي، قالت الآنسة جينكينز إنه يتعين عليها مرافقة الأخيرة إلى الجنازة.

«لا يليق بك أن تذهبي وحدكِ. إنْ سمحتُ لك بالذهاب، فسيكون ذلك نقيض التهذيب والإنسانية على حدّ سواء».

بدا أن هذا الترتيب لم يَرُق للآنسة جيسي إطلاقاً، ولكن عنادها، إن كان لديها أي عناد، كان قد استُنْفِد في تصميمها على الذهاب إلى القبر. لا يساورني أي شك في أن المسكينة كانت تتوق للبكاء فوق قبر والدها العزيز الذي كانت عنده كل شيء، وأن تسترسل مدة نصف ساعة لا تُقاطَع فيها بتعاطف ولا تُشاهدها صديقة. ولكن هذا لم يكن ليحدث، ففي بعد ظهر ذلك اليوم، أرسلت الآنسة جينكينز تطلب متراً من قماش الكريب الأسود، وانهمكت في تشذيب قلنسوة الحرير السوداء الصغيرة التي تحدثت بشأنها. وعندما أصبحت جاهزة ارتدتها ونظرت نحونا مُنتظرة الاستحسان - كانت تحتقر الإعجاب. لقد كُنتُ غارقة في الحزن، ولكنني، من خلال إحدى تلك الأفكار الغريبة التي تقتحم رؤوسنا بلا دعوة، في أكثر لحظات الحزن عمقاً، تذكرتُ الخوذة حالما رأيت القلنسوة. وفي تلك القلنسوة الهجينة، التي كانت مزيجاً من الخوذة ومن قبعة الفرسان، حضرت الآنسة جينكينز جنازة النقيب براون، وكذلك، حسب اعتقادي، ساندت الآنسة جيسي بتماسك رحيم لطيف، لا يقدّر بثمن، وسمح لها بتفريغ شحنتها العاطفية بالنحيب قبل مغادرتها.

في تلك الأثناء، اعتنيتُ والآنسة بول والآنسة ماتي بالآنسة براون: ووجدنا صعوبة كبيرة في تخفيف شكاواها النكدة الدائمة. ولكن إذا كنا نحن مُنهَكات ومُحبَطات كثيراً، فكيف كان حال الآنسة جيسي! ومع ذلك فقد عادت هادئة إلى حد ما كما لو أنها قد اكتسبت قوة جديدة. كانت قد خلعت رداء حدادها، ودخلت وهي تبدو شاحبة ولطيفة، تشكر كل واحدة منا بضغطة طويلة رقيقة على يدها. وكان في إمكانها أن تبتسم أيضاً، ابتسامة كئيبة عذبة باهتة، وكأنها كانت تُطمئننا على قدرتها على التحمل. ولكن مظهرها جعل أعيننا تمتلئ فجأة بالدموع، أكثر مما لو بكت دون تحفظ.

استقر الرأي على أن تبقى الآنسة بول معها طوال ليلة المراقبة، وأن أعود والآنسة ماتي في الصباح لإراحتها، ولنمنح الآنسة جيسي فرصة لتنام بضع ساعات. ولكن عندما حلَّ الصباح، ظهرت الآنسة جينكينز على مائدة الإفطار، مرتدية قلنسوتها - خوذتها، وأمرت الآنسة ماتي أن تبقى في المنزل، حيث كانت تنوي الذهاب والمساعدة في تقديم الرعاية. من الواضح أنها كانت في حالة إثارة ودِّيَّة شديدة أظهرتها من خلال تناول إفطارها وهي واقفة، وتوبيخ أفراد الأسرة طوال الوقت.

ليست هناك رعاية - وليست هناك امرأة مفعمة بالحيوية تستطيع مساعدة الآنسة براون الآن، مهما بلغت قدرتها على الرعاية، ومهما كانت قوية العزيمة ومفعمة بالحيوية. كان ذلك هو الحال في الغرفة عندما دخلنا، وكان أقوى منا جميعنا، ما جعلنا ننكمش في عجز مهيب رزين. كانت الآنسة براون تحتضر. لقد عرفنا صوتها بصعوبة، حيث كان خالياً من نبرة التبرّم التي ربطناها بها دائماً.

قالت لي الآنسة جيسي فيما بعد إن صوتها، ووجهها أيضًا، كانا بالضبط على ما كانا عليه سابقاً، عندما تركها موت أمها شابة قلقة مسؤولة عن الأسرة التي لم يبقَ منها على قيد الحياة سوى جيسي.

كانت واعية بحضور أختها، ولكن ليس بحضورنا نحن، على ما أعتقد. وقفنا وراء الستارة بقليل: ركعت الآنسة جيسي ووجهها قريب من وجه أختها، لكي تُصغي إلى الهمسات الرقيقة المهيبة الأخيرة.

«أوه يا جيسي! جيسي! كم كنتُ أنانية! ليغفر لي الرب لأنني تركتك تضحين بنفسك من أجلي كما فعلتِ! لقد أحببتك، ومع ذلك فكرت في نفسي فحسب. ليغفر لي الرب!»

قالت الآنسة جيسي في نشيج، «ششش! أحبك! ششش!»

«وأبي، عزيزي، أبي العزيز! لن أتذمر الآن، إن منحني الرب القوة كي أكون صبوراً. ولكن، أوه، يا جيسي! أخبري أبي كم شعرتُ بتوق واشتياق إلى رؤيته في لحظاتي الأخيرة، وإلى طلب صفحه. لن يتمكن الآن أبداً من معرفة كم أحببته - أوه! لو كان بإمكاني أن أخبره، قبل موتي فحسب! كم كانت حياته مليئة بالحزن، وأنا لم أفعل شيئاً يُذكر لإسعاده!»

أشرق وجه الآنسة جيسي، وقالت، «هل يريحك يا عزيزتي أن تعتقدي أنه يعرف ذلك؟ - هل يريحك يا حبيبتي أن تعرفي أن همومه وأحزانه» - ارتعش صوتها، ولكنها جعلته يستقر ويعود إلى الهدوء - «ماري! لقد ذهب قبلك إلى المكان الذي يستريح فيه المُتعبون. إنه يعرف الآن كم كنتِ تُحبينه».

ظهر على وجه الآنسة براون نظرة غريبة، ولم تكن نظرة أسى. لم تتكلم بعضَ الوقت، ولكن رأينا بعد ذلك شفتيها تُشكِّلان الكلمات، بدلاً من سماع الصوت، «أبي، أمي، هاري، آرشي». ثم، كما لو كانت فكرة جديدة تُلقي بظل رقيق جداً على عقلها المظلم - «ولكنك سوف تبقين وحيدة يا جيسي! »

أعتقد أن الآنسة جيسي كانت تشعر بهذا كله خلال فترة الصمت، فقد انهمرت الدموع على وجنتيها مع تلك الكلمات مثل المطر، ولم تستطع الإجابة في البداية. ثم ضمّت يديها معاً بقوة، ورفعتهما، وقالت -لكنها لم تتحدث إلينا- «على الرغم من أنه يفتك بي، إلا أنني سأثق به».

بعد بضع لحظات أخرى، استلقت الآنسة براون هادئة وساكنة - دون مزيد من الأسى أو التذمر.

بعد هذه الجنازة التالية، أصرت الآنسة جينكينز أن على الآنسة جيسي أن تأتي لكي تعيش معها بدلاً من العودة إلى المنزل الخاوي. وفي الواقع، عرفنا من الآنسة جيسي أن عليها التخلي عنه نظراً إلى أنه ليس لديها المال الكافي للحفاظ عليه. لقد كان لديها ما يزيد قليلاً على عشرين جنيهاً إسترلينياً في السنة، إضافة إلى فوائد المال الذي سيُباع به الأثاث. ولكنها لا تستطيع العيش على ذلك: ولذلك تحدثنا بشأن مؤهلاتها لكسب المال.

قالت، «أستطيع الخياطة بإجادة، وأُحب التمريض. وأعتقد، أيضاً، أنني أستطيع تدبير أمور منزل، إذا قبل أي شخص تجربتي

مدبرةَ منزل. أو يمكنني العمل بائعة في متجر، إذا تحلوا بالصبر معي في البداية».

قالت الآنسة جينكينز، بصوت غاضب، ينبغي لها ألّا تفعل أشياء كهذه. وتحدثت إلى نفسها حول «هناك من ليس لديها أدنى فكرة في مكانتها بوصفها ابنة النقيب». وبعد حوالى ساعة، عندما أَحْضَرَتْ للآنسة جيسي صحناً من العرعروط المُعدّ بعناية، ووقفت فوقها مثل تنين إلى أن انتهت آخر ملعقة: ثم اختفت. هنا بدأت الآنسة جيسي تُخبرني بالمزيد من الخطط التي طرحت نفسها عليها، وانتقلت دون اكتراث إلى الحديث بالأيام الخوالي، وأثارت اهتمامي إلى درجة أنه إما أنني لم أعرف، أو أنني لم أهتم، كيف مرّ الوقت. وتفاجأت كِلتانا عندما ظهرت الآنسة جينكينز مرة أخرى، وضبطتنا ونحن نبكي. خشيت أن تكون ممتعضة، حيث كانت تقول في كثير من الأحيان إن البكاء يعيق عملية الهضم، وكنت أعرف أنها تريد أن تُصبح الآنسة جيسي قوية، إلا أنها، بدلاً من ذلك، بدت غريبة ومتحمسة، وتململت حولنا دون قول أي شيء. ثم تكلمت أخيراً.

«لقد كنت مذهولة كثيراً.. لا، لم أكن مذهولة على الإطلاق.. أرجو المعذرة يا عزيزتي الآنسة جيسي.. لقد كنتُ متفاجئة جداً. في الواقع، جاءني زائر، سبق أن قابلتِه أنتِ مرّة يا عزيزتي الآنسة جيسي».

أصبحت الآنسة جيسي شاحبة جداً، ثم تورّدت بلون قرمزي، ونظرت باهتمام إلى الآنسة جينكينز.

«يا عزيزتي، هناك رجل محترم يريد أن يعرف ما إذا كنت ترغبين في رؤيته».

تلعثمت الآنسة جيسي، «هل؟ .. أليس» .. ولم تقل المزيد.

«هذه هي بطاقته». قالت الآنسة جينكينز ذلك وهي تُعطيها للآنسة جيسي. وعندما كان رأسها منحنياً فوقها، مرّت الآنسة جينكينز بسلسلة من الغمز وحركات الوجه الغريبة نحوي، وشكلت بشفتيها جملة طويلة لم أفهم، قطعاً، كلمة واحدة منها.

سألت الآنسةُ جينكينزُ أخيراً، «هل يمكنه أن يحضر؟»

«أوه، نعم! بالتأكيد!» قالت الآنسة جيسي ذلك كما لو كانت تقول إن هذا منزلك، فيمكنك أن تُرشدي أي زائر وقتما شئت. ثم أخذت بعض الحياكة من الآنسة ماتي، وانهمكت جداً في العمل، على الرغم من أنني كنت قادرة على رؤية كم كانت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها.

قرعت الآنسة جينكينز الجرس، وأخبرت الخادمة التي استجابت له بأن تُرشد الرائد غوردون إلى الطابق العلوي. وفي الحال، دخل رجل طويل القامة، وسيم، سمحٌ، في الأربعين من عمره، أو أكثر. صافح الآنسة جيسي، ولكنه لم يستطع رؤية عينيها، فقد أبقتهما مثبتتين على الأرض. طلبت مني الآنسة جينكينز أن أرافقها وأساعدها في ربط المحفوظات في غرفة التخزين. وعلى الرغم من أن الآنسة جيسي أمسكت بثوبي وسحبته، بل نظرت إليَّ بعينين تتوسلان، إلا أنني لم أجرؤ على رفض الذهاب إلى حيث طلبت مني الآنسة جينكينز أن أذهب. وبدلاً من الذهاب لتحزيم المحفوظات في غرفة التخزين، ذهبنا للتحدث في غرفة الطعام. وهناك أخبرتني الآنسة جينكينز بما قاله لها الرائد غوردون: كيف

خدم في الكتيبة نفسها التي خدم فيها النقيب براون، وكيف تعرف إلى الآنسة جيسي، التي كانت عندئذ فتاة جميلة يانعة في الثامنة عشرة من عمرها. وكيف تطور التعرف إلى حب من طرَفه، على الرغم من مرور سنوات قبل أن يتكلم. وكيف أنه عندما أصبح صاحب أملاك من خلال تَرِكَةِ عمّ له في اسكتلندا، تقدَّم بطلب الزواج بها ورُفِض. لقد كان متاكداً من أنها لم تكن غير مهتمة به، على الرغم من أنه قال ذلك بكثير من الارتباك وبضيق واضح. وكيف اكتشف أن العائق كان المرض الفظيع الذي كان يُهدد حياة أختها حتى في ذلك الوقت. وكانت قد ذكرت أن الجراحين توقعوا أن تعاني معاناة شديدة، ولم يكن هناك أحد سواها ليعتني بأختها المسكينة ماري، أو ليروِّح عن أبيها ويواسيه في أثناء فترة المرض. تناقشا نقاشاً طويلاً. ولكن نظراً إلى رفضها التعهد بأن تكون زوجته عندما ينتهي كل شيء، فقد غضب وقطع علاقته بها كلياً، وسافر إلى الخارج معتقداً أنها كانت إنسانة قاسية القلب ومن الأفضل له أن ينساها.

كان مسافراً في الشرق، وفي أثناء عودته إلى الوطن، في روما، رأى وصف حادثة موت النقيب براون في صحيفة غاليناني.

في تلك اللحظة بالضبط، دخلت الآنسة ماتي، التي كانت خارج المنزل طوال فترة الصباح، وكانت قد عادت تواً إلى المنزل. دخلت مندفعة بوجه تعلوه ملامح خوف واحتشام غاضب.

قالت، «أوه، يا إلهي! يا ديبورا، إن هناك سيداً في غرفة الاستقبال يلفّ ذراعه حول خصر الآنسة جيسي!» وبدت عينا الآنسة ماتي واسعتين يملؤهما الخوف.

أهملتها الآنسة جينكينز برهة.

«إنه المكان الأنسب في العالم لذراعه. انصرفي يا ماتيلدا، واهتمي بشؤونك الخاصة». لقد كان هذا القول من أختها، التي كانت حتى هذه اللحظة مثالاً يُحتذى للحشمة الأنثوية، مثابة صفعة لماتي المسكينة، فغادرت الغرفة بصدمة مضاعفة.

كانت آخر مرة رأيت فيها الآنسة جينكينز بعد عدة سنوات من هذا الحدث. لقد حافظت السيدة غوردون على علاقة وُدِّيَّة وحميميّة مع جميع سكان كرانفورد. وكانت الآنسة جينكينز والآنسة ماتي والآنسة بول يأتين جميعهن لزيارتها، ويَعُدن بأوصاف رائعة لمنزلها وزوجها وثوبها ومظهرها، ذلك أن بعضاً من نضارتها المبكرة قد عادت مع السعادة. لقد كانت أصغر ببضع سنين عما حسبناها. كانت عيناها رائعتين دائماً، ولم تكن غمازتاها غير منسجمتين مع وجهها في وضعها الجديد بوصفها السيدة غوردون. عندما رأيت الآنسة جينكينز آخر مرة في الوقت الذي أشرت إليه، كانت تلك المرأة هَرِمة وضعيفة، وكانت قد فقدت بعضاً من عقلها القوي. لقد كانت فلورا غوردن الضئيلة الحجم تُقيم مع الآنسة جينكينز وأختها. عندما دخلتُ، كانت تقرأ بصوت مرتفع للآنسة جينكينز التي كانت مستلقية في وهن، وغيَّرت وضعها على الأريكة، ووضعت فلورا كتاب رامبلر جانباً.

قالت الآنسة جينكينز، «آه! لقد وجدتِ أن حالي قد تبدّل يا عزيزتي. إنني لا أرى كما كنتُ أرى في السابق. لا أعرف كيف كنتُ سأقضي يومي لو لم تكن فلورا هنا لتقرأ لي. هل سبق أن قرأتِ

لرامبلر؟ إنه كتاب رائع.. رائع! ويُحسّن مهارة فلورا في القراءة إلى حد كبير» (وهو أمر أعتقد أنه كان من الممكن أن يكون صحيحاً لو كان بإمكانها قراءة نصف الكلمات دون تهجئة، وعلى فهم معاني ثلثها)، «إنه أفضل من ذلك الكتاب القديم الغريب، ذي الاسم العجيب، الذي قُتِلَ النقيب المسكين بسبب قراءته -ذلك الكتاب من تأليف السيد بوز، كما تعلمين- 'بوز العجوز'[(* 1)]، عندما كنتُ فتاة، ولكن كان ذلك قبل وقت طويل، قمتُ بدور لوسي في قصة 'بوز العجوز'». استمرت بالتحدث بكلام غير مفهوم فترة طويلة بما فيه الكفاية لكي تُهجئ فلورا «كريسماس كارول» تهجئة جيدة، وهو عنوان الكتاب الذي تركته الآنسة ماتي على المنضدة.

* * *

(1) تخلط الآنسة بين السيد بوز (Boz) وبين قصة قديمة اسمها (Old Poz) ولوسي هي إحدى شخصيات هذه القصة.

3

علاقة غرامية منذ أمد بعيد

اعتقدتُ أنه من المحتمل أن تتوقف علاقتي مع كرانفورد بعد وفاة الآنسة جينكينز. أو بالأحرى، أن تستأنف بالمراسلة، التي تُشبه صلتها بالعلاقات الشخصية ذات الصلة بين كتب النباتات المجففة التي أراها أحياناً (أظن أنهم يطلقون اسم «هورتيكوس سيكوس» على هذا الأمر) وبين الأزهار الحية والنضرة في الحدائق والمروج. لذلك فقد فوجئت بسرور عند تلقي رسالة من الآنسة بول (التي كانت تأتي دائماً كي تدعوني لأمكث أسبوعاً إضافياً بعد زيارتي السنوية للآنسة جينكينز) اقترحتْ فيها أن أذهب وأقيم معها. ثمّ، بعد موافقتي ببضعة أيام، وصلت رسالة من الآنسة ماتي أخبرتني فيها، بطريقة متواضعة جداً وغير مباشرة إلى حد ما، بمدى البهجة التي كنتُ سأضفيها إذا كان بإمكاني قضاء بضعة أسابيع معها، إما قبل زيارتي للآنسة بول أو بعدها. وقالت، «ذلك أنني مدركة تماماً أنه ليس لديّ مُغريات أقدمها منذ وفاة أختي العزيزة، ولا يمكنني أن أكون ممتنة لصحبة صديقاتي إلا بسبب لطفهن».

ومن غير شك وعدتُ بالمجيء لرؤية الآنسة ماتي العزيزة فور انتهاء زيارتي للآنسة بول. وذهبت لرؤيتها في اليوم التالي بعد وصولي إلى كرانفورد، وأنا أتساءل كيف سيبدو المنزل بعد رحيل

الآنسة جينكينز، وكنت خائفة إلى حد ما من حيثية تبدُّل الأمور. بدأت الآنسة ماتي بالبكاء فور رؤيتها لي، وكان واضحاً أنها كانت متوترة من توقعها لزيارتي. واسيتها قدر استطاعتي، ووجدتُ في الثناء الصادق النابع من قلبي عند الحديث بذكرى الراحلة أفضل عزاء أستطيع تقديمه إليها. كانت الآنسة ماتي تهزّ رأسها ببطء على كل فضيلة عند ذكرها ونسبتها إلى أختها. وفي نهاية المطاف، لم تستطع كبح الدموع التي كانت تنهمر بصمت فترة طويلة، ولكنها أخفت رأسها وراء منديلها وانتحبت بصوت مرتفع.

«عزيزتي الآنسة ماتي». قلتُ ذلك وأنا أمسك بيدها.. ذلك أنني لم أعرف في الواقع بأي طريقة أخبرها بمدى الأسف الذي كنت أشعر به تجاهها، فقد تُرِكت وحدها في هذا العالم. أنزلت منديلها وقالت:

«يا عزيزتي، أنا أُفضل ألّا تناديني ماتي. لم يكن يُعجبها ذلك، ولكن أخشى أنني فعلت أشياء كثيرة لم تكن تعجبها.. وقد رحلت الآن! لو سمحت يا حبيبتي، هلا ناديتني باسم ماتيلدا؟»

وعدتُ بإخلاص، وبدأت بالتدرب على استخدام الاسم الجديد مع الآنسة بول في ذلك اليوم ذاته. وشيئاً فشيئاً، أصبح شعور الآنسة ماتيلدا في هذا الصدد معروفاً في كافة أنحاء كرانفورد، وحاولنا جميعنا الكف عن استخدام الاسم المألوف أكثر، ولكن نظراً إلى عدم بروز نجاح يُذكر، فقد تخلينا تدريجياً عن المحاولة.

كانت زيارتي للآنسة بول هادئة جداً. لقد كانت الآنسة جينكينز تأخذ بزمام المبادرة فترة طويلة في كرانفورد إلى درجة أنه لم

يكن باستطاعتهن إقامة حفلة الآن بعد رحيلها إلا بشقّ الأنفس. وكانت فخامة السيدة جاميسون، التي كانت الآنسة جينكينز نفسها تتنازل لها دائماً عن مركز الشرف، بدينة وخاملة، وإلى حد كبير تحت رحمة خادماتها الكبيرات في السن، فإذا حلا لهنّ أن تقيم حفلة، فإنهنّ يذكّرنها بضرورة إقامتها: وإلا تخلت عن الأمر. لقد كان لديّ، وأنا أصلح قمصان والدي، الكثير من الوقت لسماع قصص قديمة من الآنسة بول، في أثناء جلوسها للحياكة. كنتُ أُحضِرُ معي دائماً إلى كرانفود كميات كبيرة من الملابس التي تحتاج إلى خياطة بسيطة، فنظراً إلى أننا لم نكن نقرأ كثيراً أو نمشي كثيراً، كنتُ أجده وقتاً رائعاً لإنجاز عملي. كانت إحدى قصص الآنسة بول تتعلق بتلميح إلى علاقة حب مُتصوّرة بشكل غير واضح، أو مشتبه بها، منذ سنوات بعيدة مضت.

وما لبث أن حان وقت الانتقال إلى منزل الآنسة ماتيلدا. لقد وجدتها خائفة وقلقة بشأن ترتيبات راحتي. وفي أثناء تفريغ محتويات حقيبتي، ذرعت المكان جيئة وذهاباً مرات عديدة لتحريك النار التي توهجت بشكل أسوأ بسبب تحريك جمرها بشكل متكرر.

سألتُ، «هل لديك أدراج كافية يا عزيزتي؟» ثم قالت، «لا أعرف كيف كانت أختي ترتبها، فقد كان لديها أساليب رائعة. إنني متيقّنة أنه كان بإمكانها في غضون أسبوع تدريب خادمة على إشعال النار بطريقة أفضل من هذه، و«فاني» حاضرة معي منذ أربعة أشهر».

لقد كان موضوع الخدم هذا مصدر تذمر دائم، ولم يكن بإمكاني الاستغراب كثيراً منه، ذلك أنه إذا كان الرجال المحترمين

نادرين في كرانفورد، ولا يُسمع بهم إلا نادراً في «المجتمع المتعلق بمظاهر الحياة الأرستقراطية»، فقد كانت الخادمات، أو نظراؤهن من الشباب الوسيمين، كُثراً في الطبقات الدنيا. وكانت الخادمات العازبات اللواتي يتمتعن بالجمال والأناقة يخترن ما يشأن من «المُعجَبين». وكان من الممكن أن تشعر سيداتهن -اللواتي لم يكن لديهنّ ذلك الشعور الخفي بالخوف من الرجال ومن الزواج الذي كانت تشعر به ماتيلدا- ببعض القلق خشية أن يُثير النجار أو اللحام أو البستاني اهتمام خادماتهن، أولئك الذين كانوا يضطرون إلى القدوم إلى المنزل بحكم عملهم، وكانوا بصورة عامة، لسوء الطالع، وسيمين وغير متزوجين. كان عشاق «فاني»، إن كان لديها أي عشاق، مصدر قلق مستمر لسيدتها. وقد اشتبهت الآنسة ماتيلدا بالعديد من العلاقات الغرامية غير الجدية لها. كنتُ سأرتاب من علاقة غرامية واحدة لها لو لم تكن جميلة جداً. وقد حُظِر عليها، في بنود الاتفاق معها، أن يكون لديها «مُعجَبون». وعلى الرغم من أنها ردت بقدر كبير من البراءة، وهي تطوي حاشية مئزرها في أثناء حديثها، «من فضلك يا سيدتي، لم يكن لديّ أكثر من مُعجَب واحد في كل مرة»، فقد حظرت الآنسة ماتيلدا ذلك المُعجَب الواحد. ولكن بدا أنه كان هناك طيف رجل يتردد على المطبخ. وأكدت لي «فاني» أن ذلك كان مُجرد وهم، ولولا ذلك كُنتُ سأقول إنني رأيت أنا نفسي ذات مرة ذيول معطف رجل تنتقل بخفة إلى داخل حجرة غسيل الأطباق، وذلك عندما ذهبت في مهمة إلى غرفة التخزين في الليل. وفي ليلة أخرى، عندما توقفتْ ساعاتنا اليدوية، ذهبت لكي أنظر إلى ساعة الحائط، فكان هناك مظهر غريب جداً، يُشبه إلى حد كبير شاباً مضغوطاً بين ساعة

الحائط وظهر باب المطبخ المفتوح: واعتقدت أن «فاني» انتزعت الشمعة بسرعة كبيرة لكي تجعل الظل يسقط على وجه الساعة، عندما أخبرتني بشكل قاطع بالوقت أبكر بنصف ساعة، بحسب ما اكتشفنا من ساعة الكنيسة في وقت لاحق. ولكنني لم أزد من حالات قلق الآنسة ماتي بذكر شكوكي، لا سيما أن «فاني» قالت لي في اليوم التالي إنه كان مطبخاً عجيباً جداً لظهور ظلال غريبة حوله، وكانت خائفة فعلياً من البقاء فيه. وأضافت، «كما تعلمين يا آنسة، فأنا لا أرى أي مخلوق من وقت احتساء شاي الساعة السادسة، حتى تقرع الآنسة جرس الصلاة في الساعة العاشرة».

من ناحية أخرى، حدث أنّ «فاني» اضطرت إلى المغادرة، وتوسلت إليّ الآنسة ماتيلدا للبقاء وجعلها «تعتاد» على الخادمة الجديدة. وقد وافقتُ على ذلك، بعد أن علمت من أبي أنه لا يحتاج إليّ في المنزل. كانت الخادمة الجديدة فتاة ريفية فظة ينم مظهرها عن استقامة، وكانت قد عاشت من قبل في مزرعة. ولكنني أحببت تعابير وجهها عندما جاءت لكي تتوظف. ووعدتُ الآنسة ماتيلدا أن أعرِّفها بعادات المنزل. وكانت تلك العادات على نحو مُتشدد من النوع الذي تعتقد الآنسة ماتيلدا أن أختها كانت ستوافق عليها. لقد كان الكثير من القواعد والأنظمة المنزلية عندي موضوع همس حزين ودندنة شجية عندما كانت الآنسة جينكينز على قيد الحياة. ولكن الآن بعد رحيلها، لا أعتقد أن أحداً، حتى أنا التي كنت أثيرة، قد تجرأ على اقتراح إجراء أي تعديل. على سبيل المثال: التزمنا باستمرار بالشكليات التي كانت تُتَّبع في مواعيد الوجبات في «منزل والدي القسيس». لذلك، كنا نتناول دائماً نبيذاً وحلوى بعد الأكل.

ولكن كانت المِصفقات تُعبأ عندما تكون هناك حفلة فحسب، وعلى الرغم من أن كلاً منا كانت تحتسي كأسين من النبيذ كل يوم بعد الغداء، إلا أنه نادراً ما كان يُلمس ما يتبقى من زجاجة النبيذ إلى أن يحين موعد المناسبة الاحتفالية التالية، حيث تُفحص حالة النبيذ المتبقي في مجلس عائلي. وكان الثفل يُعطى عادة للفقراء: ولكن في بعض الأحيان، عندما تكون هناك كمية كبيرة متبقية بعد الحفلة الأخيرة (ربما قبل خمسة أشهر)، فقد كانت تُضاف إلى بعض القوارير الجديدة التي جُلبَت من القبو. أتصور أن النقيب براون المسكين لم يكن يُحب النبيذ كثيراً، فقد لحظت أنه لم يُكمل قطُّ كأسه الأولى، في حين كان معظم الرجال العسكريين يحتسون عدة كؤوس. ثمّ، بالنسبة إلى الحلوى التي كنا نتناولها، فقد كانت الآنسة جينكينز تجمع الزبيب والكشمش بنفسها من أجل تلك الحلوى التي كنت أعتقد، أحياناً، أنه من الممكن أن يكون مذاقها أفضل لو كانت طازجة من الشجر، ولكن حينئذ، كما علّقت الآنسة جينكينز، فلن يكون هناك أي شيء لتناوله بوصفه «حلوى ما بعد الأكل» في فصل الصيف. كنا نشعر، إن صح التعبير، أننا منسوبون إلى حد كبير إلى طبقة المُترَفين بعد احتساء كل واحدة منا كأسين من النبيذ، وتناول طبق من الكشمش في الأعلى، وزبيب وبسكويت في الجوانب، ومِصفقين في الأسفل. وعندما أُدخِلت حبات البرتقال، جرى حدث غريب. لم تكن الآنسة جينكينز تُحبُّ تقطيع هذه الفاكهة. ذلك أنه، كما قالت هي، كان العصير يجري حيث لا يدري أحد. وكان الشفط (أعتقد أنها استخدمت كلمة ما مبهمة أكثر) في الواقع هو الطريقة الوحيدة للاستمتاع بحبات البرتقال. ثم كان هناك الانخراط غير السّارّ في

سلوك بالغ التهذيب يُجريه عادة أطفال صغار. وهكذا، بعد تناول حلوى ما بعد الأكل، في موسم البرتقال، كانت الآنسة جينكينز والآنسة ماتي تنهضان، وتأخذ كل منهما برتقالة في صمت، وتنسحب كل منهما إلى خلوة غرفتها الخاصة للاستمتاع بشفط البرتقال.

حاولتُ عدة مرات، في مثل هذه الحالات، أن أقنع الآنسة ماتي بالبقاء، وقد نجحتُ في ذلك في حياة شقيقتها. حيث رفعتُ ستارة ولم أنظر، وكما قالت، حاولتْ ألا تُحدِث صوتاً مزعجاً. ولكنها الآن بعد أن تُركت وحدها، بدت مرعوبة تماماً عندما التمستُ منها أن تبقى معي في صالة الطعام الدافئة، وتستمتع بأكل برتقالتها بالطريقة التي تُفضلها. وهكذا كان الأمر في كل شيء، فقد جُعِلت قواعد الآنسة جينكينز أكثر صرامة من أي وقت مضى، لأن التي صاغتها رحلت إلى مكان لا التماس فيه. وكانت الآنسة ماتيلدا مترددة بإفراط في جميع الأمور الأخرى. لقد سمعتُ «فاني» تغير رأيها عشرين مرة في صباح يوم ما بخصوص الغداء، تماماً كما يمكن أن يحلو لفتاة وقحة. وكان يُهيّأُ لي في بعض الأحيان أنها كانت تستغلّ نقاط ضعف الآنسة ماتيلدا لإرباكها، ولكي تجعلها تشعر أكثر بنفوذ خادمتها الذكية. وقررتُ ألا أتركها حتى أعرف أي نوع من الأشخاص كانت مارثا، فإذا اكتشفتُ أنها جديرة بالثقة، كنتُ سأطلب منها ألا تُرهق سيدتها بكل قرار صغير.

كانت مارثا فظة وصريحة بإفراط. وفيما عدا ذلك، كانت فتاة نشيطة وحسنة النية، لكنها جاهلة جداً. لم تكن قد أمضت معنا أسبوعاً قبل أن نُصاب أنا والآنسة ماتيلدا ذات صباح بالذهول لاستلام رسالة من ابن عم للآنسة ماتيلدا كان قد قضى في الهند

عشرين عاماً أو ثلاثين، وقد عرفنا من «قائمة الجيش» أنه كان قد عاد مؤخراً إلى إنجلترا، وأحضر معه زوجة مريضة لم يسبق أن تم تعريفها إلى أقاربها الإنجليز. وكتب الرائد جينكينز رسالة يقترح فيها أن يقضي وزوجته ليلة في النُّزُل في كرانفورد، وهو في طريقه إلى اسكتلندا، إذا لم يكن مناسباً إلى الآنسة ماتيلدا استقبالهما في منزلها. وكانا يأملان، في تلك الحالة، أن يقضيا أطول وقت ممكن معها في النهار. من غير شك، فلا بد أن يكون ذلك مناسباً إليها، على حد قولها، إذ إن جميع أهل كرانفورد كانوا يعرفون أنها تستطيع بحرية التصرف بغرفة نوم أختها. ولكنني متأكدة من أنها كانت تتمنى لو أن الرائد قد أقام في الهند ونسي بنات عمه تماماً.

سألتْ بعجز، «أوه! كيف ينبغي أن أتدبر الأمر؟ لو كانت ديبورا على قيد الحياة لعرفتْ ما الذي تفعله مع السيد الزائر. هل ينبغي لي أن أضع أمواس حلاقة في غرفة تبديل الملابس الخاصة به؟ يا إلهي! يا إلهي! وليس لديّ أية موسى. كان سيكون لدى ديبورا أمواس، وشباشب، وفراشي لتنظيف المعاطف؟» واقترحتُ أنه من المحتمل أن يكون قد أحضر كل هذه الأشياء معه. «وبعد الغداء، كيف لي أن أعرف متى ينبغي لي أن أنهض وأتركه مع نبيذه؟ كان من الممكن أن تفعل ديبورا ذلك بشكل جيد جداً. كانت ستقوم بفعل ذلك بكل أريحية. أتظنين أنه سيرغب في احتساء القهوة؟» تعهدتُ أنا بتدبر أمر القهوة، وأخبرتها أنني سأعلّم مارثا فن تقديم الخدمة – وينبغي أن أعترف أنها كانت ضعيفة فيه إلى حد فظيع – وأنه لم يكن لدي أدنى شك في أن الرائد جينكينز وزوجته كانا سيتفهمان الوضع الهادئ الذي تعيش فيه سيدة وحدها في بلدة ريفية. ولكنها كانت

مضطربة بشكل محزن. جعلتُها تُفرغ مِصفقاتها وتُحضر قارورتين جديدتين من النبيذ. تمنيتُ لو كان باستطاعتي منعها من أن تكون حاضرة في أثناء تقديم تعليماتي لمارثا، ذلك أنها كانت تُقاطع حديثنا تجاه ما هو جديد بشكل متكرر، فتشوش عقل الفتاة المسكينة التي كانت تقف بفم مفتوح مصغية لكِلتينا.

«مرّري الخضار على الجميع»، قلتُ ذلك (بغباء، أعرف ذلك الآن.. ذلك أنه كان يهدف إلى أكثر مما نستطيع تحقيقه بالهدوء والبساطة). ثمّ، بعد أن رأيتها تبدو في حيرة، أضفتُ، «مرّري الخضار من شخص إلى آخر، ودعيهم يخدمون أنفسهم بأنفسهم».

وقالت الانسة ماتيلدا، «وتذكري أن تذهبي أولاً إلى السيدات، اذهبي دائماً إلى السيدات قبل السادة عندما تقدمين الخدمة».

قالت مارثا، «سوف أفعل كما تقولين يا سيدتي، ولكنني أُحِبُّ الرجال أكثر».

انزعجنا كثيراً وصدمنا بشدة كلامُ مارثا هذا. ومع ذلك، لا أعتقد أنها قصدت أي سوء. وبوجه عام، فإنها راعت توجيهاتنا بشكل جيد جداً باستثناء أنها «وكزت» الرائد عندما لم يخدم نفسه بنفسه في الحصول على البطاطا بالسرعة التي توقعتها في أثناء تمريرها من شخص إلى آخر.

كان الرائد وزوجته، عندما وصلا، شخصين متواضعين وهادئين جداً. وكانا حسب ظني فاتِرَيِ الهمة، مثل جميع هنود الشرق. لقد شعرنا بالفزع إلى حد ما لإحضارهما خادمين معهما، خادماً هندوسياً خاصاً بالرائد، وخادمة مُسنّة لزوجته ترافقها بشكل دائم.

ولكنهما أقاما في النُّزل، وتحملا، بحرص شديد، قدراً كبيراً من المسؤولية باهتمامهما براحة سيدهما وسيدتهما. ولم تتوقف مارثا عن التحديق بالعمامة البيضاء للهندي الشرقي، وببشرته السمراء. وقد رأيت الآنسة ماتيلدا تنكمش قليلاً خوفاً منه في أثناء تقديمه الخدمة في وجبة الغداء. وفي الواقع إنها سألتني، بعد مغادرتهما، ما إذا كان يُذكّرني بذي اللحية الزرقاء؟ عموماً، كانت الزيارة مُرضية جداً، وهي موضوع حديث مع الآنسة ماتيلدا حتى في الوقت الحاضر. وفي ذلك الوقت، أثارت كرانفورد إلى حد كبير، بل عملت على تحفيز السيدة جاميسون فاترة الشعور والمحترمة فجعلتها تعبر عن اهتمامها، عندما ذهبتُ لزيارتها زيارة قصيرة وشكرتها على الإجابات التي تكرمت بمنحها رداً على استفسارات الآنسة ماتيلدا فيما يتعلق بترتيب غرفة نوم السيد. ولا بد أن أعترف أنها قدمت تلك الإجابات على طريقة النبية الإسكندنافية المُضجرة ..

«اتركوني، اتركوني لكي أرتاح».

ووصلتُ الآن إلى العلاقة الغرامية.

يبدو أنه كان للآنسة بول ابن عمّ، بعيد من حيث درجة القربى، جيلاً أو جيلين، وكان قد عرض على الآنسة ماتي الزواج منذ مدة طويلة. والآن كان ابن العمّ هذا يعيش في مزرعته الخاصة على بعد أربعة أميال أو خمسة من كرانفورد. ولكن أملاكه هذه لم تكن كبيرة بما فيه الكفاية لتخوّله الحصول على مكانة أعلى من صغار المُلّاك. أو بالأحرى رُفِض، بشيء من «الكبرياء التي تتخفى في قناع التواضع»، لكيلا يشق طريقه إلى منزلة الإقطاعيين، كما فعل

الكثيرون من طبقته. لم يكن يَسمح لنفسه أن يُدعى المُبجّل توماس هولبروك، بل إنه أعاد رسائل بهذا اللقب، وأخبر السيدة المُرسِلة في كرانفورد بأن اسمه هو السيد توماس هولبروك، من صغار المُلّاك. ورفض جميع الابتكارات المنزلية، فكان يترك باب المنزل مفتوحاً في الصيف ومُغلقاً في الشتاء، دون مِقرَعة باب أو جرس لاستدعاء الخادم، فقد كانت قبضة اليد المُطبَقَة، أو مسكَة العصا، تؤدي هذه المهمة بالنسبة إليه إذا وجد الباب موصداً. وكان يزدري كل تحسين ليس له جذور عميقة في الإنسانية. ولم يكن يجد أي ضرورة لتهدئة صوته إذا لم يكن الأشخاص مرضى. كان يتحدث لهجة الريف بإتقان، وكان يستخدمها باستمرار في المحادثة، على الرغم من أن الآنسة بول (التي أخبرتني بهذه التفاصيل) أضافت أنه كان يقرأ بصوت مرتفع بطريقة أجمل وبمشاعر أعمق من أي شخص آخر سَمِعَتْهُ، باستثناء القسيس الراحل.

سألتُ، «ولماذا لم تتزوجه الآنسة ماتيلدا؟»

قالت الآنسة بول، «أوه، لا أعرف. أعتقد أنه كان لديها رغبة كافية. ولكن، كما تعلمين، لم يكن ابن العم توماس رجلاً مرموقاً بما يكفي بالنسبة إلى القسيس وإلى الآنسة جينكينز».

قلتُ بصبر يكاد ينفد، «حسناً! ولكن لم يكونا هما مَن سيتزوجانه».

قالت الآنسة بول، «صحيح. ولكن لم يعجبهما أن تتزوج الآنسة ماتي برجل ذي منزلة أدنى من منزلتها. فقد كانت، كما تعلمين، ابنة القسيس، وهم أقرباء بطريقة ما للسير بيتر آرلي، وهو أمر كانت الآنسة جينكينز تعتقد أنه بالغ الأهمية».

قلتُ، «مسكينة الآنسة ماتي!»

قالت، «كلا. أنا لا أعرف أي شيء آخر أكثر من أنه تقدم إلى خطبتها ورُفِض. وربما كانت الآنسة ماتي لا تحبه. وربما الآنسة جينكينز لم تقل كلمة واحدة قطّ. إن ذلك مجرد تخمين مني».

سألت، «هل قابلَتْه منذ ذلك الحين؟»

«لا. أعتقد أنها لم تقابله. إن منزل ابن العم توماس في ودلي، كما تعلمين، إنه يقع في منتصف المسافة بين كرانفورد وميسلتون. وأنا أعلم أنه جعل من ميسلتون البلدة التي يُسوِّق فيها سلعه بعد وقت قصير من تقدمه إلى خطبة الآنسة ماتي. ولا أعتقد أنه جاء إلى كرانفورد سوى مرات قليلة منذ ذلك الحين. كانت إحدى المرات عندما كنتُ أسير مع الآنسة ماتي، في شارع هاي ستريت، وفجأة اندفعتْ مبتعدة عني وذهبت إلى جادة 'شاير لين'. وبعد بضع دقائق، صُدِمتُ عندما قابلتُ ابن العم توماس».

«كم عمره؟» سألتُ هذا بعد برهة من بناء قصور في الهواء.

«لا بد أن يكون عمره حوالى سبعين عاماً. أظن ذلك يا عزيزتي». قالت الآنسة بول ذلك، فتفجر قصري إلى شظايا صغيرة، كما لو أنها نسفته بالبارود.

بعد فترة وجيزة -على الأقل في أثناء زيارتي الطويلة للآنسة ماتيلدا- أُتيحت لي فرصة لقاء السيد هولبروك، وكذلك مشاهدة أول لقاء له مع حبه السابق بعد ثلاثين سنة أو أربعين سنة من الانفصال. كنتُ أساعد في تحديد ما إذا كان أي من قطع الحرير

الملون في التشكيلة الجديدة، التي كانوا قد استلموها توّاً في المتجر، يمكن أن تُناسب قماش موسلين دي لين الرمادي والأسود الذي كان بحاجة إلى زيادة عرضه، عندما دخل إلى المتجر رجل مُسِنّ طويل نحيل، يبدو دونكشوطياً، للحصول على بعض القفازات الصوفية. لم يكن قد سبق لي من قبل أن رأيت الشخص (الذي كان جذاباً إلى حد ما). كان الغريب يرتدي معطفاً أزرق بأزرار نحاسية، وسروالاً قصيراً بلون بني مُخضَرّ ووِقاء فوق حذائه، ودق بأصابعه على المنضدة إلى أن اهتُمَ به. وعندما أجاب عن سؤال صبي المتجر، «ما الذي سيكون من دواعي سروري أن أعرضه عليك اليوم يا سيدي؟» رأيتُ الآنسة ماتيلدا تجفل، ثمّ تجلس فجأة، فخمنت فوراً من كان ذلك الرجل. وكانت قد طرحت استفساراً كان يتعين تحويله إلى البائع الآخر.

«تريد الآنسة جينكينز قماش السارسينيت الأسود، بسعر بنسين للياردة». التقط السيد هولبروك الاسم، فقطع المتجر في خطوتين.

«ماتي – الآنسة ماتيلدا – الآنسة جينكينز! بارك الله في روحي! ما كنتُ لأعرفك. كيف حالك؟ كيف حالك؟» واستمرّ بمصافحتها بطريقة أكدت دفء صداقته. ولكنه كرر مرات كثيرة، كما لو كان يُحدث نفسه، «ما كنتُ لأعرفك» إلى درجة أن أي عاطفة رومانسية كان من الممكن أن أميل إلى تكوينها كانت قد اختفت تماماً بسبب أسلوبه.

ومع ذلك، استمر بالتحدث معنا طوال الوقت الذي مكثنا فيه في المتجر. ثمّ لوَّح للبائع بجانب واحد من القفازات غير المُشتراة

قائلاً، «مرة أُخرى يا سيدي! مرة أُخرى!» ومشى معنا إلى المنزل. إنني سعيدة أن أقول إن العميلة التي كانت ترافقني، الآنسة ماتيلدا، قد غادرت المتجر أيضاً في حالة مماثلة من الذهول، دون أن تشتري الحرير الأخضر ولا الحرير الأحمر. ومن الواضح أن السيد هولبروك كان يشعر بفرحة صادقة غامرة للقاء حبه القديم مرة أُخرى، وعبّر عن ذلك بصوت مرتفع، وتطرق إلى التغييرات التي حدثت. بل إنه تحدث بشأن الآنسة جينكينز بوصفها «أختك المسكينة! حسناً، حسناً! لكل منا أخطاؤه». ثم ودّعنا مع أمل كبير أن يرى الآنسة ماتي مرة أُخرى قريباً. ذهبتْ مباشرة إلى غرفتها، ولم تخرج قطُّ إلى أن حان موعد احتساء الشاي المبكر، حيث اعتقدتُ أنها بدت كما لو أنها كانت تبكي.



4

زيارة إلى عازب مُسِنّ

بعد بضعة أيام، وصلت رسالة من السيد هولبروك يطلب منا فيها، من كلتينا دون تحيز، بأسلوب رسمي مُحافظ، أن نقضي يوماً في منزله، يوماً طويلاً من أيام حزيران/ يونيو، فقد كنّا الآن في هذا الشهر، وذكر أنه دعا أيضاً ابنة عمه، الآنسة بول بحيث يمكننا التشارك في عربة خفيفة، يمكن تركيبها في منزله.

توقعتُ أن تقبل الآنسة ماتي هذه الدعوة بتوق. لكن، لا! فقد واجهنا أنا والانسة بول صعوبة كبيرة في إقناعها بالذهاب. لقد اعتقدتْ أنه أمر غير لائق. بل تضايقت عندما تجاهلنا تماماً فكرة حدوث أي خطأ في ذهابها مع امرأتين أخريين إلى حبيبها القديم. ثمّ ظهرت صعوبة معقدة أكثر تتمثل في أنها لم تكن تعتقد أن ذهابها كان سيُعجب ديبورا. وقد تطلب منا هذا الأمر نصف يوم كامل من الحديث الشاقّ للتغلب عليه. ولكنني اغتنمت أول جملة تنم عن لينها، فكتبت قبولاً باسمها وأرسلته، محدِّدة فيه اليوم والساعة، بحيث يكون قد تم اتخاذ قرار بشأن كل شيء، وحُسِم الأمر.

في صباح اليوم التالي، سألتني ما إذا كنتُ سأذهب معها إلى المتجر. وهناك، بعد الكثير من التردد، اخترنا ثلاثة أثواب لكي

تُرسل إلى المنزل وتُجرَّب، بحيث يتم اختيار الأنسب منها لكي نأخذه معنا يوم الخميس.

كانت في حالة من الاضطراب الصامت طوال الطريق إلى «ودلي». ومن الواضح أنه لم يسبق لها أن ذهبت إلى هناك قطُّ. وعلى الرغم من أنها لم تكن تتوقع أنني أعرف أي شيء من قصتها القديمة، فقد كان بإمكاني أن أستشفّ أنها كانت في حالة قشعريرة من فكرة رؤية المكان الذي كان من الممكن أن يكون منزلها، والذي من المحتمل أن تكون الكثير من تخيلاتها البنّاتية البريئة قد تجمعت حوله. لقد كانت رحلة طويلة إلى هناك خلال الممرات المرصوفة الرجّاجة. جلست الآنسة ماتيلدا في وضع مستقيم، ونظرت بحزن خارج النوافذ مع اقترابنا من نهاية رحلتنا. لقد كان مظهر المنطقة هادئاً وريفيّاً، وانتصبت «ودلي» بين الحقول. كانت هناك حديقة قديمة الطراز حيث لامست شجيرات الورود والكشمش بعضها، وحيث شكل الهليون الريشي خلفية جميلة للأزهار الوردية وأزهار المنثور، ولم يكن هناك طريق خاص يوصل إلى الباب. خرجنا من بوابة صغيرة، ومشينا في ممرّ مستقيم تحدّه أحواض زرع.

كانت الآنسة بول تخشى الإصابة بوجع في الأذن، وكانت ترتدي قبعة فحسب، فقالت، «أعتقد بأنه ربما يكون من الأفضل أن يُنشئ ابن عمي مدخلاً خاصاً».

«أعتقد أنه جميل جداً». قالت الآنسة ماتي ذلك بحزن رقيق في صوتها وفي همس، تقريباً، حيث إن السيد هولبروك ظهر حينئذ عند الباب وهو يفرك يديه في حفاوة ترحيب شديدة. لقد بدا أشبه،

أكثر من ذي قبل، بفكرتي في دون كيشوت. إلا أن ذلك الشبه كان ظاهرياً فحسب. وقفت مدبرة منزله المحترمة بتواضع عند الباب لترحب بنا. وعندما أرشدت الامرأتين الأكبر سناً إلى غرفة نوم في الطابق العلوي، التمستُ أن أُلقي نظرة على الحديقة. ومن الواضح أن طلبي سرَّ السيد المُسِنّ، الذي رافقني في كافة أرجاء المكان وأراني بَقراته الست والعشرين، التي سُميت على حروف الأبجدية المختلفة. وفي أثناء تنقلنا، كان يفاجئني بين الفينة والأخرى بتكرار اقتباساتٍ موفقة وجميلة من شعراء، يتراوحون بيسر من شكسبير وجورج هيربيت إلى أولئك المعاصرين لنا. لقد كان يفعل ذلك بصورة طبيعية كما لو أنه كان يفكر بصوت مرتفع، وكانت كلمات تلك الاقتباسات الصادقة والجميلة أفضل تعبير كان بإمكانه العثور عليه لما كان يفكر أو يشعر به. وفي الواقع، أطلق على الشاعر بايرون «سيدي بايرون»، ولفظ اسم غوته، الشاعر الألماني، بشكل دقيق وفقاً للصوت الإنجليزي للأحرف: «كما يقول غوته، 'أنتِ أيتها القصور الخضراء'»، إلخ. بشكل عام، لم أقابل مطلقاً، من قبل ومنذ ذلك الحين، رجلاً لبث فترة طويلة جداً إلى تلك الدرجة من حياته في ريف منعزل وغير مثير للعواطف، يتمتع بابتهاج متزايد باستمرار بالتغيُّر اليومي والسنوي للوقت والجمال.

عندما دخلنا أنا وهو، وجدنا أن الغداء كان جاهزاً تقريباً في المطبخ - إذ أفترض أن هذا ما كان ينبغي أن يُطلَق على هذه الغرفة، حيث كانت هناك خزائن مطبخ ودواليب من خشب البلوط حولها، في كل مكان بجانب الموقد، وكان في وسط الأرضية المبلّطة سجادة تركية صغيرة فحسب. كان من الممكن تحويل هذه الغرفة بسهولة

إلى صالة طعام جميلة من خشب البلوط الأدكن بإزالة الفرن وبعض التجهيزات المطبخية الأخرى، التي كان من الواضح أنها لم تُستخدم قطُّ، حيث إن مكان الطبخ الفعلي كان على بعد مسافة منها. وكانت الغرفة التي يُتوقع منا أن نجلس فيها حجرةً بشعة مؤثثة بإفراط. ولكن الحجرة التي جلسنا فيها كانت هي ما أطلق عليها السيد هولبروك اسم غرفة المحاسبة، حيث كان يُسدد رواتب عماله الأسبوعية عند منضدة ضخمة قرب الباب. وكانت بقية غرفة الجلوس الجميلة، المُطلة على البستان والمُغطاة كلها بظلال أشجار راقصة، مليئة بالكتب التي كانت ملقاة على الأرض، وتغطي الجدران، ومتناثرة على المنضدة. وكان من الواضح أنه كان نصف خجول ونصف فخور من مبالغته في هذا الصدد. كانت الكتب من كل نوع، ولكن كتب الشعر والحكايات المتهورة الغريبة كانت هي السائدة. ومن الواضح أنه اختار كتبه وفقاً لأذواقه الخاصة، وليس لأن هذا أو ذاك كان كاتباً كلاسيكياً أو معروفاً أنه مُفضَّل.

قال، «آه! يُفترض ألا يكون لدينا نحن المزارعين وقتٌ كثيرٌ للقراءة. ولكن بطريقة ما لا يستطيع المرء منع نفسه من القراءة».

قالت الآنسة ماتي بصوت خفيض، «يا لها من غرفة جميلة!»

وقلتُ بصوت مرتفع، في الوقت ذاته تقريباً، «يا له من مكان لطيف!»

وردّ، «ليس هذا فحسب! ولكن هل تستطيعين الجلوس على هذه الكراسي الضخمة السوداء ثلاثية الزوايا؟ إنها تُعجبني أكثر من أفضل صالة استقبال. إلا أنني اعتقدت أن السيدات قد يعتبرن هذا المكان أكثر أناقة».

لقد كان المكانَ الأكثر أناقة، ولكن مثل كل الأشياء الأنيقة، لم يكن جميلاً على الإطلاق، أو بهيجاً، أو مثل المنازل. لذا، فعندما كنا نتناول وجبة الغداء، نفضت الخادمة كراسي غرفة المحاسبة ونظفتها، وجلسنا هناك طوال بقية النهار.

تناولنا قبل اللحم حلوى البودينغ. واعتقدتُ أن السيد هولبروك كان سيُقدم بعض الاعتذار عن عاداته القديمة الطراز، ذلك أنه بدأ الحديث بقوله:

«أنا لا أعرف ما إذا كانت العادات المعاصرة تعجبكم».

قالت الآنسة ماتي، «أوه، على الإطلاق لا!»

قال، «ولا تُعجبني أنا أيضاً. سوف تعمل مدبرة منزلي على إدخال هذه في أسلوبها الجديد، وإلا فسوف أخبرها أننا، عندما كنتُ شاباً، كنا نلتزم بصرامة بقاعدة والدي، 'الحساء أولاً، ثم الكريات الطافية، ثم اللحم' وكنا نبدأ الغداء دائماً بالحساء. ثم ببودينغ الشحم، المغلي في الحساء مع اللحم، ثم اللحم ذاته. وإذا لم نرتشف الحساء، لا نتناول الكريات، التي كنا نُفضّلها أكثر كثيراً. وكنا نأكل اللحم آخر شيء، فكان أولئك الذين ينهون الحساء والكريات هم الذين يحصلون عليه فحسب. ولكن الآن يبدأ الناس بالأشياء اللذيذة أولاً، ويقلبون غداءهم رأساً على عقب».

عندما وصل البط والبازلاء الخضراء، نظر بعضُنا إلى بعض في حيرة، فقد كان لدينا الشوكات ذات الشعبتين ومقابض سوداء فحسب. صحيح أن الفولاذ كان لامعاً مثل الفضة، ولكن ماذا كان علينا أن نفعل؟ التقطت الآنسة ماتي حبات البازلاء الخاصة بها،

الواحدة تلو الأخرى، عند رأس الشعبتين، تماماً مثلما أكلت أمينة حباتها من الأرز بعد وليمتها السابقة مع الغول. تنهدت الآنسة بول فوق حباتها الرقيقة من البازلاء حيث تركتها على جانب طبقها غير مُذاَقَة، ذلك لأنها كانت ستسقط من بين شعبتي الشوكة. نظرتُ إلى مُضيفي: كانت حبات البازلاء تدخل بالجملة في فمه الفسيح حيث كان يجرفها بسكينه الكبيرة ذات الطرف المستدير. رأيتُ ذلك، فقلدتُه، فنجوتُ! ولم تتمكن صديقتاي من استجماع ما يكفي من الشجاعة للقيام بأمر غير مهذب، على الرغم من فعلتي التي شكلت سابقة. ولو لم يكن السيد هولبروك جائعاً جداً، ربما كان سيلحظ أن البازلاء اللذيذة قد اختفت تقريباً دون أن تُمسّ.

بعد الغداء، أُحضِرَ غليون ومِتفلة، وطلب منا الذهاب إلى غرفة أُخرى حيث سينضم إلينا بعد قليل، إذا كنا نمقت رائحة دخان التبغ. وقدَّم، في أثناء ذلك، غليونه إلى الآنسة ماتي، وطلب منها أن تملأ فوهة الغليون. وكان هذا الطلب مجاملة لامرأة عرفها في أيام شبابه. إلا أنه كان من غير الملائم، إلى حدّ ما، أن يقترحه على أنه تكريم للآنسة ماتي التي دربتها أختها على ازدراء أي نوع من التدخين ازدراءً تاماً. ولكن إذا كان ذلك صدمة لتهذيبها، فإنه كان أيضاً إرضاءً لمشاعرها بأن تكون مُختارة هكذا. لذا رصَّت بلباقة التبغ المتماسك في الغليون، ثمّ انسحبنا.

في أثناء جلوسنا في غرفة المحاسبة، قالت الآنسة ماتي برقة، «إنها غرفة طعام لطيفة لعازب». وأضافت، «آمل ألا يكون ذلك غير ملائم فحسب، فكثير من الأشياء اللطيفة تكون غير ملائمة!»

قالت الآنسة بول وهي تنظر حولها، «كم هي كثيرة الكتب التي لديه، وكم هي مغبَّرة!»

قالت الآنسة ماتي، «أعتقد أنها لا بدّ أن تكون مثل إحدى غُرف الدكتور جونسون الكبيرة. لا بد أن يكون ابن عمك رجلاً رائعاً!»

قالت الآنسة بول، «أجل! إنه يقرأ كثيراً. لكنني أخشى أن يكون قد كوَّن عادات جَلِفة جداً نتيجة عيشه وحيداً».

ردّت الآنسة ماتي، «أوه! جَلِفة كلمة قاسية أكثر مما يجب. من الممكن أن أسميه غريب الأطوار، فالأشخاص الأذكياء جداً يكونون دائماً كذلك!»

عندما عاد السيد هولبروك، اقترح الذهاب للتنزّه في الحقول. ولكن الامرأتين المُسنتين كانتا خائفتين من الرطوبة والغبار، ولم يكن لديهما سوى غطاءَيْ رأس غير ملائمين لوضعهما فوق قبعتيهما. لذا رفضتا الذهاب، فكنتُ مرة أخرى مرافقته في جولة، قال إنه كان مضطراً إلى القيام بها ليعتني برجاله. مشى خطوات واسعة، إمّا ناسياً تماماً إيّاي، وإمّا مستكيناً في صمت بغليونه. ومع ذلك لم يكن صامتاً بالضبط. لقد مشى أمامي مشية انحناء ويداه مشبوكتان خلفه. وكما لو أن شجرة ما أو سحابة ما أو لمحات لمراعي بعيدة في المرتفعات قد باغتته، فقد أخذ يقتبس شعراً لنفسه، ويلقيه بنبرة عالية وصوت جهوري رنان مع ذلك التفخيم الذي لا يمنحه سوى الشعور والتقدير الحقيقيّين. وصلنا إلى شجرة أرز كبيرة منتصبة عند أحد أطراف المنزل.

«تنشر شجرة الأرز درجات ألوان الأخضر الأدكن الخاصة بها».

قلتُ، «عبارة ممتازة - 'درجات!' رجل رائع!» لم أعرف ما إذا كان يتحدث إليّ أم لا. لكنني قلتُ موافقةً «رائع»، على الرغم من أنني لم أكن أعرف أي شيء منها، ولكن لمجرد أنني سئمتُ من كوني منسية، ومن كوني صامتة نتيجة لذلك.

استدار دورة حادة. وقال، «أجل! يُمكنك قول 'رائع'. آه، عندما اطلعت على نقد أشعاره في مجلة بلاكود، انطلقتُ في غضون ساعة، ومشيتُ سبعة أميال إلى ميسلتون (ذلك أنه لم تكن هناك حاجة إلى الأحصنة) وطلبتها. والآن، ما هو لون براعم شجر الدردار في شهر آذار/ مارس؟»

فكرت، هل الرجل مجنون؟ إنه يشبه دون كيشوت إلى حد كبير.

كرر بعنف، «أقول، ما هو لونها؟»

قلتُ بوداعة الجهل، «أنا متأكدة من أنني لا أعرف يا سيدي».

«أعرف أنك لا تعرفين. وأنا أيضاً لم أكن أعرف، ويا لي من مغفل كبير! - إلى أن جاء هذا الشاب وأخبرني. لونها أسود مثل براعم شجر الدردار في آذار/ مارس. وأنا الذي عشت طوال حياتي في الريف. مزيد من العار عليّ لأنني لا أعرف. أسود: لونها أسود حالك يا سيدتي». وانطلق مرة أخرى، يتأرجح مع موسيقى لقصيدة خطرت في باله.

عندما عُدنا، لم يكن هناك ما يُرضيه سوى قراءة القصائد التي كان يتحدث بها لنا. وشجعته الآنسة بول في اقتراحه، فظننت أنها

فعلت ذلك لأنها رغبت في أن أسمع قراءته الجميلة التي كانت قد تفاخرت بها. ولكنها قالت فيما بعد إنها فعلت ذلك لأنها كانت قد وصلت إلى جزء صعب من الكروشية الخاص بها، وأرادت أن تعُدّ غُرزها دون أن تكون مضطرة إلى التحدث. وكان من الممكن أن يكون أي اقتراح يقدّمه جيداً عند الآنسة ماتي، على الرغم من أنها غطّت في سبات عميق في غضون خمس دقائق، بعد أن بدأ قصيدة طويلة بعنوان «لوكسلي هول»، وغفت غفوة مريحة لم تُلحَظ إلى أن انتهى. وعندما أيقظها توقُّف صوته، شعرت أن شيئاً ما كان مُتوقعاً وأن الآنسة بول كانت تعدُّ، فقالت:

«يا له من كتاب لطيف!»

قال، «لطيف يا سيدتي! إنه جميل! لطيف حقاً!»

قالت في اضطراب من استنكاره لكلمتها، «أوه، نعم! لقد قصدتُ جميلاً. إنها تُشبه كثيراً تلك القصيدة الجميلة للدكتور جونسون التي كانت أختي تقرؤها -لقد نسيت عنوانها. ماذا كان اسمها يا عزيزتي؟» واستدارت نحوي.

«أي قصيدة تقصدين يا سيدتي؟ بماذا كانت تتحدث؟»

«لا أذكر بماذا كانت تتحدث، وقد نسيت تماماً عنوانها. ولكن كتبها الدكتور جونسون، وهي جميلة جداً، وتُشبه كثيراً ما كان يقرؤه السيد هولبروك قبل قليل».

قال في تأمل، «لا أتذكرها. ولكنني لا أعرف قصائد السيد جونسون جيداً. ينبغي لي أن أقرأها».

في أثناء دخولنا إلى العربة الصغيرة لكي نعود، سمعتُ السيد هولبروك يقول إنه سوف يقوم بزيارة قصيرة للسيدات قريباً جداً ليستفسر عن كيفية عودتهن إلى المنزل. ومن الواضح أن هذا الأمر جعل الآنسة ماتي تشعر بسعادة واضطراب في الوقت الذي قال فيه ذلك. ولكن بعد أن توارى المنزل القديم عن أنظارنا بين الأشجار، اندمجت مشاعرها تجاه صاحبه تدريجياً، في تساؤل كئيب عما إذا كانت مارثا قد حنثت بوعدها واغتنمت فرصة غياب سيدتها لكي تحصل على «مُعجَب بها». بدت مارثا في حالة جيدة وثابتة ومتزنة جداً عندما جاءت لتساعدنا في الخروج. لقد كانت دائماً حذرة من الآنسة ماتي، لكنها في هذه الليلة استخدمت هذه الكلمات غير الموفقة:

«إيه! يا سيدتي العزيزة، لقد خرجتِ هذا المساء في شال رقيق إلى هذه الدرجة! إنه ليس أفضل من قماش الموسلين. ينبغي أن تكوني حريصة في عمرك، يا سيدتي».

«في عمري!» هكذا قالت الآنسة ماتي بغضب إلى حد ما، بالنسبة إليها، إذ إنها كانت لطيفة في العادة.

«في عمري! لماذا، كم تعتقدين أنني أبلغ من العمر حتى تتحدثي بعمري؟»

«حسناً يا سيدتي، يمكنني القول إنك لست في عمر أقل من الستين كثيراً: ولكن مظهر الناس يكون دائماً ضدهم. وأنا بالتأكيد لم أقصد أي إساءة».

«يا مارثا، أنا لم أبلغ الثانية والخمسين بعد!» قالت الآنسة ماتي ذلك بتشديد قوي، ذلك أنه من المحتمل أن ذكرى شبابها قد

ظهرت بوضوح شديد أمامها في هذا اليوم، وقد تضايقت من اكتشاف أن ذلك الزمن الذهبي بعيد جداً في الماضي.

ولكنها لم تتحدث قطُّ بأي معرفة سابقة وحميمة أكثر مع السيد هولبروك. ربما كانت قوبلت بقدر لا يُذكر من التعاطف في حبها المبكر، ما جعلها تغلق عليه في قلبها. وقد تمكنتُ من معرفة مدى وفاء قلبها المسكين في حزنه وفي صمته من خلال شيء من المراقبة التي لم أتمكن من تجنبها، وذلك منذ أن أفضت إليّ الآنسة بول بسرّها.

لقد كشفت لي عن سبب وجيه لارتدائها أفضل قبعة لديها كل يوم، والجلوس قرب النافذة، على الرغم من إصابتها بمرض الروماتيزم، لكي تَرى الشارع، دون أن تُرى.

لقد حضر. وبعد أن أجبنا عن استفساراته بشأن عودتنا الآمنة، جلس ورأسه منحنٍ إلى الأسفل ويصفّر، ووضع كفيه المفتوحتين على ركبتيه، اللتين كانتا متباعدتين، ثمّ قفز واقفاً فجأة.

«حسناً يا سيدتي! هل لديك أي طلبات من باريس؟ فأنا ذاهب إلى هناك في غضون أسابيع قليلة».

هتفنا كِلتانا، «إلى باريس!»

«نعم يا سيدتي! لم يسبق لي قطُّ أن ذهبت إلى هناك، وطالما تمنيت الذهاب. وأعتقد أنه إن لم أذهب قريباً جداً، فربما لن أذهب على الإطلاق. لذا، سوف أذهب حالما يُدخَل القشّ، وقبل أن يحين وقت الحصاد».

لقد اندهشنا كثيراً إلى درجة أننا لم نُدلِ بأي تعليق.

وفي اللحظة التي كان سيخرج فيها من الغرفة، قفل راجعاً وهو يهتف هتافه المُفضل:

«بارك الرب في روحي، يا سيدتي! ولكنني كدتُ أنسى نصف مهمتي. ها هي القصائد التي أعجبتك كثيراً في تلك الأمسية عندما كنا في منزلي». وسحب بقوة رزمة كانت في جيب معطفه. ثم قال، «وداعاً يا آنسة. وداعاً يا ماتي! اعتني بنفسك». ثمّ اختفى.

ولكنه أعطاها كتاباً، وناداها باسم ماتي، تماماً كما كان يُناديها قبل ثلاثين سنة.

قالت الآنسة ماتيلدا بقلق، «أتمنى ألّا يذهب إلى باريس. لا أعتقد أن الضفادع ستكون مناسبة إليه. إنه معتاد على أن يكون حريصاً جداً بشأن ما يأكله. وهو أمر غريب بالنسبة إلى شاب يبدو قوي البنية إلى تلك الدرجة».

بعد ذلك بفترة وجيزة، استأذنتُ بالانصراف، وأعطيتُ مارثا الكثير من التعليمات للاعتناء بسيدتها. وطلبت منها أن تُعلمني إذا اعتقدتْ أن الآنسة ماتيلدا ليست على ما يرام، وكنتُ سوف أتطوع في هذه الحالة لزيارة صديقتي القديمة، دون معرفتها بالمعلومة التي مرّرتها مارثا بشأنها.

ووفقاً لذلك، كنت استلم من مارثا أسطراً قليلة بين الفينة والأخرى. وحوالى شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، استلمتُ رسالة تقول فيها إن سيدتها كانت واهنة وأنها للأسف لم تعد تأكل». وقد ضايقني هذا الوصف لحالها إلى درجة أنني حزمت أمتعتي وذهبت، على الرغم من أن مارثا لم تستدعِني بشكل جازم.

استُقبِلتُ بحفاوة، على الرغم من بعض الإرباك الذي نجم عن زيارتي المفاجئة، إذ إنني لم أستطع أن أُعطي إشعاراً إلا قبل قدومي بيوم واحد فحسب. بدت الآنسة ماتيلدا مريضة بشكل مثير للشفقة. وكنتُ قد تهيأت لمواساتها وتدليلها.

نزلتُ لأتحدث مع مارثا على انفراد.

وقفتُ قرب نار المطبخ وسألتُ: «منذ متى سيدتك على هذا الحال السيئ؟»

«حسناً! أعتقد أنها كذلكِ منذ أكثر من أسبوعين. أعرف أنها دخلت في هذه الحالة من الاكتئاب في يوم ثلاثاء، بعد أن زارتها الآنسة بول. ظننتُ أنها كانت متعبة، وأن ذلك كان سيزول باستراحة لليلةٍ. ولكن لا! استمرت على هذا الحال منذ ذلك الحين، إلى أن اعتقدتُ أن من واجبي أن أكتب إليك يا سيدتي».

قلتُ، «أحسنت صنعاً يا مارثا. إن بقاء خادمة وفية إلى تلك الدرجة حولها هو أمر مُطَمئِن. وآمل أنك تجدين وضعك هنا مريحاً؟»

«حسناً يا سيدتي، إن السيدة لطيفة جداً، وهناك الكثير من الطعام والشراب، وليس هناك عمل أكثر سهولة مما أستطيع القيام به.. ولكن..» ترددت مارثا.

«ولكن ماذا يا مارثا؟»

«آه، يبدو أنه قاسٍ جداً من السيدة ألّا تسمح لي بأن يكون لي أيّ «معجبين». هناك عدد كبير من الشبان في البلدة. وكثير منهم عرضوا علي قضاء وقت معي. ومن الممكن ألا أتواجد مُطلقاً في

مكان واعد كهذا مرة أخرى، إن الأمر مثل إهدار فرصة. من الممكن لكثير من الفتيات، على حدّ علمي، أن يكون لهنّ معجبون دون علم السيدة. ولكنني أعطيتُ كلمتي، وسوف ألتزم بها. ولولا ذلك فإن هذا هو المنزل المناسب تماماً لكي لا تنتبه السيدة إن هم حضروا: إنه مطبخ ملائم جداً، وهناك زوايا مُظلمة جداً فيه، فمن الممكن أن أخفي فيه أي شخص. أذكر ليلة يوم الأحد الماضي، ولن أنكر أنني كنتُ أبكي لأنني اضطررت إلى إغلاق الباب في وجه جيم هيرن، وهو شاب يُعتمد عليه، ملائم لأي فتاة، لأنني وعدتُ السيدة فحسب». وكانت مارثا توشك أن تبكي مرة أخرى. ولم يكن في وسعي مواساتها بقدر يُذكر، فأنا أعرف، من خبرة سابقة، الرعب الذي نظرت فيه كلتا الآنستين جينكينز تجاه «المعجبين». وكان من غير المرجح التقليل من شأن هذا الرعب في حالة التوتر الحالية التي كانت تنتاب الآنسة ماتي.

ذهبت لرؤية الآنسة بول في اليوم التالي، وفاجأتُها تماماً لأنها لم تكن قد زارت الآنسة ماتيلدا منذ يومين.

«والآن ينبغي أن أعود برفقتك يا عزيزتي، فقد وعدتُّ أن أخبرها كيف سارت أمور توماس هولبروك. ويؤسفني أن أقول إن مدبرة منزله قد أرسلت إلي خبراً اليوم مفاده أنه لن يعيش طويلاً. توماس المسكين! لقد كانت تلك الرحلة إلى باريس مرهقة أكثر مما يستطيع أن يحتمل. وتقول مدبرة منزله إنه نادراً جداً ما يقوم بجولة في حقوله منذ ذلك الحين، بل يجلس في غرفة المحاسبة ويداه على ركبتيه فحسب، لا يقرأ ولا يفعل أي شيء، لكنه يقول فحسب كم

هي رائعة مدينة باريس! إن باريس تتحمل مسؤولية الكثير من الأمور السيئة التي جرت لابن عمي توماس، لقد كان من خيرة الرجال».

سألتُ، «هل تعرف الآنسة ماتيلدا بمرضه؟» - حقيقة جديدة تبادرت إلى ذهني تسلط الضوء على حالة التوعك التي حلت بها.

قالت، «أجل يا عزيزتي! بالتأكيد! ألم تُخبِرك؟ لقد أبلغتها منذ أسبوعين، أو أكثر، عندما سمعت بالخبر أولَ مرة. غريب جداً أنها لم تُخبرك!»

فكرت في نفسي أن ذلك لم يكن غريباً على الإطلاق، ولكنني لم أقل شيئاً. شعرت بالذنب إلى حدّ ما، لأنني تلصصت بفضول كبير على ذلك القلب الرقيق، وما كنتُ لأتحدث بأسراره التي كانت الآنسة ماتي تعتقد أنها مخفية عن العالم كله. أدخلتُ الآنسة بول إلى غرفة الاستقبال الصغيرة في منزل الآنسة ماتيلدا، ثمّ تركتهما وحدهما. ولكنني لم أُفاجأ عندما جاءت مارثا إلى باب غرفة نومي لكي تطلب مني النزول لتناول الغداء وحدي، ذلك أن سيدتها كانت تعاني من نوبة صداع سيئة. جاءت إلى غرفة الاستقبال في وقت تناول الشاي، إلا أنه كان من الواضح أن ذلك تطلب جهداً كبيراً منها. وكما لو أنها تريد أن تعوض عن بعض مشاعر تأنيب الضمير تجاه أختها الراحلة، التي كانت تؤرقها طوال فترة ما بعد الظهر، والتي كانت تشعرها بالندم الآن، فإنها استمرت بالتحدث إليّ بشأن مدى الطيبة والذكاء اللذين كانت تتمتع بهما ديبورا في شبابها. وكيف كانت تُحدد ما هي الأثواب التي كان عليهما ارتداؤها في جميع الحفلات (أفكار شاحبة باهتة في حفلات كئيبة، جرت قبل

زمن بعيد جداً، عندما كانت الآنسة ماتي والآنسة بول شابتين!) وكيف أسست ديبورا ووالدتها الجمعية الخيرية من أجل الفقراء، وعلّمتا البنات الطهي والخياطة العادية. وكيف أن ديبورا رقصت ذات مرة مع أحد اللوردات، وكيف كانت تزور منزل السير بيتر آرلي، وحاولت إعادة تشكيل منزل قسيس الأبرشية الهادئ، بناء على مخططات مبنى آرلي هول، حيث كان يعمل ثلاثون خادماً. وكيف اعتنت بالآنسة ماتي خلال مرض دام فترة طويلة جداً، وهو مرض لم أسمع به من قبل قطُّ، ولكنني حددت تاريخه الآن بأنه حدث بعد رفضها للسيد هولبروك عندما طلب الزواج بها. وهكذا تحدثنا برقة وهدوء بشأن أيام خوالٍ خلال أمسية تشرين الثاني/ نوفمبر الطويلة.

في اليوم التالي، جاءتنا الآنسة بول بخبر موت السيد هولبروك. سمعت الآنسةُ ماتي الخبر بصمت. في الواقع إن ذلك هو ما كنا نتوقعه من الوصف الذي سمعناه في اليوم السابق. واستمرت الآنسة بول بمناشدتنا التعبير عن بعض الحسرة، وذلك من خلال طرح السؤال عما إذا لم يكن أمراً محزناً أنه رحل، وقالت:

«عندما أفكر في ذلك اليوم اللطيف من شهر حزيران/ يونيو الماضي، عندما كان يبدو في حالة جيدة جداً! كان من الممكن أن يعيش عشر سنوات أخرى لو لم يذهب إلى باريس الملعونة، حيث يقومون بثورات دائماً».

توقفتْ برهة لإبداء بعض المشاعر من جانبنا. رأيتُ أن الآنسة ماتي لم تكن قادرة على الحديث، فقد كانت ترتجف بتوتر شديد، لذا قلتُ ما كنتُ أشعر به فعلياً. وبعد زيارة قصيرة، لم يكن لديّ شك

طوالها أن الآنسة بول كانت تعتقد أن الآنسة ماتي قد تلقت الخبر بهدوء شديد، فقد طلبت زائرتنا الإذن بالانصراف.

بذلت الآنسة ماتي جهداً كبيراً لكي تُخفي مشاعرها، وهو إخفاء كانت تمارسه معي أيضاً، فلم تذكر السيد هولبروك مرة أخرى قطُّ، على الرغم من أن الكتاب الذي أعطاها إياه كان موضوعاً مع كتابها المقدس على المنضدة الصغيرة بجوار سريرها. واعتقدتْ أنني لم أسمعها عندما طلبت من صانع القبعات البسيط في كرانفورد أن يصنع قبعاتها شبيهة بقبعات فخامة السيدة جاميسون، أو أنني لحظتُ رده:

«ولكنها ترتدي قبعات أرامل يا سيدتي؟»

قالت، «أوه! لقد قصدت شيئاً ما فحسب من ذلك الطراز، من غير ريب، ليس قبعات أرامل، بل مثل قبعات السيدة جاميسون إلى حد ما».

كان جهد الإخفاء هذا بداية حركة الارتعاش في الرأس واليدين التي أصبحتُ ألحظها في الآنسة ماتي منذ ذلك الحين.

في مساء اليوم الذي سمعنا فيه بوفاة السيد هولبروك، كانت الآنسة ماتيلدا صامتة جداً ومستغرقة في التفكير. وبعد أداء الصلوات، نادت مارثا ثم وقفت حائرة ماذا تقول.

أخيراً قالت، «مارثا! أنت شابة» - ثم توقفت فترة طويلة إلى درجة أن مارثا أرادت أن تذكرها بجملتها غير المكتملة، فانحنت وقالت:

«أجل، تفضلي يا سيدتي. اثنان وعشرون عاماً في الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، تفضلي يا سيدتي».

«وربما يا مارثا أنكِ ترغبين في مقابلة شاب يُعجبك وأنت تُعجبينه. سبق أن قلتُ إنه يجب ألا يكون لديك معجبون. ولكن إذا قابلتِ شاباً كهذا، وتُخبريني بالأمر، وأجدُ أنه جدير بالاحترام، فلن أمانع بمجيئه لرؤيتك مرة في الأسبوع. معاذ الله! أن أتسبب في لوعة قلب أي شابة». قالت ذلك بصوت منخفض كما لو كانت تتحدث بأمر يمكن أن يحدث في المستقبل البعيد، وكانت مذهولة إلى حد ما عندما قدمت مارثا ردها التواق الجاهز:

«أرجوك يا سيدتي، هناك جيم هيرن، وهو نجار يحصل على أجر يبلغ ثلاثة شلنات وستة بنسات في اليوم. وطوله ست أقدام وبوصة واحدة على قدميه المرتديتين جوارب بدون حذاء، من فضلك يا سيدتي، وإذا سألتِ عنه غداً صباحاً، فسيخبرك الجميع بأنه شخص يُمكن الاعتماد عليه، وسيسعده كثيراً أن يأتي غداً مساء، أنا متأكدة من ذلك».

وعلى الرغم من أن الآنسة ماتي كانت مذهولة، إلا أنها استسلمت للقدَر والحُبّ.



5

رسائل قديمة

لَحَظْتُ في كثير من الأحيان أن كل شخص تقريباً لديه اقتصادياته الصغيرة الخاصة - عادات متحفظة في توفير أجزاء من البنسات في منحى ما متميز - وأي اختلال فيه يُزعجه أكثر من تبذير شلنات أو جنيهات في إسراف ما حقيقي. هناك رجلٌ محترم مُسِنٌّ من معارفي، سبق له أن تلقى خبر إخفاق شركة مصرفية مساهمة، كان قد استثمر بعض أمواله فيها، بهدوء وصبر، إلا انه أجزع أسرته طوال يوم صيفي طويل لقيام أحدهم بتمزيق (بدلاً من قصّ) الأوراق المكتوبة لدفتر حسابه البنكي الذي أصبح الآن بلا فائدة. من غير شك كانت الصفحات المقابلة في الطرف الآخر من الدفتر قد انفلتت أيضاً، وجعله هذا الهدر غير الضروري للورق (اقتصاده الخاص) يغضب، أكثر مما أغضبه كل ما خسره من أمواله. وكانت المغلفات تسبب قلقاً فظيعاً في نفسه عند وصولها أول مرة. والطريقة الوحيدة التي استطاع فيها توطين نفسه على مثل هذا الهدر، لمادته الأثيرة، كانت في قيامه، بصبر، بقلب كل ما يصل إليه من مغلّفات ليصبح الجزء الداخلي في الخارج وجَعلِها تُستخدَم مرة أخرى. وحتى الآن، على الرغم من تخفيف حدة حالته مع العمر،

فإنني أراه ينظرُ إلى بناته نظرات كئيبة عندما يقمن بإرسال صفحة ورق رسائل كاملة تحتوي على قبول دعوة مكتوبة في ثلاثة أسطر على أحد جانبي الورقة فحسب. وأنا لا أترفع عن التسليم بهذا الضعف البشري عندي أنا نفسي. والخيوط هي نقطة ضعفي إذ تمتلئ جيوبي بلُفَيْفات صغيرة منها، التُقطت وجُدِلت معاً، جاهزة لاستخدامات لا تأتي مُطلقاً. أنزعج بشكل جدي إذا قصَّ شخص ما خيط طرد بدلاً من تفكيك ثنياته بصبر، ثنية تلو الأخرى. كيف يستطيع الناس استخدام حلقات المطاط، التي هي نوع مقدس من الخيوط، بالاستخفاف الذي يستخدمونها به، أنا لا أستطيع تخيل ذلك، فبالنسبة إليّ، تُعدّ حلقات المطاط كنزاً ثميناً، ولديّ حلقة غير جديدة - حلقة التقطتها من الأرض قبل حوالى ستة أعوام. لقد حاولت فعلياً أن أستخدمها، ولكن قلبي لم يطاوعني، ولم أستطع أن أُقدِم على ذلك التبذير.

قطع صغيرة من الزبدة تُكدِّر آخرين، فلا يستطيعون متابعة المحادثة بسبب الانزعاج الناجم عن عادة بعض الناس في أخذ كمية من الزبدة أكثر من حاجتهم. ألم تلحظ النظرة القلقة، التي يثبتونها على المادة؟ من الممكن أن يشعروا بالراحة إن كان في إمكانهم إخفاؤها عن أنظارهم من خلال دفعها بسرعة داخل أفواههم وابتلاعها. ويشعرون بسعادة كبيرة إذا ما قام فجأة الشخص، الذي في صحنه قطعة زبدة غير مستخدمة، بشطر قطعة خبز (التي لا حاجة له إليها على الإطلاق) وأكل قطعته من الزبدة. إنهم يعتقدون أن هذا ليس هدراً.

وهكذا كانت الآنسة ماتي جينكينز مقتصدة بحذر في الشموع. وكان لدينا العديد من الأدوات التي نستخدم أقل قدر ممكن منها.

وفي فترات ما بعد الظهر من أيام فصل الشتاء، كانت تجلس تحوك ساعتين أو ثلاث ساعات -كانت تستطيع عمل ذلك في الظلام، أو على ضوء النار- وعندما سألتها إن كانت تسمح لي أن بأدق الجرس لاستدعاء الخادمة من أجل إحضار الشموع، لكي أتمكن من إنهاء خياطة معاصمي، طلبت مني أن «ألتزم بعدم العمل في الظلام». كانت الشموع تُجلب عادة مع الشاي، ولكننا كنا نُشعل في كل مرة شمعةً واحدةً فحسب. ونظراً لأننا كنا مستعدتين باستمرار لحضور صديقة ما من الممكن أن تأتي في أي مساء (الأمر الذي لم يحدث قطّ)، فقد تطلب الأمر بعض التدبير للحفاظ على شمعتينا بالطول ذاته، وجاهزتين لأن تُشعلا، ولكي تبدوا كما لو أننا نُشعل شمعتين دائماً. لقد كانت الشمعتان تأخذان دورهما بالتناوب. وأياً كان ما نتحدث به أو نقوم بعمله، فقد كانت عينا الآنسة ماتي مثبتتين عادة على الشمعة، ومتأهبتين للقفز وإطفائها وإشعال الشمعة الأخرى قبل أن تُصبحا غير متساويتين في الطول، ولكي تستعيدا التساوي في طوليهما مع مرور وقت المساء.

في إحدى الليالي، أذكر أن هذا الاقتصاد في الشموع قد أزعجني بصورة خاصة. لقد سئمتُ جداً من هذا «الالتزام بعدم العمل في الظلام» الإجباري، لا سيما أن الآنسة ماتي كانت قد غطّت في النوم، ولم أكن أريد تحريك النار خشية أن أوقظها. لذا لم أكن قادرة على الجلوس على السجادة فأسفع نفسي وأنا أخيط قرب النار، وفقاً لممارستي المعتادة. ظننتُ أن الآنسة ماتي كانت بالتأكيد تحلم بشيء من حياتها المبكرة، إذ إنها نطقت بضع كلمات في نومها المضطرب تحمل إشارة إلى أشخاص فارقوا الحياة منذ وقت طويل.

وعندما أحضرتْ مارثا الشمعة المضاءة والشاي، استيقظت الآنسة ماتي فجأة ونظرت حولها نظرة تعجب غريبة، كما لو أننا لم نكن الأشخاص الذين كانت تتوقع أن تجدهم حولها، وبدا على وجهها تعبير بسيط عن الحزن عندما تعرفت إليّ، إلا أنها حاولت فوراً، بعد ذلك، أن تبتسم لي ابتسامتها المعتادة. وطوال فترة تناول الشاي، كان حديثها يدور حول أيام طفولتها وشبابها. وربما ذكّرها هذا الحديث بالرغبة في الاطلاع على كل رسائل الأسرة القديمة، وإتلاف كل ما لا ينبغي أن يُسمح له بالوقوع في أيدي غرباء، حيث إنها كانت تتحدث في أحيان كثيرة بضرورة إنجاز هذه المهمة، ولكنها كانت تُحجم عنها دائماً مع خوف متردد من حدوث أمر مؤلم. لكنها نهضت في هذه الليلة، بعد احتساء الشاي، وذهبت لجلب الرسائل في الظلام، حيث إنها كانت تتباهى بالترتيب الدقيق لكل ترتيبات غرفتها، فقد كانت تنظر نحوي بقلق عندما كنتُ أُشعل شمعة للذهاب إلى غرفة أخرى لأي سبب. وعندما عادت، انبعثت رائحة حبوب فول التونكا الخفيفة المستحبة في الغرفة. وكنتُ قد لحظتُ هذه الرائحة حول أي من الأشياء التي كانت تخص والدتها. وكانت الكثير من الرسائل معنونة إليها - حُزم صفراء من رسائل الحب التي تعود إلى ستين عاماً أو سبعين.

فكّت الآنسة ماتي الحزمة مع تنهيدة، لكنها خنقتها مباشرة، كما لو أنه لم يكن من الصواب الندم على مرور الزمن بسرعة كبيرة، أو على مرور الحياة. اتفقنا على الاطلاع عليها بشكل منفصل، فتأخذ كل واحدة منا رسالة مختلفة من كل حزمة وتصف محتوياتها للأخرى قبل إتلافها. لم أكن أعرف قطّ قبل تلك الليلة إلى أي مدى

يمكن لقراءة الرسائل القديمة أن تكون عملاً مُحزناً، على الرغم من أنني لم أستطع معرفة لماذا. لقد كانت الرسائل مُبهجة إلى أقصى درجة، على الأقل تلك الرسائل المبكرة كانت مُبهجة. لقد كان فيها إحساس حيوي وعارم بالوقت الحاضر، بدا قوياً جداً وعميقاً، كما لو أنه كان من غير الممكن أن يزول أبداً، وكما لو أن القلوب الحية الدافئة التي عبَّرت عن نفسها بتلك الطريقة لا يمكن أن تموت أبداً، وإستثنائية إلى حد بعيد. أعتقد أنني كنتُ سأشعر بقدر أقل من الوحشة لو لم تكن الرسائل إستثنائية إلى تلك الدرجة. رأيت الدموع تسيل منسلّة على التجاعيد الواضحة لوجنتي الآنسة ماتي، واحتاجت نظارتها إلى المسح مرات كثيرة. لقد كنتُ واثقة أخيراً بأنها كانت ستشعل شمعة أخرى، فقد كانت عيناي مغبشتين إلى حد ما، وكنتُ بحاجة إلى مزيد من الضوء لكي أرى الحبر المتلاشي الباهت. ولكن لا، فقد تذكرت عاداتها الاقتصادية وانتبهت لها حتى من خلال دموعها.

كانت المجموعة الأولى من الرسائل حزمتين مربوطتين معاً، وُضعت عليهما بطاقة مكتوب عليها (بخط الآنسة جينكينز) «رسائل متبادلة بين والدي الموقر دوماً وأمي الغالية، قبل زواجهما، في تموز/ يوليو من العام 1774». يمكنني تخمين أن قسيس كرانفورد كان في سن السابعة والعشرين، تقريباً، عندما كتب تلك الرسائل. وأخبرتني الآنسة ماتي أن والدتها كانت في سن الثامنة عشرة وقت زفافها. لقد كانت فكرتي في شأن القسيس مُستمدة من صورة في صالة الطعام كان فيها رسمياً وجليلاً، وكان يضع شعراً مستعاراً ضخماً بذيل ينسدل على الظهر، مع عباءةٍ وثوبِ قسيس وشرائط، ويده فوق نسخة من الموعظة الوحيدة التي نشرها - كانت قراءة

تلك الرسائل أمراً غريباً. لقد كانت مليئة بالحماسة المشوبة بالشوق والعاطفة، وبجمل قصيرة بسيطة نابعة من القلب (مختلفة كثيراً عن أسلوب صمويل جونسون المهيب باللغة اللاتينية الذي كَتبَ فيه الموعظة المطبوعة التي ألقاها أمام بعض القضاة في وقت مجيئهم إلى البلدة لحضور جلسات المحكمة). كانت رسائله في تناقضٍ غريبٍ مع رسائل عروسه، وكان من الواضح أنها كانت منزعجة إلى حد ما من مطالبته لها بالتعبير عن الحب، ولم تستطع أن تدرك تماماً ما الذي كان يعنيه من خلال تكرار الأمر ذاته مرات كثيرة بطرق مختلفة. ولكن الأمر الذي كانت واضحة بشأنه هو توقها إلى ثوب أبيض من «حرير بادوا» - بصرف النظر عما يمكن أن يكون ذلك. وكان شغلها الشاغل في ست رسائل أو سبع هو الطلب من حبيبها أن يستغل نفوذه مع والديها (اللذين كان من الواضح أنهما يضبطان تصرفاتها) لكي تحصل على هذه القطعة من الثياب أو تلك، أو على وجه الخصوص الثوب الأبيض من «حرير بادوا». لم يكن لديه أي اهتمام بالطريقة التي ترتدي ثيابها بها، فقد كانت هي عنده دوماً جميلة جداً، وبذل جهداً كبيراً لكي يُطمئنها عندما ناشدته أن يعبر في ردوده عن تفضيله لقطع معينة من الحُلِيّ لكي تتمكن من عرض ما قاله على والديها. ولكنه بدا أنه اكتشف في آخر المطاف أنها ما كانت لتتزوج إلى أن تحصل على «جهاز العروس» وفق ذوقها، عندئذ أرسل إليها رسالة، أَرْفَقَ معها صندوقاً مليئاً بالحليّ، وأكد فيها أنّ بإمكانها ارتداء كل ما ترغب في ارتدائه. وكانت هذه أول رسالة مزودة ببطاقة مكتوب فيها بيد رقيقة ضعيفة، «من الغالي على قلبك: جون». تزوجا بعد وقت قصير، وقد استنتجتُ ذلك من انقطاع مراسلاتهما.

«أظن أن علينا أن نحرقها». قالت الآنسة ماتي ذلك وهي تنظر بريبة نحوي. وأضافت، «لن يهتم بها أحد عندما أرحل». ثمّ اخذت تُسقطها رسالة تلو الأخرى في وسط النار وهي تُراقب كل واحدة تتوهج، وتخمد وترتفع في المدخنة على شكل شبح أبيض باهت، قبل أن تجعل رسالة أخرى تلقى المصير ذاته. كانت الغرفة مُضيئة الآن، ولكنني، مثلها، كنتُ مفتونة بمشاهدة إتلاف تلك الرسائل التي كان قد انصبّ فيها دفء صادق لقلب رجولي.

والرسالة التالية، التي كانت قد وضعت عليها الآنسة جينكينز بطاقة تنص على محتوياتها بطريقة مماثلة، كان مكتوب فيها، «رسالة تهنئة ورعة وتقديم نصيحة من جدي المبجل إلى أمي الحبيبة، بمناسبة مولدي. وتحتوي كذلك على بعض الملاحظات العملية من جدتي الرائعة بخصوص استحباب الحفاظ على دفء أطراف الأطفال».

وكان الجزء الأول، في الواقع، صورةً قاسية وعنيفة لمسؤوليات الأمهات، وتحذير من الشرور المنتشرة في العالم، والقابعة في انتظار مرعب للرضيعة الصغيرة التي كان عمرها يومين. وقال الرجل المُسِنّ المحترم إن زوجته لم تكتب لأنه منعها من الكتابة بسبب إصابتها بالتواء الكاحل، الذي جعلها (كما قال) غير قادرة على حمل قلم. ولكن في أسفل الصفحة كان مكتوب بخط صغير «إ.ص». وعند قلب الصفحة كان هناك بالفعل رسالة إلى «عزيزتي الغالية مولي»، تناشدها أن تصعد إلى الطابق العلوي قبل النزول إلى الأسفل عندما تغادر غرفتها، أياً ما كانت تفعله: وتخبرها بأن تلُفّ قدمي رضيعتها بالفلانيلا، وأن تُبقيها دافئة بالقرب من النار، على الرغم من أن الوقت كان فصل الصيف، لأن الرُضَّع حسّاسون جداً.

من الواضح أنه كان يتم تبادل الرسائل في تواتر إلى حد ما بين الأم الشابة والجدة، وكان من الجميل أن نرى من تلك الرسائل كيف كانت تتم إزالة غرور البنات من قلبها بسبب حبها لرضيعتها. وظهر ثوب «حرير بادوا» الأبيض مرة أخرى في الرسائل، بالحماسة السابقة ذاتها، تقريباً. ففي إحدى الرسائل، تم تحويله إلى عباءة تعميد للرضيعة، وكستها به على نحو أنيق عندما ذهبت مع والديها لقضاء بضعة أيام في آرلي هول، ما زاد من جمالها عندما كانت «أجمل طفلة صغيرة شوهدت على الإطلاق. أمي العزيزة، أتمنى لو تستطيعين رؤيتها! دون أي تحيز، أعتقد أنها سوف تنمو لتصبح حسناء ذات جمال طبيعي!» فكرتُ في الآنسة جينكينز، شيباء وذابلة وكثيرة التجاعيد، وتساءلتُ عمّا إذا كانت أمها قد عرفتها في ملكوت السماء: ثمّ عرفتُ أنها قد عرفتها، وأنهما كانتا تقفان هناك في هيئة ملائكية.

كان هناك فجوة كبيرة قبل أن تظهر أي رسالة من رسائل القسيس. وعندئذ غيرت زوجته أسلوبها في التظهير، فلم يعد من «عزيزي جون»، بل أصبح من «زوجي الموقّر». وكانت الرسائل مكتوبة بمناسبة نشر الموعظة ذاتها التي كانت ممثَّلة في الصورة. ومن الواضح أن إلقاء الموعظة أمام «سيدي القاضي»، وكذلك «النشر بناء على طلب» -كان نقطة الذروة- الحدث الأهم في حياته. وكان من الضروري أن يذهب إلى لندن لكي يُشرف بنفسه على الإجراءات في المطبعة. وقد تطلب الأمر الاتصال بالكثير من الأصدقاء والتشاور معهم قبل أن يُقرّر ما هي المطبعة المناسبة للتعهد بهذه المهمة الشاقة. وفي نهاية المطاف تم الاتفاق على أن تحظى مطبعة جي. أند جي. ريفينغتون بشرف تولي المسؤولية. وبدا أن القسيس النبيل قد تحمس

كثيراً بسبب هذه المناسبة فارتقى إلى مستوى أدبي رفيع، ذلك أنه نادراً ما كان يكتب رسالة إلى زوجته دون أن تظهر فيها اللغة اللاتينية بشكل غير متوقع. وأتذكر أن نهاية إحدى رسائله سارت كما يلي: «سوف تبقى الصفات الفاضلة لابنتي مولي في ذاكرتي إلى الأبد، دم ميموار ايبسي ميي، دم سبيريتوس ريجيت أرتوس»، وذلك يمكن أن يُعدّ برهاناً على المدى الذي كان يُعطي فيه ابنته مولي شكلاً مثالياً، عند الأخذ بالاعتبار أن اللغة الإنجليزية لمراسِلته كانت تحتوي أحياناً على أخطاء في القواعد، وفي كثير من الأحيان في الإملاء. وكما كانت تقول الآنسة جينكينز عادة، «يتحدث الناس كثيراً في هذه الأيام بشأن إعطاء شكل مثالي، أياً كان ما يعنيه ذلك». ولكن ذلك لم يكن شيئاً يُذكر عند مقارنته بنوبة كتابة الشعر الكلاسيكي الذي سرعان ما استبدّ به، والذي كانت مولي قد تحولت فيه إلى «مريم». والرسالة التي تحتوي على بيت الشعر كانت هي قد كتبت عليها «أبيات شعر عبرية مُرسلة إليّ من زوجي الموقر. وظننتُ أنه قد وصلتني رسالة بأمر قتل الخنزير، ولكن ينبغي لي أن انتظر. تذكير، لإرسال رسالة الشعر إلى السير بيتر آرلي، وفقاً لرغبة زوجي». وفي ملاحظة ما بعد النص بخط يده، ذُكِرَ أن القصيدة الغنائية كانت قد نُشرت في مجلة الجنتلمان، في شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 1782.

وكانت رسائلها إلى زوجها (المَكْنُوزة عنده كما لو كانت رسائل كورنثوس) شافية بالنسبة إلى زوج وأب غائب أكثر مما كان من الممكن أن تكون رسائله إليها، فقد أخبرَتْه كيف كانت ديبورا تخيط غُرزها بشكل مرتب جداً كل يوم، وبأنها قرأتْ لها الكتب التي كان قد حددها لها. وكيف أنها كانت طفلة جيدة «جريئة» جداً، إلا

أنها كانت تطرح أسئلة لا تستطيع أمها أن تُجيب عنها، ولكن كيف أنها لم تخذل نفسها بالقول إنها لا تعرف، بل كانت تحرك النار أو ترسل الطفلة «الجريئة» في مهمة. كانت ماتي الآن قد أصبحت هي محبوبة الأم، وتبشر بأن تكون باهرة الجمال (مثل أختها عندما كانت في سنها). كنتُ أقرأ هذا الكلام بصوت مرتفع للآنسة ماتي، التي ابتسمت وتنهدت قليلاً على الأمل، المعبَّر عنه بحنان شديد، بأن «ماتي الصغيرة لم تكن مغرورة، حتى إن كانت حسناء».

قالت الآنسة ماتيلدا، «لديّ شَعْر جميل جداً يا عزيزتي. وفم ليس سيئاً». ورأيتها بعد ذلك بوقت قصير تُعدّل قبعتها وتقف بشكل مستقيم.

ولكن بالعودة إلى رسائل السيدة جينكينز، فقد كانت تخبر زوجها بشأن الفقراء في الأبرشية، وما هي الأدوية المنزلية التي كانت تتناولها، وما هي الأغذية التي تبرعت بها. ومن الواضح أنها كانت تعتبر استياءه مثل عقاب مؤجل مُسلط على رؤوس جميع من لا يقومون بعمل جيد مُطلقاً. وكانت تطلب توجيهاته بشأن الأبقار والخنازير. ولم تكن تحصل عليها دائماً، كما بينتُ سابقاً.

كانت الجدة اللطيفة المُسِنّة قد توفيت عندما وُلِدَ صبي صغير، وذلك بعد وقت قصير من نشر الموعظة. ولكن كانت هناك رسالة نصائح أخرى من الجد، أكثر صرامة وتحذيراً من أي وقت آخر، فقد كان هناك الآن صبي ينبغي أن يُحمى من أفخاخ العالم حيث وصف جميع الخطايا المختلفة التي يُمكن أن يقع فيها الرجال، إلى أن تساءلتُ كيف يمكن لأي رجل أن يكون قد مات بصورة طبيعية.

وبدا أنه لا بد أن يكون الإعدام شنقاً هو النهاية لحياة معظم أصدقاء الجدّ ومعارفه. ولم أتفاجأ من الطريقة التي تحدث بها وأنّ هذه الحياة «وادٍ من الدموع».

بدا أمراً غريباً أنني لم أسمع قطُّ بهذا الأخ من قبل. ولكنني استنتجتُ أنه كان قد مات صغيراً، وإلا لكانت أختاه بالتأكيد قد ذكرتا اسمه.

وصلنا بعد وقت قصير إلى حُزم رسائل الآنسة جينكينز التي جَزِعَت الآنسة ماتي على حرقها. وقالت إن جميع الرسائل الأخرى كانت مُهمة عند من أحبوا كاتبيها فحسب، وأنه بدا كما لو أنها ستكون مستاءة لو سمحت بوقوعها في أيدي غرباء لم يعرفوا أمها العزيزة وكم كانت جيدة، على الرغم من أنها لم تكن جيدة في الإملاء، مثل الأسلوب الحديث تماماً. ولكن رسائل ديبورا كانت أفضل بكثير! ومن الممكن أن يستفيد أي شخص من قراءتها. لقد مرَّ وقت طويل على قراءتها كُتُبَ السيدة تشابون، لكنها عرفت أنها كانت تعتقد أن بإمكان ديبورا أن تقول الأشياء ذاتها تماماً. أما بالنسبة إلى السيدة كارتر! فقد نظر الناس بكثير من الاحترام إلى رسائلها، لمجرد أنها كانت تأخذ من كتابات «إبكتيتوس»، لكنها كانت متأكدة تماماً أن ديبورا لم تكن تستخدم قطُّ تعابير شائعة مثل «لا يمكن مضايقتي!»

كانت الآنسة ماتي مُكرَهَة على حرق هذه الرسائل، وكان ذلك واضحاً، فلم تسمح بأن يُمَرَّ عليها مرور الكرام بأي تخطٍ وقراءة صامتة لنفسي. لقد أخذتها مني، وأشعلت شمعة ثانية لكي تقرأها بصوت مرتفع مع تشديد ملائم، ودون تعثر في قراءة

الكلمات الكبيرة. يا للهول! كم رغبتُ في الحقائق بدلاً من التأملات، قبل الانتهاء من قراءة تلك الرسائل! لقد استغرقنا ليلتين في قراءتها، ولا أنكر أنني استثمرت الوقت لكي أفكر في أمور أخرى كثيرة، ومع ذلك كنتُ دائماً في موقعي عند نهاية كل جملة.

كانت رسائل القسيس ورسائل زوجته وحماته جميعها قصيرة وبليغة ومباشرة بشكل مقبول، وكانت مكتوبة بخط متصل في أسطر قريبٍ بعضها من بعض. وفي بعض الأحيان، كانت الرسالة كلّها محتواة داخل مجرد قصاصة ورق. وكانت الورقة صفراء جداً، والحبر بُنِّيّ جداً. وكانت بعض الصفحات (كما جعلتني الآنسة ماتي ألحظ) هي المغلف الأصلي القديم، مع طابع في الزاوية يُظهِر ساعِيَ بريدٍ يستمتع إلى أقصى درجة بركوب الدراجة ويرنّ جرسه. لقد كانت رسائل السيدة جينكينز وأمها مربوطة بحلقة رقاقية حمراء مستديرة كبيرة، وقد كان ذلك قبل قيام رواية الآنسة ويدجورث «باترونيج» بإبعاد الحلقات الرقاقية عن الأوساط الراقية. وكان واضحاً، من فحوى ما قيل، أنه كان هناك طلب شديد على مغلفات البريد المعفاة من الرسوم، التي كان يستخدِمها أيضاً أعضاء البرلمان المُعوِّزون من أجل تسديد ديونهم. وكان القسيس يختم رسائله بشعار نبالة ضخم، وأظهر هو من خلال الاهتمام الذي أنجز فيه هذه الشعيرة الشكلية أنه كان يتوقع أن تُفتح الرسالة بقصّها، لا أن تقطعها أي يد مستهترة أو عديمة الصبر. وهكذا، كانت رسائل الآنسة جينكينز أكثر حداثة في الصيغة وفي الكتابة، فكانت تكتب على صفحة ذات مربعات تعلمنا أن نسميها قديمة الطراز. وكان خطها محسوباً بطريقة مثيرة للإعجاب، بالإضافة إلى استخدامها كلماتٍ متعددة المقاطع، لتملأ

الصفحة، ثمّ كان يأتي فخر التهجين وسروره، ما جعل الآنسة ماتي المسكينة في حيرة من هذا الأمر بصورة مثيرة للشفقة، ذلك أن الكلمات كان يزداد حجمها مثل كرات الثلج، وكانت كلمات الآنسة جينكينز تُصبح طويلة جداً عند الاقتراب من نهاية رسالتها. وفي إحدى رسائلها المُرسلة إلى والدها، وكانت لاهوتية وجدلية قليلاً في لهجتها، تحدثت بقصة هيرود، تيترارش أوف إيديوميا. وقرأته الآنسة ماتي، «هيرود بيتراش أوف إيترووريا»، وكانت مسرورة كما لو كانت على صواب.

لا أستطيع تذكر التاريخ بدقة، ولكنني أظن أنه حدث في العام 1805 أن كتبت الآنسة جينكينز أطول سلسلة من الرسائل، وذلك بمناسبة غيابها في زيارة طويلة لبعض الأصدقاء قرب مدينة نيوكاسل أبّون تاين. كان هؤلاء الأصدقاء على علاقة وثيقة مع قائد الحامية العسكرية هناك، وسمعتْ منه بكل الاستعدادات التي كانت تجري لصد غزو بونابرت، ذلك الغزو الذي كان بعض الناس يتصورون أنه من الممكن أن يُشَنّ عند مصب نهر التايمز. ومن البديهي أن الآنسة جينكينز كانت قلقة إلى حد كبير. وكان الجزء الأول من رسائلها مكتوباً غالباً بلغة إنجليزية واضحة جداً، ويخبر بتفاصيل الاستعدادات التي كانت تُجريها الأسرةُ التي كانت تقيم عندها ضد الحدَث المخيف. حزم الملابس التي كانت مرتّبة وجاهزة للهروب إلى ألستون مور (وهي قطعة أرض برية تقع بين مقاطعة نورثمبرلاند ومقاطعة كمبرلاند). وكانت هناك إشارة ينبغي أن تُعطى لهذا الهروب، ولطلب مساعدة المتطوعين حاملي السلاح بشكل متزامن. وكانت الإشارة المذكورة (إن كنتُ أتذكر بشكل صحيح) تنطوي على قرع أجراس الكنيسة بطريقة معينة ومشؤومة. ذات

يوم، عندما كانت الآنسة جينكينز مع مضيفيها في وليمة غداء في نيوكاسل، تم إطلاق إشارة الإنذار هذه (ليس إجراءً حكيماً جداً إن كانت هناك أي حقيقة في العبرة المرتبطة بحكاية الصبي والذئب، ولكن هذا ما حدث)، وكتبت الآنسة جينكينز في اليوم التالي، ولمّا تتعافَ من فزعها بعد، لكي تصف الصوت والصدمة التي تحبس الأنفاس وحالة العجلة والفزع. ثمّ أضافت وهي تلتقط أنفاسها، « والدي العزيز، كم بدت كل المخاوف التي انتابتنا في الليلة السابقة تافهة في الوقت الحالي، بالنسبة إلى عقول هادئة متدبّرة!» وهنا قاطعتها الآنسة ماتي فجأة:

«ولكن في الواقع، يا عزيزتي، لم تكن تافهة أو بسيطة على الإطلاق في ذلك الوقت. أعرف أنني كنتُ أستيقظ في الليل مرات عديدة وأظنُ أنني كنت أسمع وقع أقدام الفرنسيين يدخلون كرانفورد، حيث إن الكثير من الناس كانوا يتحدثون بقيامهم بالاختباء في مناجم الملح، وأنه كان من الممكن الاحتفاظ باللحم بطريقة ممتازة هناك في الأسفل، إلا أنه ربما كنا سنشعر بالعطش. لقد ألقى والدي مجموعة كاملة من المواعظ بهذه المناسبة، وكانت إحدى المجموعات في فترات الصباح، حول النبيّ داود صبياً وجالوت الجبّار، لرفع معنويات الناس لكي يحاربوا بالمجارف أو الطوب، إن احتاج الأمر إلى ذلك؛ والمجموعة الأخرى في فترات ما بعد الظهر، تُثبت أن نابليون (كان ذلك اسماً آخر لـ'هزيل'، كما اعتدنا أن نطلق عليه) كان مماثلاً تماماً لأبوليون وأبادون. وأتذكر أن والدي كان يعتقد أنه ينبغي أن يُطلب منه طباعة هذه المجموعة الأخيرة. ولكن من المحتمل أن رعايا الأبرشية اكتفوا منها بما سمعوه».

كان بيتر مارمادوك آرلي جينكينز («بيتر المسكين!» كما بدأت الآنسة ماتي تُسميه) في المدرسة في بلدة شروزبري في ذلك الوقت. أمسك القسيس بقلمه وأنعش لغته اللاتينية مرة أخرى لكي يتراسل مع هذا الصبي. لقد كان من الواضح جداً أن رسائل الصبي كانت ما يُطلق عليه رسائل استعراضية. كانت رفيعة المستوى فكرياً حيث تُقدِّم وصفاً لدراساته وآماله الفكرية، بمختلف أنواعها، مع اقتباسات من كتب كلاسيكية هنا وهناك. ولكن بين الفينة والأخرى، كانت الطبيعة الحيوانية تظهر في جمل قصيرة من الواضح أنها كُتبت في عجلة مضطربة، بعد معاينة الرسالة، كهذه: «أمي العزيزة، أرسلي إليّ كعكة، وضعي فيها الكثير من الكبّاد». ومن المحتمل أن ردّ «الأم العزيزة» على ولدها كان على شكل كعكات و«طعام لذيذ»، ذلك أنه لم تكن هناك أي من رسائلها في هذه المجموعة. ولكن كانت هناك مجموعة كاملة من رسائل القسيس، وكانت اللغة اللاتينية المستخدمة في رسائل ابنه إليه أشبه بصوت البوق بالنسبة إلى حصان الحرب المُسِنّ. أنا، بلا ريب، لا أعرف الكثير من اللاتينية، وربما كانت لغة زخرفية، لكنني أظن أنها غير مفيدة جداً - على الأقل بناء على تقديري من الأجزاء الصغيرة التي أتذكرها من رسائل القسيس. وكان أحد الأجزاء، «لَمْ تضع تلك البلدة في خريطتك لإيرلندا، ولكن (بوناس بيرنادردوس نون فيديت أومنيا *Bonus Bernardus non videt omnia*) (أي جميعنا عرضة للنسيان أحياناً)، كما يقول المثل». وبدا واضحاً جداً فوراً أن «بيتر المسكين» قد أقحم نفسه في مآزق عديدة. وكانت هناك رسائل ندم مُتكلَّفة إلى والده، بسبب بعض الأعمال الخاطئة، ومن بينها جميعها كانت هناك رسالة ملطخة

بالحبر المتفشي، مكتوبة بطريقة سيئة ومختومة بشكل رديء ومعنونة بشكل سيّئ: «أمي الغالية والعزيزة جداً جداً جداً، سوف أكون صبياً أفضل. سوف أكون كذلك بالفعل. ولكن أرجوك ألّا تكوني مريضة بسببي، فأنا لا أستحق ذلك. ولكنني سوف أكون جيداً يا أمي الحبيبة».

لم تستطع الآنسة ماتي أن تتكلم بسبب البكاء بعد قراءتها لهذه الرسالة. أعطتني إياها في صمت، ثم نهضت وأخذَتها إلى خلوتها المقدّسة في غرفتها، خشية أن يكون هناك أيّ احتمال أن يتم حرقها. قالت، «بيتر المسكين! كان دائماً واقعاً في مآزق. لقد كان متساهلاً جداً، فقادوه إلى الخطيئة وتركوه وحيداً في مأزق. ولكنه كان مغرماً جداً باللهو. لم يكن بمقدوره قطُّ مقاومة أي مُزاح. بيتر المسكين!»



6

بيتر المسكين

بسط أصدقاء المسكين بيتر اللطفاء مخطط حياته المهنية أمامه بصورة مريحة إلى حدّ ما، ولكن المثَل، جميعنا عرضة للنسيان أحياناً، ينطبق على هذه الخطّة أيضاً. كان عليه أن ينال درجات الشرف في مدرسة شروزبري، وأن يحملها وافرة إلى كمبريدج، وكان في انتظاره بعد ذلك الاستقرار، هدية من أبيه في العماد، السير بيتر آرلي. المسكين بيتر! كان نصيبه من الحياة مختلفاً تماماً عمّا كان يأمل أصدقاؤه وعمّا خطّطوا له. لقد أخبرتني الآنسة ماتي بكل أموره، وأظن أنها شعرت بارتياح بعد فعل ذلك.

لقد كان الأثيرَ لدى أمه، التي كانت شغوفاً بكل أطفالها، على الرغم من أنها ربما كانت خائفة قليلاً من مؤهلات ديبورا المتفوقة. وكانت ديبورا هي المُفضَّلة لدى والدها، وعندما خيب بيتر أمله، أصبحت هي مصدر فخره. لقد كانت درجة الشرف الوحيدة التي جلبها بيتر من شروزبري هي الصيت بأنه الشخص الأكثر مرحاً على الإطلاق، وبأنه كابتن المدرسة في فنّ المزاح. أُصيب والده بخيبة أمل، لكنه بادر إلى تعويض الأمر بطريقة رجولية، فلم يكن في وسعه إرسال بيتر ليدرس مع أي معلم خصوصي، لكن كان بإمكانه أن

يدرس هو نفسه معه. وحدثتني الآنسة ماتي كثيراً بالتحضيرات الفظيعة، على شكل قواميس ومعاجم، تم إعدادها في مكتب والدها في صباح اليوم الذي بدأ فيه بيتر بالدراسة.

قالت، «أمي المسكينة! أتذكَّر كيف كانت تقف في الردهة، قريباً بما يكفي من باب المكتب لتسمع نبرة صوت أبي. وكنتُ قادرة في لحظة على معرفة ما إذا كان كل شيء يسير على ما يرام، وذلك من تعابير وجهها. وقد سارت الأمور بشكل جيد فترة طويلة».

قلتُ، «ما هو الخلل الذي حدث في نهاية المطاف؟ أظن أنها تلك اللغة اللاتينية المملة».

«لا! لم تكن اللاتينية. لقد حظي بيتر باستحسان كبير من والدي، حيث إنه عمل باجتهاد من أجله. ولكن بدا أنه كان يظن أن أهل كرانفورد ربما كانوا يجعلون من الأمر موضوع مزاح ويستهزئون به، ولم يُعجبه ذلك، فذلك لا يُعجب أي أحد. لقد كان دائماً يخدعهم، وكلمة 'يخدع' ليست كلمة جميلة يا عزيزتي، وأرجو ألا تُخبري والدك أنني استخدمتها، فأنا لا أرغب في أن يُفكِّر أنني لا أحسن الاختيار في لغتي، بعد العيش مع امرأة مثل ديبورا. واحرصي على ألّا تستخدميها أنت نفسك. لا أدري كيف زلَّ بها لساني، سوى أنني كنتُ أفكر في بيتر المسكين وكانت مفردة لغوية يستخدمها دائماً. ولكنه كان فتى محترماً في أمور كثيرة. لقد كان مثل النقيب براون العزيز من حيث كونه جاهزاً لتقديم المساعدة لأي شخص مُسِنّ أو طفل. ومع ذلك، فقد كان يُحبّ اللهو والتسلية، وبدا أنه كان يظن أن نساء كرانفورد المُسِنّات يُمكن أن يُصدقن أي شيء، وقد كانت هناك نساء مُسِنّات كثيرات يعشن في كرانفورد في ذلك

الوقت. ونحن الآن نساء مُسِنّات بشكل أساسي، أعرف ذلك، ولكننا لسنا مُسِنّات جداً إلى الدرجة التي كانت عليها النساء عندما كنتُ طفلة صغيرة. يمكنني أن أضحك عند التفكير في بعض نكات بيتر. لا يا عزيزتي، لن أرويها لك، لأنها قد لا تصدمك أنت كما يُفترَض أن تفعل، وقد كانت صادمة جداً. لقد خدع والدي ذات مرة، من خلال ارتدائه ملابس امرأة والتظاهر بأنه «سيدة» كانت تسير خلال البلدة وتتمنى رؤية قسيس كرانفورد 'الذي نشر موعظة أسيز الرائعة'. قال بيتر إنه شعر بخوف شديد هو نفسه عندما رأى أن والدي قد انخدع تماماً، بل إنه عرض نسخ جميع مواعظ نابليون بونابرت من أجلها.. أجله، أعني.. لا، من أجلها، ذلك أن بيتر كان امرأة عندئذ. وقال لي إنه كان مذعوراً في ذلك الوقت أكثر من أي وقت في حياته، وطوال الوقت الذي كان والدي يتحدث فيه. لم يعتقد أن والدي كان سيصدقه. ومع ذلك، لو أنه لم يُصدقه، لكان أمراً مُحزناً عند بيتر. في الواقع إنه لم يكن مسروراً كثيراً بالأمر، ذلك أن والدي جعله يعمل بجد في نسخ كل مواعظ بونابرت الاثنتي عشرة من أجل تلك المرأة التي كانت بيتر نفسه، كما تعلمين. لقد كان هو المرأة. وذات مرة عندما رغب في الذهاب للصيد، قال بيتر، 'اللعنة على تلك المرأة!' - كلمة سيئة جداً يا عزيزتي، ولكن بيتر لم يكن متحفظاً دائماً كما كان يُفترض أن يكون. وكان والدي غاضباً جداً منه، لقد كنتُ خائفة جداً من ذلك الأمر: ومع ذلك كنت أجد صعوبة كبيرة في منع نفسي من الضحك من انحناءات الاحترام الصغيرة التي استمر بيتر بأدائها بمكر كلما تحدث والدي بشأن الذوق الرفيع والحصافة التي تتمتع بهما تلك المرأة».

قلتُ، «هل كانت الآنسة جينكينز تعرف هذه الحيل؟»

«أوه، لا! كانت ديبورا ستُصدَم كثيراً. لم يكن أحد يعرف سواي. أتمنى لو أنني كنتُ أعرف دائماً خطط بيتر، ولكنه لم يكن يُخبرني في بعض الأحيان. كان يقول إن النساء المُسنّات في البلدة كنّ يُرِدْن شيئاً ما للتحدث به، إلا أنني لا أظن أنهن كنّ كذلك. لقد كنَّ يحصلن على صحيفة «وقائع سانت جيمس» ثلاث مرات في الأسبوع، تماماً كما نحصل عليها نحن الآن، ولدينا الكثير لنقوله. وأتذكر ضجيج الثرثرة الذي كان ينبعث دائماً عندما تجتمع بعض النساء معاً. ولكن ربما كان طلاب المدارس يتحدثون أكثر من النساء. وأخيراً كان هناك أمر فظيع مُحزن قد جرى». نهضت الآنسة ماتي وذهبت إلى الباب وفتحته، ولم يكن هناك أحد. قرعت الجرس لكي تنادي مارثا. وعندما حضرت مارثا، طلبت منها سيدتها أن تذهب لكي تُحضِر البيض من مزرعة في الطرف الآخر من البلدة.

«سوف أُغلق الباب وراءك يا مارثا. أنت لا تخشين من الذهاب، أليس كذلك؟»

«لا يا سيدتي، على الإطلاق. سوف يكون جيم هيرن فخوراً جداً بمرافقتي».

وقفت الآنسة ماتي منتصبة، وحالما أصبحنا وحدنا، تمنت لو أن مارثا لديها قدر أكبر من التحفظ العذري.

«سوف نطفئ الشمعة يا عزيزتي. يمكننا التحدث على ضوء النار، كما تعلمين. حسناً، أترَين، كانت ديبورا قد غادرت المنزل أسبوعين أو نحو ذلك. أذكرُ أنه كان يوماً هادئاً وساكناً جداً،

وكانت الزنابق جميعها مُزهرة، لذا أتوقع أنه كان فصل الربيع. وكان والدي قد خرج لكي يرى بعض الأشخاص المرضى في الأبرشية. وأذكر رؤيته وهو يغادر بشعره المستعار وبقبعته الجاروفية وعكازه. ولا أدري ما المَسُّ الذي استحوذ على بيترنا المسكين. لقد كان يتمتع بأحسن مزاجٍ، ومع ذلك كان يبدو دائماً أنه يُحب إغاظة ديبورا. لم تضحك قطُّ على مزاحه، وكانت تعتبره غير مُهذب وغير حريص على تحسين عقله بما فيه الكفاية. وكان ذلك يُثير استياءَه».

«حسناً! ذهب إلى غرفتها، على ما يبدو، وارتدى ثوبها القديم، وشالها، وقلنسوتها. بالضبط الأشياء التي اعتادت ارتداءها في كرانفورد، والمعروفة بها في كل مكان. وحوّل الوسادة إلى.. هل أنت متأكدة أنك أقفلت الباب يا عزيزتي، فأنا لا أرغب أن يسمعنا أي كان.. إلى طفل رضيع بملابس بيضاء طويلة. وكان ذلك، كما أخبرني فيما بعد، لمجرد صُنع شيء تتحدث به البلدة. ولم يُفكر قطُّ في أن ذلك سوف يسبب ضرراً لديبورا. ثم ذهب ومشى ذهاباً وإياباً على طول ممشى فيلبرت - نصف مخفيّ بواسطة قضبان السور، ونصف مرئيّ. واحتضن وسادته، تماماً كما لو كانت طفلاً رضيعاً، وتحدث إليها بكل الهراء الذي يتحدث به الناس. ويا للهول! جاء والدي يمشي بجلال في الشارع، كعادته دائماً. وماذا كان يُفترض أن يرى سوى حشد أسود صغير من الناس - أعتقد أن عددهم بلغ عشرين شخصاً - جميعهم يختلسون النظر من خلال قضبان سور حديقته. وقد ظنّ، أول وهلة، أنهم ينظرون إلى شجرة ورد جديدة كانت في حالة إزهار كامل، كان فخوراً جداً بها، فأبطأ من مشيته حتى يكون لديهم مزيد من الوقت للنظر إليها بإعجاب. وتساءل فيما إذا كان بإمكانه إعداد

موعظة من تلك المناسبة، وفكر أنه ربما كانت هناك علاقة بين أشجار الورد وزنابق الحقل. والدي المسكين! عندما اقترب أكثر، بدأ يستغرب من أنهم لم يروه، ولكن رؤوسهم كانت قريباً بعضها من بعض، فكانوا يختلسون النظر، ويختلسون النظر! أصبح والدي بينهم وهو ينوي، هكذا قال، أن يطلب منهم الدخول إلى الحديقة معه لكي يتأملوا بإعجاب محصول الخضار، عندما.. أوه، يا إلهي، إنني أرتجف عندما أفكر في الأمر.. عندما نظر من خلال قضبان السور هو نفسه، فرأى.. لا أعرف ماذا ظنّ أنه رأى، ولكن كلير العجوز أخبرني أن وجهه أصبح رمادياً شاحباً من الغضب، وكانت عيناه، تحت حاجبيه الأسودين المقطبين، تقدحان شرراً. فصرخ.. أوه، بشكل فظيع! .. وأمرهم أن يقفوا جميعهم في أماكنهم.. وألا يذهب أي شخص منهم، وألا يخطو أي واحد منهم خطوة واحدة. وبسرعة خاطفة، دخل من باب الحديقة، ومشى في ممشى فيلبرت، وأمسك بالمسكين بيتر، ومزق ملابسه عن ظهره -القلنسوة والشال والثوب جميعها- وألقى الوسادة بين الناس من فوق قضبان السور: وكان غاضبًا جداً جداً، فرفع عصاه وضرب بيتر!

«يا إلهي، مزحة الفتى تلك، في ذلك اليوم المشمس، عندما بدا أن كل شيء كان يسير على أحسن ما يُرام، سحق قلب أمي، وغيّر أبي إلى الأبد. لقد أدى إلى ذلك فعلياً. قال كلير العجوز، بدا بيتر شاحباً مثل والدي، ووقف ساكناً كتمثال لكي يُجلد، وضربه والدي بقسوة! وعندما توقف والدي لكي يلتقط أنفاسه، قال بيتر بصوت أجش، 'هل اكتفيت يا سيدي؟' وهو ما يزال يقف بهدوء تام. لا أعرف ماذا قال والدي - أو ما إذا قال أي شيء. ولكن كلير

العجوز قال، استدار بيتر إلى حيث كان الناس وراء قضبان السور، وانحنى لهم انحناءة منخفضة في مهابة أيّ رجل محترم ورزانته. ثم مشى ودخل إلى المنزل ببطء. كنتُ في غرفة الخزين أُساعدُ أمي في صنع نبيذ زهر الحقل. لا أستطيع تحمل النبيذ الآن، ولا رائحة الأزهار، إنها تُصيبني بالغثيان وتشعرني بفتور في قواي، كما حدث لي في ذلك اليوم. عندما دخل بيتر بدا متعجرفاً كأي رجل. في الواقع كان يبدو مثل رجل وليس مثل فتى. وقال، 'أمي! جئتُ لكي أقول، بارك الرب فيك إلى الأبد.' رأيتُ شفتيه ترتعشان وهو يتكلم. وأعتقد أنه لم يجرؤ على قول أي شيء ينمُّ عن قدر أكبر من الحب، لغرض في نفسه. نظرتْ إليه وهي خائفة إلى حد ما، ومندهشة، وسألتْ ما الأمر؟ لم يبتسم أو يتكلم، بل وضع ذراعيه حولها وقبّلها كما لو أنه لم يكن يعرف كيف يكفّ عن ذلك. وقبل أن تتمكن من التحدث مرة أخرى، كان قد اختفى. تحدثنا بالأمر، ولم نتمكن من فهمه، وأمرتني أن أذهب وأبحث عن والدي، وأساله عن الأمر. وجدته يمشي جيئة وذهاباً، وبدا مستاء جداً.

«'أخبري أمك بأنني جلدت بيتر، وبأنه استحق العقوبة تماماً'.

«لم أجرؤ على طرح أي سؤال آخر. وعندما أخبرت والدتي، جلستْ دقيقة مبهوتة تماماً. أذكر، بعد بضعة أيام، أنني رأيت أزهار الحقل الذابلة المسكينة مُلقاة في كومة الأوراق، لكي تتعفن وتموت هناك. لم يُصنع نبيذ أزهار الحقلِ في تلك السنة في منزل القسيس – وفي الواقع إنه لم يُصنع بعدها قطّ.

«ذهبت أمي إلى والدي في الحال. أُدرِكُ أنني فكرت في الملكة إستر والملك أحشويروش. ذلك أن أمي كانت جميلة جداً ورقيقة

المظهر، وبدا والدي فظيعاً مثل الملك أحشويروش. خرجا معاً بعد مرور بعض الوقت. ثم أخبرتني أمي بما جرى، وأنها كانت ذاهبة إلى غرفة بيتر وفقاً لرغبة والدي لكي تناقش الأمر معه، على الرغم من أنها لم تكن تريد لتُخبر بيتر بذلك. ولكن بيتر لم يكن هناك. بحثنا في كل مكان في المنزل، ولم يكن بيتر في أي مكان هناك! وحتى والدي، الذي لم يكن يرغب في الانضمام إلى عملية البحث في البداية، ساعدنا قبل مرور وقت طويل. كان منزل القسيس قديماً جداً - درجات تصعد نحو غرفة ودرجات تهبط نحو غرفة، في كل مكان. في البداية، أخذت أمي تُنادي بصوت خفيض رقيق، كما لو أنها تريد أن تُطمئِن الصبي المسكين، 'بيتر! بيتر، عزيزي! إنني أنا فحسب'. ولكن في نهاية المطاف، بعد عودة الخدم الذين أرسلهم والدي في اتجاهات مختلفة لمعرفة مكان بيتر، وبعد أن عرفنا أنه ليس في الحديقة ولا في مخزن التبن ولا في أي مكان حولنا، بدأت صرخة أمي تُصبح أعلى وأعنف، 'بيتر! بيتر، حبيبي! أين أنت؟' حيث إنها شعرت عندئذ، وفهمت، أن تلك القبلة الطويلة كانت تعني نوعاً من 'الوداع' الحزين. مضى الوقتُ من بعد ظهر ذلك اليوم، ولم تسترح أمي قطُّ، بل واصلت البحث مراراً وتكراراً في كل مكان محتمل كان قد تم البحث فيه أكثر من عشرين مرة من قبل. ليس هذا فحسب بل كانت هي نفسها قد بحثت فيه مراراً وتكراراً. جلس والدي ووجهه بين يديه، لا يتكلم إلا عندما يدخل رُسُلُه، دون أن يجلبوا معهم بشائر، فيرفع وجهه، متماسكاً وحزيناً، ويطلب منهم أن يذهبوا في اتجاه ما آخر. استمرت أمي بالمرور من غرفة إلى أخرى، تدخل إلى المنزل وتخرج منه، وتتنقل بلا ضجيج، ولكن لا تتوقف مطلقاً. لم تجرؤ هي أو

والدي على مغادرة المنزل، الذي كان مُلتقى جميع الرُّسُل. وأخيراً (كان الظلام قد حلّ تقريباً)، نهض والدي، وأمسك بذراع أمي، في أثناء خروجها من أحد الأبواب في مشية مضطربة حزينة، واتَّجها بسرعة نحو باب آخر. جفلتْ من لمسة يده، ذلك أنها كانت قد نسيت كل ما في العالم باستثناء بيتر.

قال «'مولي! لم أفكر أن كل هذا كان سيحدث'. نظر في وجهها من أجل المواساة حيث إن وجهها البائس كان مضطرباً وشاحباً إلى حد كبير، ذلك أنّها لم تتجرأ هي ولا والدي على الاعتراف بالرعب الكامن في قلبيهما، ناهيك عن التصرف وفقاً له، خشية أن يكون بيتر قد قتل نفسه. لم يرَ والدي أي نظرة واعية في عيني زوجته المحمومتين والحزينتين، وافتقد التعاطف الذي كانت جاهزة دائماً لتمنحه له. وعلى الرغم من كونه رجلاً قوياً، إلّا أنّ دموعه أخذت تنهمر أمام القنوط الصامت في وجهها. ولكنها عندما رأت هذا، ظهر أسف لطيف في ملامحها، وقالت، 'عزيزي جون! لا تبكِ. تعال معي وسوف نعثر عليه'. قالت ذلك بمرح كما لو أنها تعرف أين كان. وأخذت بيد والدي الضخمة في يدها الصغيرة الناعمة، تسير أمامه، والدموع تنهمر في أثناء سيره في ذلك المسار المنهك المتواصل ذاته، من غرفة إلى أخرى، وفي كافة أنحاء المنزل والحديقة.

«أوه، كم تمنيت لو أن ديبورا كانت بيننا! ليس لدي وقت للبكاء، إذ يبدو أن كل شيء يعتمد عليّ الآن. كتبتُ إلى ديبورا لكي تعود إلى المنزل، وأرسلت رسالة سراً إلى ذلك المنزل الخاص بالسيد هولبروك ذاته، السيد هولبروك المسكين، أنت تعرفين من أقصد. لا أقصد أنني أرسلتُ رسالة إليه، ولكنني أرسلت شخصاً أثق به

لمعرفة ما إذا كان بيتر في منزله. ذلك أن السيد هولبروك كان زائراً لمنزل القسيس في إحدى المناسبات، فأنت تعلمين أنه ابن عم الآنسة بول. وكان في تلك الزيارة لطيفاً جداً مع بيتر، وعلمه كيف يصطاد السمك. لقد كان لطيفاً مع الجميع، وظننتُ أنه من الممكن أن يكون بيتر قد ذهب إلى هناك. ولكن السيد هولبروك كان بعيداً عن المنزل، ولم يُشاهد بيتر قطُّ هناك. كان الليل قد حلَّ الآن. ولكن جميع الأبواب كانت مفتوحة على مصاريعها، واستمر أبي وأمي بالمشي بشكل متواصل، وكانت قد مرت ساعة منذ أن انضم إليها، ولا أظن أنهما قد تحدثا قطُّ طوال ذلك الوقت. كنتُ أُشعِلُ نار صالة الاستقبال، وكان أحد الخدم يُجهز الشاي، فقد أردتهما أن يتناولا شيئاً من الطعام والشراب وأن يحصلا على بعض الدفء، عندما طلب كلير العجوز أن يتحدث معي.

«'لقد استعرتُ الشِّباك من سياج صيد السمك في النهر يا آنسة ماتي. هل نبحث عن الغرقى في البرك الليلة، أم ننتظر حتى الصباح؟'

«أذكُر أنني حدّقت إلى وجهه لكي أستنتج ما يعنيه. وعندما أدركت ما يعنيه، ضحكت بصوت مرتفع. هول تلك الفكرة الجديدة - بيتر، ابننا البشوش الحبيب، بارد وعارٍ وميت! أتذكّر دويَّ ضحكتي الآن.

«في اليوم التالي كانت ديبورا في المنزل قبل عودتي إلى حالتي الطبيعية مرة أخرى. لم تكن ضعيفة جداً إلى درجة إطلاق العنان لعواطفها كما فعلتُ أنا. ولكن صرخاتي (ضحكتي الفظيعة انتهت

بالبكاء) نبّهَتْ أمي العزيزة اللطيفة، التي كأنها استردّت صوابها البائس المفقود ما أنْ وجدت طفلاً بحاجة إلى رعاية. جلست هي وديبورا بجانب سريري، وعرفتُ من نظرات كلتيهما أنه لم تكن هناك أية أخبار بشأن بيتر - ليس هناك أخبار رهيبة فظيعة، وهي الأخبار التي كنت أخشاها كثيراً في حالتي من الخمول بين الصحو والنوم.

«وكانت النتيجة ذاتها لكل حالات البحث قد جلبت بعضاً من الارتياح ذاته لأمي. وأنا متأكدة من أن تفكير أمي في إمكانية أن يكون بيتر عندئذ مُعلقاً ميتاً في مكان ما من الأماكن المألوفة في المنزل قد تسبب في ذلك السير الدائم يوم أمس. لم تعد عيناها الرقيقتان بعد ذلك هما ذاتهما مرة أخرى قطُّ، بل كان فيهما دوماً نظرة جزع متلهفة كما لو أنهما تبحثان عمّا لا تستطيعان العثور عليه. أوه! لقد كان وقتاً فظيعاً، نزل مثل صاعقة الرعد في اليوم الهادئ المشمس عندما كانت الزنابق جميعها مزهرة».

قلتُ، «أين كان السيد بيتر؟»

«لقد شق طريقه إلى ليفربول، وكان هناك حرب في ذلك الوقت وكانت بعض سفن الملك راسية في مصبّ نهر المرزي. لقد كانوا سعداء جداً أن يأتي فتى واعد رائع مثله (كان طوله خمس أقدام وتسعة إنشات)، جاء ليقدِّم نفسه. كتب القبطان إلى والدي، وكتب بيتر إلى أمي. انتظري! تلكما الرسالتان محفوظتان في مكان ما هنا».

أشعلنا الشمعة، ووجدنا رسالة القبطان ورسالة بيتر أيضاً. ووجدنا أيضاً رسالة توسّل بسيطة صغيرة من الآنسة جينكينز إلى بيتر، أرسلتها إليه إلى عنوان منزل زميل دراسة قديم، حيث تصورت

أنه من الممكن أن يكون قد ذهب إلى هناك. وكانوا قد أعادوها دون فتحها، وبقيت غير مفتوحة منذ ذلك الحين، حيث إنها كانت قد وُضِعت بشكل غير مقصود بين الرسائل الأخرى في ذلك الوقت. وهذه هي:

«عزيزي بيتر، لم تكن تعتقد أننا سنكون محزونين جداً كما هو حالنا الآن، أعرف ذلك، وإلا ما كنتَ سترحل مُطلقاً. إنك طيب جداً. يجلس والدك ويتنهد إلى أن يلتاع قلبي من سماعه. إنه لا يستطيع رفع رأسه من الحزن، ومع ذلك، فقد أقدم على فعل ما اعتقد أنه كان صواباً. ربما كان قاسياً أكثر من اللازم، وربما لم أكن أنا لطيفة بما فيه الكفاية، ولكن الرب يعرف إلى أيّ مدى نحن نحبك، يا غلامي الوحيد العزيز. ‘دون’ يبدو حزيناً جداً لرحيلك. عُد واجعلنا سعداء، نحن الذين نحبك كثيراً. أعرف أنك سوف تعود».

ولكن بيتر لم يرجع. لقد كانت آخر مرة رأى فيها وجه أمه في اليوم الربيعي ذاك. لقد كان كاتبَ تلك الرسالة، وهي الرسالة الأخيرة، هو الشخص الوحيد الذي رأى ما هو مكتوب فيها، وقد توفي منذ أمد بعيد. وأنا، مجرد غريبة، ولم أولد في ذلك الزمن الذي جرت فيه هذه الواقعة، كنتُ من فتحها.

أدت الرسالة إلى ذهاب أبي وأمي فوراً إلى ليفربول، على أمل رؤية ابنهما. ونتيجة لبعض صُدف الحياة القاسية، كانت رسالة القبطان قد احتُجِزَت بطريقة ما في مكان ما.

وتابعت ماتي، «وكان موسم سباق الخيل، وكانت جميع أحصنة البريد في كرانفورد قد أُخِذَت إلى السباقات. ولكن أبي وأمي انطلقا

في عربتنا الخفيفة الخاصة - وأوه! يا عزيزتي، لقد وصلا متأخرين - كانت السفينة قد رحلت! والآن اقرئي رسالة بيتر إلى أمي!»

لقد كانت مليئة بالحب والحزن والاعتزاز بمهنته الجديدة، وإحساس موجع بسبب رؤيته الإهانة في عيون الناس في كرانفورد. إلا أنها تنتهي بمناشدة عاطفية بأن تأتي لكي تراه قبل أن يُغادر نهر المرزي: «أمي، من الممكن أن ندخل في معركة. أتمنى أن نفعل ونهزم أولئك الفرنسيين: ولكن ينبغي لي أن أراك قبل ذلك الوقت».

قالت الآنسة ماتي، «وكانت متأخرة جداً. متأخرة جداً!»

جلسنا في صمت، نتأمل في المعنى الكامل لتلك الكلمات الحزينة. وبعد وقت طويل، طلبتُ من الآنسة ماتي أن تخبرني كيف تحملت أمها الأمر.

قالت، «أوه! لقد كانت هي الصبر عينه. لم تكن قوية قطُّ، وقد أضعفها هذا الأمر بشكل فظيع. واعتاد والدي الجلوس والنظر إليها: كان حزيناً أكثر منها كثيراً. وبدا كما لو أنه لا يستطيع النظر إلى أي شيء آخر عندما تكون بجانبه. وكان قد أصبح الآن مستكيناً جداً ولطيفاً جداً. ربما كان يتكلم بطريقته السابقة.. يتكلم بثقة وعنفوان، كما كانت.. ثمّ، في غضون دقائق قليلة، كان يأتي ويضع يده على أكتافنا، ويسألنا بصوت خفيض ما إذا كان قد قال أي شيء يؤذينا. لم أكن أستغرب من قوله ذلك لديبورا، فقد كانت ذكية جداً، ولكنني لم أستطع احتمال سماعه يقول ذلك لي.

«ولكن السبب هو أنه رأى ما لم نرَه نحن، أي إن ذلك الأمر كان يقتل أمي. نعم! يقتلها (أطفئي الشمعة يا عزيزتي، فأنا أستطيع

التحدث بشكل أفضل في الظلام)، لأنها كانت مجرد امرأة ضعيفة، غير مؤهلة لتحمّل الخوف والصدمة اللذين مرت بهما، وكانت تبتسم له وتواسيه، ليس بالكلمات، ولكن بنظراتها ونبراتها التي كانت دائماً مرحة عندما كان هناك. وكانت تتحدث باعتقادها أن لدى بيتر فرصة كبيرة في أن يُصبح أدميرالاً قريباً جداً، لأنه كان شجاعاً وذكياً، وكيف كانت تفكر في رؤيته في زي البحرية، وما هو نوع القبعات التي كان يرتديها الأدميرالات، وكم كان مؤهلاً أكثر ليكون بحاراً بدلاً من أن يكون رجل دين، وبأشياء كثيرة من هذا القبيل، لمجرد أن تجعل والدي يعتقد أنها مسرورة تماماً مما نجم عن عمل ذلك الصباح المشؤوم، وعن الجَلْد الذي كان دائماً في ذهنه، كما كنا نعرف جميعنا. ولكن أوه يا عزيزتي! البكاء المرير، المرير، الذي كانت تبكيه عندما تكون وحدها. وأخيراً، عندما أصبحتْ أضعف، لم تستطع إخفاء دموعها عندما نكون أنا أو ديبورا بجانبها، وكانت تعطينا رسالة تلو الأخرى من رسائل بيتر (ذهبت سفينته إلى البحر الأبيض المتوسط، أو إلى مكان ما هناك، ثمّ تلقى أمراً بالذهاب إلى الهند، ولم يكن هناك طريق بري في ذلك الوقت). ولكنها كانت تقول مع ذلك لا أحد يعرف أين سيلقى حتفه، وإنه لا يتعين علينا أن نُفكر في أن موتها كان وشيكاً. لم نكن نفكر في ذلك، ولكننا كنا نعرفه، فقد كنا نراها تتلاشى.

«حسناً يا عزيزتي، إنها حماقة كبيرة مني. إنني أعرف ذلك، فعلى الأرجح أنني سوف أراها مرة أخرى في القريب العاجل.

«وأفكر في الحب فحسب! في اليوم التالي لوفاتها بالضبط، لأنها توفيت قبل أن تُكمل اثني عشر شهراً بعد رحيل بيتر. في اليوم التالي بالضبط، وصل طرد من الهند من ابنها المسكين. لقد كان شالاً

هندياً أبيضَ ناعماً كبيراً، له حوافّ صغيرة ضيقة حوله كله، بالضبط ما كان سيعجب أمي.

«اعتقدنا أنه من الممكن أن يثير اهتمام والدي، ذلك أنه كان قد أمضى الليل كله جالساً معها، يدها في يده. لذا أدخلته ديبورا إليه ورسالة بيتر إليها، وكل شيء معها. في البداية لم يُعِر الأمر اهتماماً، فحاولنا التحدث حديثاً بسيطاً بشأن الشال، وفتحناه وأبدينا إعجابنا به. ثمّ نهض فجأة وتكلم: 'ينبغي أن تُدفن فيه' قال ذلك وأضاف، 'ينبغي أن يحظى بيتر بتلك المواساة. ومن المؤكد أنه كان سيعجبها'.

«حسناً، ربما كان ذلك لم يكن صائباً، ولكن ماذا يمكننا أن نفعل أو نقول؟ فالمرء يترك للأشخاص المفجوعين حرية التصرف حسب الطريقة التي يرونها مناسبة. أخذه وتحسسه: 'إنه بالضبط الشال الذي تمنت الحصول عليه عندما تزوجت، ولم تُعطها أمُّها إياه. لم أعرف إلا فيما بعد، وإلا لكانت قد حصلت عليه، كان يُفترض أن تحصل عليه. ولكنها سوف تحصل عليه الآن'.

«بدت أمي جميلة جداً في موتها! لقد كانت دائماً جميلة جداً، وبدت الآن بهية وباهتة وناعمة مثل الشمع وشابَّة. بل بدت أصغر من ديبورا التي وقفت ترتعد وترتعش بالقرب منها. زيَّنَّاها بطيات القماش الرقيقة الطويلة. استلقت مبتسمة، كما لو كانت مسرورة. وجاء الناس، جاء أهل كرانفورد كلهم، يستأذنون لرؤيتها، ذلك أنهم كانوا يحبونها حباً جماً، كما هو متوقع. وجلبت النساء الريفيات باقات الزهور، وجلبت زوجة كلير العجوز بعض أزهار البنفسج البيضاء وتوسّلتْ أن توضع على صدرها.

« في يوم جنازة أمي، قالت لي ديبورا إنها لن تتزوج وتترك والدي أبداً ولو تقدم لخطبتها مائة شخص. لم يكُن تقدُّم مثل ذلك العدد لخطبتها أمراً متوقعاً جداً، فأنا لا أعرف أنّ أحداً تقدم إلى خطبتها. ولكن قول ذلك لا يُقلل من التقدير الذي تستحقه، فقد كانت، بالنسبة إلى أبي، ابنة لا مثيل لها على الإطلاق. كانت عيناه قد ضعفتا، فكانت تقرأ له كتاباً تلو الآخر، وتكتب وتنسخ، وكانت دائماً في خدمته في عمل الأبرشية. كانت قادرة على القيام بقدر أكبر كثيراً مما كانت أمي قادرة على القيام به، حتى إنها قامت ذات مرة بكتابة رسالة إلى الأسقف نيابة عن والدي. ولكنه كان يفتقد أمي بشدة. وقد لاحظ ذلك كل رعايا الأبرشية. ليس لأنه كان أقل نشاطاً، بل أعتقدُ أنه كان أكثر نشاطاً وأكثر صبراً في مساعدة كل شخص. فعلتُ كل ما في وسعي لكي يكون لديبورا مطلق الحرية كي تكون معه، فقد كنتُ أعرف أنني لم أكن قادرة على فعل شيء يُذكر، وأن أفضل عمل لي في هذا العالم كان القيام بهدوء بأعمال صغيرة مختلفة، وأن أجعل الآخرين بلا ارتباطات. إلا أن والدي كان قد أصبح رجلاً مختلفاً».

قلتُ، «هل حدث أن عاد السيد بيتر إلى المنزل؟»

قالت، «نعم، مرة واحدة. عاد إلى المنزل يحمل رتبة ملازم. لم يحصل على رتبة أدميرال. وكان هو ووالدي صديقين حميمين! أخذه والدي إلى كل منزل من منازل أبناء الأبرشية، لقد كان فخوراً جداً به. ولم يخرج قطُّ دون الاستناد إلى ذراع بيتر. كانت ديبورا تبتسم (لا أعتقد أننا ضحكنا مرة أخرى قطُّ بعد وفاة أمي)، وتقول إنها كانت في وضع صعب تماماً، ولكنّ والدي كان يريدها دائماً عندما كانت

هناك رسالة تحتاج إلى كتابة أو عندما كان بحاجة إلى من يقرأ له، أو إلى أي أمر ينبغي له تسويته».

قلتُ بعد توقف، «وماذا حدث بعد ذلك؟»

قالت، «ثمّ ذهب بيتر إلى البحر مرة أخرى. وتوفي والدي قبل مرور وقت طويل، مبارِكاً كلتينا، وشكر ديبورا على كل ما فعلتْه من أجله. وتغيرت ظروفنا، بلا ريب، فبدلاً من العيش في منزل القسيس مع ثلاث خادمات ورجل، تعين علينا أن ننتقل إلى هذا المنزل الصغير، ونكتفي بخادمة واحدة تقوم بجميع الأعمال. ولكن، كما كانت ديبورا تقول، عشنا دائماً حياة متعلقة بمظاهر الحياة الأرستقراطية، حتى عندما كانت ظروفنا تُجبرنا على البساطة. ديبورا المسكينة!»

سألتُ، «وأين السيد بيتر؟»

«أوه، كانت هناك حربٌ كبرى في الهند -نسيت ماذا أسموها- ولم نسمع قطّ بأخبار عن بيتر منذ ذلك الحين. أنا نفسي أعتقدُ أنه ميت. ويُزعجني في بعض الأحيان أننا لم نلبس ثوب الحداد عليه. من ناحية أخرى، عندما أجلس وحدي، ويخيم السكون على كل المنزل، أتصور أنني أسمع خطواته قادمة في الشارع، فيبدأ قلبي يدق ويخفق. ولكن الصوت يتجاوزنا دائماً، ولا يأتي بيتر مطلقاً.

«هل هذه مارثا قد عادت؟ لا! سوف أذهب يا عزيزتي، أستطيع دائماً أن أجد طريقي في الظلام، كما تعلمين. كما أن نسمة هواء عليل عند الباب سوف يكون لها أثر جيد على رأسي، فهو يؤلمني إلى حدّ ما».

وهكذا ابتعدتْ بصوت طقطقة. أشعلتُ شمعة لكي أعطي الغرفة مظهراً مُبهجاً عند عودتها.

سألتُ، «هل كانت مارثا؟»

«نعم، وأنا غير مرتاحة إلى حد ما، فقد سمعت صوتاً غريباً بالضبط عندما كنتُ أفتح الباب».

سألتُ، «أين؟» ذلك أن عينيها كانتا مستديرتين من الخوف.

«في الشارع.. مباشرة في الخارج.. بدا مثل» ..

قلتُ، حيث إنها ترددت قليلاً، «حديث؟»

«لا! تقبيل».



7

زيارة

ذات صباح، عندما كنتُ والآنسة ماتي جالستين نقوم بعملنا- كان الوقت قبل الساعة الثانية عشرة، ولم تكن الآنسة ماتي قد بدَّلت القبعة ذات الأشرطة الصفراء التي كانت أفضل قبعات الآنسة جينكينز، والتي كانت الآنسة ماتي ترتديها الآن عندما تكون بمفردها، وترتدي تلك التي صُنِعت تقليداً لقبعة السيدة جاميسون في جميع الأوقات التي كانت تتوقع فيها أن يأتي أحد لزيارتها -جاءت مارثا، وسألت ما إذا كان من الممكن أن تأتي الآنسة بيتي باركر لكي تتحدث مع سيدتها. وافقت الآنسة ماتي، واختفت بسرعة لكي تبدل القبعة ذات الأشرطة الصفراء في أثناء صعود الآنسة باركر إلى الطابق العلوي. ولكن، نظراً إلى أنها نسيت نظارتها، وكانت مرتبكة إلى حد ما من الوقت غير العادي للزيارة، فإنني لم أتفاجأ لرؤيتها تعود مرتدية قبعة فوق الأخرى. كانت هي نفسها غير واعية مُطلقاً لذلك، ونظرتْ إلينا برضاً لطيف. كما أنني لا أعتقد أن الآنسة باركر قد لحظتها. لأنه، بصرف النظر عن الحيثية البسيطة في أنها لم تعد شابة كما كانت، فقد كانت منشغلة كثيراً جداً بمهمتها، التي قامت بها هي نفسها بتواضع مُرهِق، نَفّسَتْ عنه باعتذارات متواصلة.

كانت الآنسة بيتي باركر ابنة رجل الدين العجوز، في كرانفورد، الذي تولّى منصبه في عهد السيد جينكينز. كانت هي وأختها في وضعين جيدين بوصفهما خادمتين، وادّخرتا مالاً بما في الكفاية لتأسيس متجر قبعات نسائية كان قد حظي بتشجيع من نساء الحي. على سبيل المثال، كانت السيدة آرلي تُعطي الآنستين باركر أحياناً باترون قبعة قديمة لها، فتقومان بنسخه فوراً وتوزيعه بين النخبة في كرانفورد. أقول النخبة، ذلك أن الآنستين باركر كانتا قد فهمتا طبيعة المكان، وكانتا تتباهيان «بصلاتهما الأرستقراطية». وما كانتا لتبيعا قبعاتهما وشرائطهما لأي شخص دون نسب شريف. وكثيراً ما كانت زوجة مُزارع، أو ابنة مُزارع، تنصرف غاضبة من متجر قبعات الآنستين باركر الانتقائي، وتذهب بدلاً من ذلك إلى المتجر العام، حيث مكَّنت أرباح الصابون البني والسكر الرطب المالك من الذهاب مباشرة إلى باريس أولاً، إلى أن اكتشف أن زبائنه وطنيّين وإنجليزاً نموذجيون جداً إلى درجة لا تسمح لهم، على حدّ قوله، بارتداء ملابس فرنسية. ثمّ ذهب إلى لندن حيث كان يقول لزبوناته إن الملكة أديلايد ظهرت هناك، في الأسبوع السابق بالضبط، مرتدية قبعة مشابهة تماماً للقبعة التي عرضها عليهن، مزركشة بأشرطة صفراء وزرقاء، وإن الملك ويليام أطرى جمال ما ترتديه على رأسها.

وازدهر عمل الآنستين باركر على الرغم من أنهما اقتصرتا على الحقيقة، ولم توافقا على البيع لعملاء متنوعين. لقد كانتا إنسانتين طيبتين منكِرتين لذاتيهما. وفي كثير من الأحيان، رأيتُ الكبرى منهما (تلك التي كانت خادمة السيدة جاميسون) تخرج حاملة طعاماً شهياً لشخص فقير. ولكنهما قلدتا المجتمع الأعلى مستوى منهما في «ألّا

يكون لهما أي صلة» مع الطبقة الأدنى مباشرة من طبقتهما. وعندما ماتت الآنسة باركر، تبيّن أن دخلهما كان كبيراً إلى درجة تبرر للآنسة بيتي إغلاق متجرها والتقاعد عن العمل. وحصلتْ أيضاً (كما أظن أنني ذكرتُ سابقاً) على بقرتها. وتلك علامة تجعل المرء جديراً بالاحترام في كرانفورد، وتكاد تكون علامة واضحة مماثلة للحصول على عربة خفيفة عند بعض الناس. كانت ملابسها أفضل من ملابس أية سيدة في كرانفورد. ولم نكن نستغرب ذلك حيث إنه كان مفهوماً ضمناً أنها كانت ترتدي جميع القلنسوات والقبعات والأوشحة المُبْهِرة التي كانت في السابق تُشكل مخزونها من التجارة. لقد كانت قد مرت خمس سنوات أو ستّ سنوات على تخليها عن متجرها، لذا كانت ملابسها ستعتبر قديمة الطراز في أي مكان آخر غير كرانفورد.

والآن كانت الآنسة بيتي باركر قد جاءت في زيارة قصيرة لكي تدعو الآنسة ماتي إلى حفلة شاي في منزلها يوم الثلاثاء القادم. كما دعتني دعوة مرتجلة، حيث صادف أنني كنت زائرة، على الرغم من أنه كان باستطاعتي رؤية بعض الخوف، خشية أن يكون والدي، الذي رحل للعيش في مدينة درمبل، قد انخرط في «تجارة القطن البشعة»، وبالتالي أنزل عائلته من طبقة «المجتمع الأرستقراطي». وقد مهدتْ لهذه الدعوة بالكثير من الاعتذارات إلى درجة أثارت فضولي. «كان افتراضها» هو أن تُعذَر. ما الذي كانت تفعله؟ كان يبدو أن افتراضها يستحوذ عليها إلى درجة أنني كنت قادرة على التفكير فقط في أنها كانت تكتب إلى الملكة أديلايد لطلب إيصال استلام غسيل الدانتيل. ولكن العمل الذي كانت تصفه كان مجرد دعوة حمَلتها إلى سيدة أختها السابقة، السيدة جاميسون. «نظراً

لوظيفتها السابقة، هل تستطيع الآنسة ماتي أن تعذر رفع الكلفة؟» آه! لا بد أنها اكتشفت تلك القبعة المزدوجة، وأنها سوف تُعدِّل غطاء رأس الآنسة ماتي. هكذا ظننتُ. ولكن لا! بل كان ببساطة لتوجيه دعوتها إلى الآنسة ماتي وإليّ. عبّرت الآنسة ماتي عن قبولها بالانحناء، وتساءلتُ ما إذا كانت قد شعرت، في هذه الحركة المؤدبة، بالوزن غير العادي وبالارتفاع الاستثنائي لغطاء رأسها. ولكنني لا أظن أنها شعرت، ذلك أنها استعادت توازنها، وواصلت التحدث مع الآنسة بيتي بطريقة لطيفة بشيء من التعالي، مختلفة تماماً عن الطريقة غير المستقرة التي كانت ستتعامل بها لو كان لديها شك في مدى غرابة مظهرها. سألت الآنسةُ ماتي، «هل السيدة جاميسون قادمة، أعتقد أنك قُلتِ ذلك؟»

«نعم. قالت السيدة جاميسون بلطف كبير وبتواضع إنها ستكون سعيدة بالحضور. وقد اشترطتْ شرطاً صغيراً، وهو أن تُحضر كارلو، وأخبرتُها بأنه إذا كانت لديّ نقطة ضعف، فهي حبي للكلاب».

سألت الآنسة ماتي، التي كانت تفكر في مجموعة خياراتها التي لن يكون فيها كارلو متاحاً بصفة رفيق، «والآنسة بول؟»

«سوف أطلب من الآنسة بول. لا يمكنني التفكير في الطلب منها حتى أطلب منك يا سيدتي - ابنة القسيس، يا سيدتي. صدقيني إنني لا أنسى أن منصب والدي كان أدنى من منصب والدك».

«والسيدة فورستر، من غير ريب؟»

«والسيدة فورستر. فكرتُ، في الواقع، في أن أذهب إليها قبل الذهاب إلى الآنسة بول. على الرغم من أن ظروفها تغيرت، يا سيدتي، فقد وُلِدَت في تيريل، ولا يمكننا أبداً أن ننسى مصاهرتها لأسرة بيغز، من بيغلو هول».

كانت الآنسة ماتي مُهتمة أكثر بالتفصيل البسيط المتعلق بكونها جيدة جداً في لعب الشدة.

«السيدة فيتز آدم .. على ما أظن» ..

«لا يا سيدتي. ينبغي أن أضع خطاً في مكان ما. أعتقد أن السيدة جاميسون ليس لديها رغبة في مقابلة السيدة فيتز آدم. مع كل الاحترام الذي أكنّه للسيدة فيتز آدم، لكن لا يمكنني التفكير في أنها مؤهلة لمجتمع يضم سيدات مثل السيدة جاميسون والآنسة ماتيلدا جينكينز».

انحنت الآنسة بيتي باركر للآنسة ماتي، وزمّت شفتيها. نظرتْ إليَّ برفعة غير مباشرة، ولسان حالها يقول، على الرغم من أنها بائعة قبعات متقاعدة، إلا أنها ليست ديمقراطية، وتفهم التفاوت في الطبقات الاجتماعية.

«هل تسمحين لي أن أرجوكِ الحضورَ إلى مسكني الصغير، قريباً من الساعة السادسة والنصف قدر الإمكان يا آنسة ماتيلدا؟ السيدة جاميسون تتناول غداءها في الساعة الخامسة، ولكنها وعدت بكل كرم ألّا تؤخر زيارتها أكثر من ذلك الوقت - السادسة والنصف». ثم استأذنت الآنسة بيتي بيكر بالانصراف مع الانحناء بأدب جمّ.

توقعتُ زيارة من الآنسة بول بعد ظهر ذلك اليوم، فقد كانت تقوم عادة بزيارة قصيرة إلى الآنسة ماتيلدا بعد أي حدث، أو في الواقع قبل أي حدث وشيك، لمناقشته معها.

«أخبرتني الآنسة بيتي بأنه سيكون لديها مجموعة صغيرة مختارة ومنتقاة». قالت الآنسة بول ذلك في أثناء قيامها، هي والآنسة ماتي بتبادل الآراء.

«نعم، لقد قالت ذلك. لن تدعو أيضاً السيدة فيتز آدم».

كانت السيدة فيتز آدم الأخت الأرملة لجرّاح كرانفورد، الذي ذكرْتُه من قبل. كان والداهما مُزارعين محترمين، راضيين بمنزلتهما الاجتماعية. وكان اسم هؤلاء الناس الطيبين هو هوغينز. وكان السيد هوغينز طبيب كرانفورد الآن. لم نحب الاسم واعتبرناه فظّاً. ولكن، كما قالت الآنسة جينكينز، لو غيَّره إلى بيغينز فلن يكون أفضل بكثير. حاولنا أن نكتشف علاقة بينه وبين مركيزة إكسيتِر تلك التي كان اسمها مولي هوغينز. ولكن الرجل، غير مُبالٍ بمصلحته الشخصية، تجاهل تماماً، وأنكر، أيَّ صلة من هذا القبيل. على الرغم من أن له، كما قالت الآنسة جينكينز العزيزة، أخت تُدعى ماري، ومن الشائع جداً أن تتكرر في الأُسَر الأسماء الأولى ذاتها.

بعد فترة وجيزة من زواج الآنسة ماري هوغينز بالسيد فيتز آدم، اختفت من الحي سنوات عديدة. لم تتنقل في مجتمع كرانفورد ذي المنزلة الاجتماعية الرفيعة بما يكفي لجعل أيّ منا تهتم بمعرفة ماذا كان السيد فيتز آدم. لقد مات وانضم إلى آبائه دون أن نفكر فيه على الإطلاق. ثمّ ظهرت السيدة فيتز آدم من جديد في كرانفورد («جريئة

مثل أسد»، على حد قول الآنسة بول)، أرملة موسِرة ترتدي حريراً أسود يهسهس، بعد فترة وجيزة جداً من وفاة زوجها إلى درجة أن تعليق الآنسة جينكينز في أن «ثوب الحداد المصنوع من حرير البومبازين قد أظهر إحساساً أعمق بخسارتها» هذا التعليق كان له ما يبرره.

أتذكّر دعوة النساء اللواتي اجتمعن، لتقرير ما إذا كان يُفترض أن يقوم سكان كرانفورد القدماء شريفو الأصل بدعوة السيدة فيتز آدم أم لا. كانت قد استأجرت منزلاً كبيراً من ذلك النوع الذي كان عادة يُضفي حقاً في النبالة على ساكنه، وذلك لأنه في ما مضى، قبل سبعين سنة أو ثمانين، كانت الابنة العانس لنبيل قد سكنت فيه. لستُ متأكدة ما إذا كان لا يُعتقَد كذلك بأن السكن في هذا المنزل كان ينقل قوة فكرية غير عادية حيث إنه كان لابنة النبيل، «الليدي جين»، وهي أخت «الليدي آن» التي كانت قد تزوجت ضابطاً برتبة فريق أول في وقت الحرب الأمريكية، وكان الفريق الأول هذا قد كتب بضع مسرحيات هزلية كانت لا تزال تُعرَض على خشبات مسارح لندن ما جعلنا جميعاً، عندما كنا نرى الإعلانات بها، نرفع رؤوسنا ونشعر أن شارع دروري لين كان يُطري كرانفورد إطراءً جميلاً جداً. ومع ذلك، فلم يتم البت مُطلقاً فيما إذا كان يُفترض زيارة السيدة فيتز آدم، عندما توفيت الآنسة جينكينز العزيزة. ورحل معها أيضاً شيء من المعرفة الواضحة بقانون النبالة الصارم. وكما قالت الآنسة بول، «نظراً إلى أن معظم نساء العائلات الجيدة في كرانفورد كنّ عوانس مُسنّات أو أرامل بلا أطفال، فإننا إن لم نتساهل قليلاً ونصبح أقل استئثاراً، فلن يكون لدينا عمّا قريب أي مجتمع على الإطلاق».

وتابعت السيدة فوريستر على الجانب نفسه.

«لقد كانت تدرك دائماً أن كلمة فيتز كانت تعني شيئاً ما أرستقراطياً، فقد كان هناك فيتز روي، حيث اعتقدتْ أن بعض أطفال الملك سُمي فيتز روي. وكان هناك فيتز كلارنس، والآن كانوا هم أطفال الملك الطيب المحبوب ويليام الرابع. فيتز آدم! لقد كان اسماً جميلاً، واعتقدتْ أنه من المحتمل جداً أن يعني 'طفل آدم'. لا أحد يجرؤ على أن يُدعى فيتز دون أن يكون منحدراً من سلالة عريقة، إذ إنه كانت هناك أهمية كبيرة في الاسم. لقد كان لديها ابن عم يهجئ اسمه بحرفي ففـ صغيرين - ففولكس - وكان دائماً ينظر إلى الأحرف الكبيرة نظرة إزدراء، ويقول إنها تلائم الأسر الناشئة مؤخراً. لقد كانت تخشى أن يتوفى عازباً حيث إنه كان متشدداً جداً في اختيار زوجة له. وعندما التقى السيدة ففارينغدون، عند مورد مياه، أعجِبَ بها فوراً، وقد كانت امرأة جميلة نبيلة جداً - كانت أرملة لديها ثروة كبيرة جداً، وقد تزوجها 'ابن عمي'، السيد ففولكس، وكل ذلك فقط بسبب حرفي ففـ الصغيرين في اسمها».

لم تكن هناك أية فرصة للسيدة فيتز آدم للقاء أي شخص يحمل لقب سيد فيتز في كرانفورد، لذا من غير الممكن أن يكون ذلك هو دافعها إلى الاستقرار هناك. واعتقدت الآنسة ماتي أنه من الممكن أن يكون سبب بقائها هو الأمل في قبولها في مجتمع المكان، الأمر الذي يعدّ بالتاكيد ارتقاءً مستساغاً جداً للآنسة هوغينز سابقاً. وإذا كان هذا هو أملها، فسيكون تخييب أملها أمراً قاسياً.

لذا قام الجميع بزيارة السيدة فيتز آدم - الجميع باستثناء السيدة جاميسون، التي كانت تُظهر إلى أي مدى كانت جديرة بالاحترام من خلال عدم رؤية السيدة فيتز آدم عندما كانتا تجتمعان

في حفلات كرانفورد. لم يكن يتواجد في الغرفة سوى ثماني نساء أو عشر، وكانت السيدة فيتز آدم الأضخم من بينهن جميعاً، وكانت دائماً تقف عندما تدخل السيدة جاميسون، وتنحني لها انحناءة منخفضة كثيراً كلما استدارت في اتجاهها - منخفضة كثيراً، في الواقع، إلى درجة أنني أظن أنه لا بد أن تكون السيدة جاميسون قد نظرت إلى الجدار من فوقها، ذلك أنها لم تُحرك قطُّ أي عضلة من وجهها أكثر مما لو أنها كانت لا تراها. ومع ذلك ثابرت السيدة فيتز آدم على ذلك. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت أمسيات الربيع تُصبح بهيجة وطويلة عندما تلتقي ثلاث نساء أو أربع بقبعات الكلاش عند باب منزل الآنسة باركر. هل تعرف ما هو الكلاش؟ إنه غطاء يُرتدى فوق القبعات، يشبه إلى حد ما غطاء العربة القابل للطي، لكنه يكون أحياناً كبيراً بالدرجة نفسها تماماً. وقد أعطى هذا النوع من عتاد الرأس انطباعاً فظيعاً دائماً للأطفال في كرانفورد، والآن كان هناك بضعة أطفال قد تركوا لعبهم في الشارع الصغير المشمس، وتجمعوا مبهوتين في صمت حول الآنسة بول والآنسة ماتي، وحولي أنا نفسي. وكنا صامتات نحن أيضاً، بحيث نستطيع سماع همسات مكبوتة عالية داخل منزل الآنسة باركر: «انتظري، بيغي! انتظري حتى أكون قد ركضت إلى الطابق العلوي وغسلتُ يديّ. عندما أسعل، افتحي الباب، لن يستغرقني ذلك دقيقة».

وبالفعل، لم تمر دقيقة قبل سماعنا ضوضاء، ما بين صوت عطس وصوت غراب، فُتح على أثرها الباب فجأة. وقفت خلفه خادمة ذات عينين واسعتين مذعورة تماماً من مجموعة الزائرات

الكريمات مرتديات الكلاشات، اللواتي دخلن دون النطق بأية كلمة. ثم استعادت حضور ذهنها بما يكفي لترشدنا إلى داخل غرفة صغيرة، كانت هي المتجر، ولكنها تحولت إلى غرفة تغيير الملابس. في تلك الغرفة، نزعنا دبابيسنا ونفضنا أنفسنا، وحولنا ملامحنا أمام المرآة إلى وجوه زائرات لطيفات دمثات. وبعدئذ في انحناءة إلى الخلف مع قول، «تفضلي يا سيدتي»، أفسحنا للسيدة فوريستر لتتقدم وتصعد على الدرج الضيق الذي يقود إلى غرفة استقبال الآنسة باركر. كانت جالسة هناك بفخامة كما لو أننا لم نسمع قطُّ تلك السعلة ذات الصوت الغريب، التي لا بد أن حنجرتها كانت ما تزال تؤلمها وجافة حتى تلك اللحظة. كانت السيدة فوريستر كيّسة ولطيفة ورَثَّة الملبس، وأُرشِدَت فوراً إلى مقعد الشرف الثاني - مقعد مهيأ بشكل يُشبه إلى حد ما مقعد الأمير آلبرت بجانب كرسي الملكة - كان جيداً، ولكنه ليس جيداً جداً. وكان المكانُ الأكثرُ وجاهة محجوزاً، بلا ريب، من أجل فخامة السيدة جاميسون، التي ما لبثت أن جاءت تلهث وهي تصعد الدرج، وكان كارلو يندفع حولها في أثناء تقدمها، كما لو كان يقصد طرحها أرضاً.

والآن أصبحت الآنسة بيتي باركر امرأة فخوراً وسعيدة! حركت الحطب في النار، وأغلقت الباب وجلست أقرب ما يمكن منه على حافة كرسيها تماماً. وعندما دخلت بيغي، تترنح من ثقل صينية الشاي، لاحظتُ أن الآنسة باركر كانت خائفة جداً خشية ألا تحافظ بيغي على مسافة كافية. كانت في كل تعاملاتها اليومية مع سيدتها تتخطى الرسميات إلى حد كبير، وأرادت بيغي الآن أن تُفضي إليها ببعض الأسرار الصغيرة التي كانت الآنسة باركر تتوق إلى سماعها،

لكنها اعتقدت أن واجبها بوصفها سيدةً يتطلب منها أن تكبح توقها. لذا رفضت جميع تعليقات بيغي الجانبية وإشاراتها. ولكنها ردت على ما كان يُقال ببعض الأجوبة التي لم تكن في محلها على الإطلاق. وفي نهاية المطاف، راودتها فكرة ذكية، فقالت: «المسكين كارلو اللطيف! لقد نسيته. تعال معي إلى الطابق السفلي أيها الكلب الصغير المسكين، ويجب أن يحصل على شايه، لا بد أن يحصل عليه!»

عادت بعد دقائق قليلة، لطيفة وأنيسة كما كانت من قبل. ولكنني أعتقد أنها نسيت أن تُعطي «الكلب الصغير المسكين» شيئاً يأكله، فقد كان يلتهم قطع الكعك التي يحصل عليها صدفة بنهم كبير. لقد كانت صينية الشاي مُحمّلة بوفرة - كنتُ مسرورة لرؤيتها، فقد كنتُ جائعة جداً. ولكنني كنتُ خائفة أن تفكر النسوة الحاضرات أنها كانت مُكدّسة بشكل مبتذل. أعرف أنهن كنّ سيفعلن ذلك في منازلهن، ولكن بطريقة ما اختفت الأكوام هنا، ورأيت السيدة جاميسون تأكل الكعكة البزرية ببطء وحذر، كما كانت تفعل كل شيء. وقد استغربتُ إلى حد ما، ذلك أنني أعرف أنها قالت لنا، في حفلتها الأخيرة، إنها لم تُعِدَّها قَطّ في منزلها، فقد كانت تُذكِّرها بالصابون المُعطَّر. كانت تُقدم إلينا دائماً بسكويت سافوي. من ناحية أخرى، كانت السيدة جاميسون متساهلة بكرم مع حاجة الآنسة باركر إلى معرفة أعراف الحياة الراقية. ولكي تحافظ على مشاعرها، أكلت ثلاث قطع كبيرة من الكعكة البزرية، مع ملامح وجه تعبر عن اجترار هادئ، لا يختلف كثيراً عن تعابير البقرة.

بعد الشاي، كان هناك قليل من التردد والارتباك. كان عددنا ست نساء. وكان بإمكان أربع منهن أن يلعبن حسب الأسبقية،

وبالنسبة إلى الاثنتين الأخريين فكان يمكن لعب الكريبج. ولكن كنّ جميعهن توّاقات إلى اللعب في «المجموعة»، جميعهن باستثنائي أنا نفسي (ذلك أنني كنت خائفة إلى حد ما من نساء كرانفورد في لعب الشدة، فقد كان لعب الشدة هو العمل الأكثر جدية الذي ينخرطن فيه). وحتى الآنسة باركر التي كانت تُصرح أنها لا تعرف الفرق بين مانيلليه وسباديلله، كان من الواضح أنها تتوق إلى المشاركة. ولكن سرعان ما وضع حدّاً لهذه المُعضلة صوتٌ من نوع غريب. إذا كان يُفترض لابنة بارونٍ أن تشخر في أي وقت، لكان من الممكن أن أقول إن السيدة جاميسون قد فعلت ذلك، حيث إن حرارة الغرفة كانت قد غلبتها، علاوة على أنها تميل إلى الغفو بطبيعتها، فقد كان إغراء الكرسي المريح ذي الذراعين شديداً أكثر من اللزوم بالنسبة إليها، وكانت السيدة جاميسون تحني رأسها. فتحت عينيها بضع مرات بجهد، وابتسمت لنا بلطف، لكن بلا وعي. ولكن بعد قليل، لم يكن حتى حبها للإحسان مساوياً لهذا الإرهاق، فغطت في نوم عميق.

«إنه مصدر بهجة كبيرة بالنسبة إليّ»، همست الآنسة باركر بذلك، عند منضدة لعب الشدة، لخصومها الثلاث اللواتي كانت 'تضيّق عليهن' بلا رحمة - «إنه مبهجٌ جداً في الواقع، رؤية كيف تشعر السيدة جاميسون براحة تامة في منزلي الصغير. ما كان بإمكانها أن تجاملني أكثر من ذلك».

زودتني الآنسة باركر ببعض الآثار الأدبية على شكل بضعة كتب أزياء مجلدة بشكل رائع، مطبوعة منذ حوالى عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة، ثم وضعت منضدة صغيرة وشمعة لاستخدامي الخاص، وعلقت بأنها تعرف أن الشباب يُحبون النظر إلى الصور.

كان كارلو مستلقياً ويشخر، ثم استيقظ واندفع فجأة عند قدمي سيدته. هو أيضاً كان مرتاحاً تماماً كما لو كان في منزله.

كانت منضدة لعب الشدة مشهداً مفعماً بالحيوية تجدر مشاهدته. أربعة رؤوس نساء، بقبعات تهتز بشكل غير مستقر، جميعها تكاد تلتقي فوق منتصف المنضدة في توقهنّ إلى الهمس بسرعة كافية وبصوت مرتفع بما يكفي: وبين الفينة والأخرى كان يأتي صوت الآنسة باركر «صه أيتها السيدات! من فضلكن، صه! السيدة جاميسون نائمة».

كان من الصعوبة بمكان أن تسلك طريقاً وسطاً بين صَمَم السيدة فوريستر ونعاس السيدة جاميسون. ولكن الآنسة باركر تدبرت أمر مهمتها الشاقة بيسر، حيث كانت تكرر الهمس للسيدة فوريستر، وهي تغيّر ملامح وجهها بشكل كبير لكي تُظهر ما قيل بحركات من شفتيها. ثم ابتسمت لنا جميعنا، وهمست مُحدّثة نفسها، «مبهج جداً، في الواقع. أتمنى لو أن أختي المسكينة بقيت على قيد الحياة لكي ترى هذا اليوم».

في هذه اللحظة، فُتِح الباب على مصراعيه. استيقظ كارلو فجأة ووقف على أقدامه مع نباح مفاجئ بصوت مرتفع، فاستيقظت السيدة جاميسون، أو ربما لم تكن نائمة، حيث إنها قالت مباشرة تقريباً: كانت الغرفة مُضاءة جداً فسرّها إبقاء عينيها مغلقتين، ولكنها كانت تُصغي باهتمام كبير إلى كل أحاديثنا المسلية واللطيفة. دخلت بيغي مرة أخرى، متوردة مع شعور بالأهمية. صينية أخرى! فكرتُ، «أوه، تعلق بمظاهر الأرستقراطية! هل أستطيع تحمل هذه الصدمة الأخيرة؟» لأن الآنسة باركر طلبت (لا، لا أشك في أنها طلبت، بل كانت مستعدة، على الرغم من أنها قالت، «آه يا بيغي، ماذا أحضرت

لنا؟» ونظرت مندهشة بسرور إلى الطيبات غير المتوقعة) أشياء طيبة متنوعة جداً للعشاء - محارات صدفية، كركند مطهوّ في قدر، هلام، طبق يُدعى «كيوبيدات صغيرة» (وهو طبق كان يحظى بشعبية كبيرة عند نساء كرانفورد، على الرغم من أنه مُكلف أكثر من اللازم ليُقدّم، باستثناء في المناسبات الرسمية والمهمّة - كنتُ سأطلق عليه اسم معكرونة مُغمسة بالبراندي لو لم أكن أعرف اسمه التقليدي الأكثر رقيّاً). باختصار، كان من الواضح أنها كانت تُقدم إلينا وليمة بكل ما لذّ وطاب، وفكرنا أنه من الأفضل أن نستسلم بلطف، حتى على حساب تعلقنا بمظاهر الحياة الأرستقراطية - فالأرستقراطيون لا يتناولون وجبات العشاء بصورة عامة، ولكنهم، مثل معظم الذين لا يتناولون وجبة العشاء، كانوا يشعرون، بوضوح، بالجوع في جميع المناسبات الخاصة.

أعتقد أن الآنسة باركر كانت قد تعرّفت إلى المشروب الذي يسمونه براندي الكرز. لم تَرَ أيّ منا قطُّ شيئاً كهذا، فانكمشنا قليلاً إلى الخلف عندما قدمته إلينا - «قليل فقط، كأس صغيرة، أيتها السيدات. بعد المحار والكركند، فالمحار أحياناً، كما تعلمون، لا يُعدّ صحياً جداً». هززنا رؤوسنا جميعنا مثل حبات أنثوية من فاكهة اليوسفي. ولكن، أخيراً، أكرهت السيدة جاميسون نفسها على القبول برضاً، وحذونا نحن حذوها. لم يكن غير مستساغ إلى حد كبير، على الرغم من أنه كان ساخناً جداً وقوياً جداً إلى درجة أننا اعتقدنا أننا كنا مُلزمات بتقديم دليل يدلّ على أننا لم نكن معتادات على مثل هذه الأشياء من خلال السعال بشكل فظيع - مشابه تقريباً بشكل غريب لما كانت الآنسة باركر قد فعلت قبل أن تسمح لنا بيغي بالدخول.

قالت الآنسة بول في أثناء وضعها كأسها فارغة، «إنه قوي جداً. أعتقد أن هناك روحاً في داخله».

قالت الآنسة باركر، «قطرة صغيرة فحسب - كل ما هو ضروري لحفظها. أنتن تعلمن أننا نضع بهارات البراندي على أطعمتنا المحفوظة لحفظها. أنا نفسي كثيراً ما أشعر بثمالة من أكل كعكة الخوخ».

أتساءل عما إذا كانت كعكة الخوخ ستسعد قلب السيدة جاميسون كما فعل براندي الكرز. ولكنها أخبرتنا بحدث قادم لم تتحدث به قطّ حتى تلك اللحظة.

«سوف تأتي سلفتي، الليدي غلينماير، للإقامة معي».

كان هناك ردّ بصوت واحد «حقاً!» ثم كان هناك صمت، وبسرعة استعرضت كل واحدة خزانة ثيابها من حيث ملاءمتها للظهور في حضرة أرملة بارونٍ. ذلك أنه كانت تقام دائماً، بطبيعة الحال، سلسلة من الحفلات الصغيرة في كرانفورد عند وصول زائرة إلى أي منزل من منازل صديقاتنا، وقد شعرنا بسعادة غامرة لهذه المناسبة.

وقبل مرور وقت طويل على هذا، تم إشعار الخادمات وحملة الفوانيس. وكان لدى السيدة جاميسون الكرسيّ الحمّال، الذي حُشِر في ردهة الآنسة باركر الضيقة ببعض الصعوبة، و«أغلق الطريق» تماماً. وقد تطلب الأمر أن يستخدم حاملا الكرسيّ المُسِنّان بعض المهارات في المناورة (صانعا الأحذية في النهار، ولكنهما عندما استُدعيا لحمل الكرسيّ الحمّال كانا يرتديان بزّتي علف خيل قديمة غريبة - معطفان

طويلان ضخمان، مع قبعات صغيرة، من نفس زمن الكرسيّ الحمّال، ومشابهة لملابس هذه الطبقة في صُوَر الرسام الإنكليزي هوغارث)، لكي يدفعاه تدريجياً إلى الأمام، وإلى الخلف، ويحاولان مرة أخرى، ولينجحا في نهاية المطاف بالخروج مع حمولتهما من الباب الأمامي لمنزل الآنسة باركر. ثم سمعنا أصوات أقدامهما الخفيفة السريعة على طول الشارع الصغير الهادئ في أثناء ارتدائنا لقبعاتنا الكلاش ووَضْعِنا الدبابيسَ على ثيابنا. وكانت الآنسة باركر تحوم حولنا بعروض للمساعدة، التي كان من الممكن أن تكون أكثر إلحاحاً، لو أنها لم تتذكر مهنتها السابقة، وتمنت أن ننساها نحن.



8

«أيتها السيدة النبيلة»

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي -بعد الساعة الثانية عشرة مباشرة- وصلت الآنسة بول إلى منزل الآنسة ماتي. وكان السبب المزعوم للزيارة القصيرة هو مهمة تافهة جداً، لكنْ من البديهي أن هناك سبباً آخر للزيارة. وأخيراً ظهر ذلك السبب.

«بالمناسبة، سوف تعتقدان أنني جاهلة جداً، ولكن، هل تعرفان أنتما، أنا محتارة كيف يُفترض أن نُخاطِب الليدي غلينماير. هل تقولون، 'يا سيدتي النبيلة، في حين يمكن أن يُقال 'يا' لأي شخص عادي؟ إنني في حيرة طوال فترة الصباح، وهل سنقول 'يا ليدي'، بدلاً من 'سيدتي؟' فأنتما عرفتما الليدي آرلي - هل تكرمتما وأخبرتماني بالطريقة الأصوب لمخاطبة النبلاء؟»

الآنسة ماتي المسكينة! خلعت نظارتها ووضعتها مرة أخرى - لكنها لم تستطع أن تتذكر كيف كانت الليدي آرلي تُخاطَب.

قالت، «لقد كان ذلك منذ زمن بعيد، يا إلهي! يا إلهي! كم أنا غبية! لا أظن أنني رأيتها أكثر من بضع مرات. أعرف أننا كنا ندعو السير بيتر، 'سير بيتر' - ولكنه كان يأتي لرؤيتنا مرات أكثر كثيراً مما

كانت تفعل الليدي آرلي. كانت ديبورا ستعرف في الحال. 'يا سيدتي' - 'سيدتي النبيلة'. إنها تبدو غريبة جداً، كما لو أنها غير طبيعية. لم أفكر في ذلك من قبل. ولكنك ذكرتها الآن، وأنا محتارة جداً».

كان واضحاً جداً أن الآنسة بول لن تحصل على قرار حكيم من الآنسة ماتي، التي كانت تزداد حيرتها في كل لحظة، وتُصبح مرتبكة أكثر، بشأن آداب المخاطبة.

قالت الآنسة بول، «حسناً، أظن أنه من الأفضل أن أذهب وأخبر السيدة فوريستر بالصعوبة الصغيرة التي نواجهها. تصبح الواحدة منّا متوترة أحياناً، ومع ذلك لا تريد أن تجعل الليدي غلينماير تعتقد أننا، في كرانفورد، جاهلات تماماً بآداب الحياة الراقية».

«وهل يمكنكِ المرور إلى هنا، يا عزيزتي الآنسة بول، عندما تعودين، أرجوك، وهل تخبرينا بالقرار الذي توصلتما إليه؟ أياً كان ما تقرران أنتِ والآنسة فوريستر فسيكون مناسباً تماماً، أنا متأكدة من ذلك. 'الليدي آرلي'، 'السير بيتر'». قالت الآنسة ماتي ذلك لنفسها، محاولة تذكر الصيغ القديمة للكلمات.

سألتُ، «من هي الليدي غلينماير؟»

«أوه، إنها أرملة السيد جاميسون - أنت تعرفين زوج السيدة جاميسون الراحل - أرملة أخيه الأكبر، كانت السيدة جاميسون الآنسة ووكر، ابنة الحاكم ووكر. 'يا سيدتي النبيلة'. يا عزيزتي، إذا وقع اختيارهما على هذه الطريقة في الحديث، فينبغي لك أن تدعيني أتدرب قليلاً عليكِ أنتِ أولاً، ذلك أنني سوف أشعر أنني غبية جداً وأنفعل من قولها أول مرة لليدي غلينماير».

شعرت الآنسة ماتي براحة كبيرة عندما جاءت السيدة جاميسون في مهمة غير مهذبة إلى حد كبير. إنني ألحظ أن الناس اللامبالين لديهم وقاحة هادئة أكثر من غيرهم، وقد جاءت السيدة جاميسون لكي تُلمح بوضوح إلى حد ما إلى أنها لا ترغب كثيراً في أن تقوم نساء كرانفورد بزيارة سلفتها. إنني أجدُ صعوبة كبيرة في قول كيف قامت بتوضيح ذلك الأمر، حيث إنني أصبحت مستاءة جداً، وغاضبة جداً، في أثناء قيامها بشرح رغباتها في مداولة بطيئة مع الآنسة ماتي. وكانت الآنسة ماتي هي نفسها ليدي حقيقية، لكنها تكاد تكون غير قادرة على فهم المشاعر التي جعلت السيدة جاميسون ترغب في أن تبدو أمام سلفتها النبيلة كما لو أنها تزور أسراً «عريقة» فحسب. بقيت الآنسة ماتي محتارة ومندهشة وقتاً طويلاً بعد أن اكتشفتُ الهدف من زيارة السيدة جاميسون.

وعندما أدركتْ الآنسة ماتي مغزى الزيارة القصيرة للسيدة الشريفة، فكان جميلاً رؤية بأي وقار هادئ تلقت التلميح الذي قُدِّم بتلك الطريقة غير المؤدبة. لم تكن مستاءة إطلاقاً، فقد كانت نفساً لطيفة جداً إلى درجة لا تسمح بذلك. كما أنها لم تكن واعية تماماً لاستنكار سلوك السيدة جاميسون. ولكنني متأكدة من أنه كان هناك شيء ما من هذا الشعور في عقلها، شعور جعلها تنتقل من هذا الموضوع إلى مواضيع أخرى بطريقة مضطربة بدرجة أقل وبأسلوب رصين أكثر من المعتاد. لقد كانت السيدة جاميسون، في الواقع، هي الأكثر اضطراباً بين الاثنتين، وكان بإمكاني ملاحظة أنها كانت مسرورة بالاستئذان بالانصراف.

بعد قليل، عادت الآنسة بول، غاضبة ومستاءة. «حسناً! من المؤكد أن السيدة جاميسون قد جاءت إلى هنا، عرفتُ من مارثا، ويتعين علينا ألا نزور الليدي غلينماير. نعم! قابلتُ السيدة جاميسون، في منتصف الطريق بين هذا المنزل ومنزل السيدة فوريستر، فأخبرتني بذلك. لقد فاجأتني كثيراً، ولم يكن لديّ شيء أقوله. أتمنى لو أنني فكرتُ في شيء عنيف ولاذع. أظن أنني سأفعل الليلة. والليدي غلينماير ليست سوى أرملة لبارونٍ اسكتلندي على الرغم من كل شيء! لقد ذهبتُ للنظر في كتاب رتب النبلاء في منزل السيدة فوريستر، لمعرفة من كانت هذه السيدة، تلك التي يجب أن تبقى تحت صندوق زجاجي: أرملة نبيلٍ اسكتلندي - لم يعمل قطُّ في مجلس اللوردات - ويمكنني القول إنه فقير جداً. وهي الابنة الخامسة لشخص ما اسمه السيد كامبل. أنت ابنة قسيس، على أي حال، وتنتمين إلى أسرة آرلي، والجميع يقولون إن السير بيتر كان من الممكن أن يكون «فيكونت آرلي»».

حاولت الآنسة ماتي تهدئة الآنسة بول، لكن دون جدوى. لقد كانت تلك المرأة في العادة لطيفة جداً ومنشرحة الصدر، لكنها كانت الآن في نوبة غضب شديدة.

وأخيراً قالت، «وقد ذهبتُ وطلبتُ قبعة جديدة في هذا الصباح، لكي أكون جاهزة تماماً»، فأفشت بذلك السرّ الذي جعل تلميح السيدة جاميسون مؤلماً بشدة. وأضافت، «سوف ترى السيدة جاميسون ما إذا كان من السهولة إحضاري لأكون رابعة في مجموعة عندما لا تكون عندها أي واحدة من قريباتها الاسكتلنديات الراقيات!»

عند خروجنا من الكنيسة، في أول يوم أحد ظهرت فيه الليدي غلينماير في كرانفورد، تكلم بعضُنا مع بعض بشكل متواصل، وأدرنا ظهورنا للسيدة جاميسون وضيفتها. إذا كان ينبغي لنا ألا نزورها، فإننا لن ننظر إليها على الرغم من أنه كان لدينا فضول شديد جداً لمعرفة كيف كان شكلها. وما أراحنا هو أننا استجوبنا مارثا بعد الظهر. لا تنتمي مارثا إلى طبقة اجتماعية يمكن أن يكون في ملاحظاتها إطراء ضمني للّيدي غلينماير، وقد استخدمت مارثا عينيها استخداماً جيداً.

«حسناً يا سيدتي! هل تعنين السيدة المرافقة للسيدة جاميسون؟ اعتقدتُ أنه ستكون لديكن رغبة أكبر في وصف ملابس السيدة سميث الشابة، كونها عروساً». (كانت السيدة سميث هي زوجة الجزار).

قالت السيدة بول، «غير معقول! كما لو أننا نهتم بأمر السيدة سميث». ولكنها صمتت عندما تابعت مارثا حديثها.

«كانت السيدة الضئيلة الجالسة قرب السيدة جاميسون ترتدي في الواقع ثوباً حريريّاً قديماً، وعباءة راعي مربعة النقش، يا سيدتي، ولديها عينان سوداوان لامعتان جداً، يا سيدتي، ووجه جميل ذو ملامح محددة بوضوح كبير، وليست صغيرة جداً، يا سيدتي، لكنني مع ذلك أعتقد أنها أصغر من السيدة جاميسون نفسها. نظرتْ نحو الأعلى ونحو الأسفل في الكنيسة مثل طير، وأمسكت تنانيرها التحتية بأطراف أصابعها عندما خرجت. كانت أسرع وأرشق ما رأيت في حياتي. سوف أقول لك، يا سيدتي، إنها تشبه السيدة ديكون، في 'كوتش آند هورسز'، أكثر من أي امرأة أخرى».

قالت الآنسة ماتي، «اصمتي يا مارثا، هذا لا يتسم بالاحترام».

«أهو كذلك يا سيدتي؟ أرجو العفو، بكل تأكيد. ولكن جيم هيرن قال ذلك أيضاً. لقد قال إن قوامها رشيق ومثير».

قالت الآنسة بول، «ليدي».

«ليدي، مثل السيدة ديكون».

مرّ يوم أحد آخر، وما زلنا نشيح بأبصارنا عن السيدة جاميسون وضيفتها، وتبادلنا التعليقات بأننا كنا قاسيات جداً، قاسيات أكثر من اللازم، تقريباً. وكانت الآنسة ماتي مضطربة بشكل واضح من أسلوبنا الساخر في الحديث.

من المحتمل أن الليدي غلينماير قد اكتشفت في هذا الوقت أن منزل السيدة جاميسون ليس منزلاً مرحاً جداً وليس منزلاً مُفعماً بالحيوية. وربما كانت السيدة جاميسون قد اكتشفت أن معظم الأسر العريقة كانت في لندن، وأن أولئك اللذين بقوا في الريف ليسوا ممتلئين بالحياة، كما كان من الممكن أن يكونوا في حال كانت الليدي غلينماير تسكن في حيّهم. الأحداث الكبرى تنشأ من أسباب صغيرة. لذا لن أتظاهر بمعرفة ما الذي دفع السيدة جاميسون إلى تغيير قرارها باستثناء نساء كرانفورد، وإرسالها إليهنّ بطاقات دعوة لحضور حفلة صغيرة في يوم الثلاثاء المقبل. وقد أحضر البطاقات السيد مولينر بنفسه، وكان دائماً يتجاهل حقيقة أن هناك باباً خلفياً لكل منزل، فكان يقرع الباب بصوت أعلى من سيدته، السيدة جاميسون. كانت لديه ثلاث رسائل حملها في سلّ كبير لكي يترك عند سيدته انطباعاً

قوياً بفكرة أن وزنها كان كبيراً، على الرغم من أنه كان من الممكن أن تدخل بسهولة في جيب صدريّته.

قررنا بهدوء، أنا والآنسة ماتي، أن نُعِدّ ارتباطاً مسبقاً في المنزل: لقد كان المساء الذي تقوم فيه الآنسة ماتي عادة بصنع ولّاعات الشموع من جميع مذكرات الأسبوع ورسائله، وكانت دائماً تُصوِّب حساباتها في أيام الإثنين، فلا يكون هناك بنس واحد مستحقٌ من الأسبوع السابق. لذا، فمن خلال ترتيب طبيعي، كان نشاط صنع ولّاعات الشموع في مساء يوم الثلاثاء، ما منحنا عذراً مقبولاً لرفض دعوة السيدة جاميسون. ولكن قبل أن يكون جوابنا قد كُتب، دخلت الآنسة بول تحمل في يدها مذكرة مفتوحة.

قالت، «إذن! آه! أرى أنكِ حصلتِ على رسالتكِ، أيضاً. أن تصل متأخراً خير من أن لا تصل أبداً. كان بإمكاني أن أُخبر الليدي غلينماير أنها ستكون مسرورة جداً من مجتمعنا قبل مرور أسبوعين».

قالت الآنسة ماتي، «نعم، لقد دُعينا إلى الذهاب مساء الثلاثاء. وربما يُفَضَّل لو تتكرمين بإحضار أشغالك واحتساء الشاي معنا في تلك الليلة. إنه وقتي المعتاد لتفحص فواتير الأسبوع الماضي ومذكراته ورسائله وصنع ولاعات الشموع منها. ولكن ذلك لا يبدو سبباً كافياً تماماً للقول إن لديّ ارتباطاً مسبقاً في المنزل، على الرغم من أنني نويت أن أجعله كافياً. والآن، إذا كنتِ ستحضُرين، فإن ضميري سيكون مرتاحاً تماماً، ومن حسن الحظ فالمذكرة لم تُكتب بعد».

رأيت ملامح الآنسة بول تتبدل في أثناء تحدُّث الآنسة ماتي.

سألتْها، «أنت لا تنوين الذهاب إذن؟»

قالت الآنسة ماتي بهدوء، «أوه، لا! وأنت لا تريدين الذهاب أيضاً، على ما أعتقد؟»

أجابت الآنسة بول، «لا أعرف». ثم قالت بنشاط إلى حدّ ما، «أجل، أعتقد أنني سأذهب». وعندما رأت أن الآنسة ماتي بدت متفاجئة، أضافت، «كما ترين، لا أرغب في أن تفكر السيدة جاميسون أن هناك أي شيء تستطيع أن تفعله أو تقوله يمكن أن يكون له أهمية بما فيه الكفاية ليُسبب إساءة. سيكون في ذلك نوع من الإذلال لأنفسنا، وذلك شيء، من جملة أمور، لن يروق لي. إذا سمحنا لها بافتراض أن ما قالته أثّر فينا أسبوعاً، لا بل عشرة أيام بعده، فسوف يُشبع ذلك غرورها أكثر من اللازم».

«حسناً! أعتقد أنه من الخطأ أن تكون مستاءً ومنزعجاً فترة طويلة بشأن أي شيء. وربما أنها، على الرغم من كل شيء، لم تقصد أن تثير سخطنا. ولكن ينبغي لي أن أقول، ما كنتُ لأجرؤ على قول الأشياء التي قالتها السيدة جاميسون بشأن عدم دعوتنا لها. أنا حقاً لا أعتقد أنني سأذهب».

«أوه، هيا! يا آنسة ماتي، ينبغي لكِ أن تذهبي. أنت تعرفين أن صديقتنا السيدة جاميسون فاترة المشاعر إلى درجة أكثر كثيراً من معظم الناس، ولا تمتلك أي قدر من الأحاسيس المرهفة التي تتمتعين بها أنتِ إلى درجة كبيرة».

قالت الآنسة ماتي ببراءة، «اعتقدتُ أنك تمتلكينها أنت، أيضاً، في ذلك اليوم الذي جاءتنا فيه السيدة جاميسون في زيارة قصيرة لكي تطلب منا ألّا نذهب».

ولكن إضافة إلى امتلاك الآنسة بول أحاسيس مرهفة، فهي تمتلك أيضاً قبعة أنيقة كانت حريصة على عرضها أمام أناس يُعجبون بها. وهكذا بدا أنها نسيت كل الكلمات الغاضبة التي نطقت بها منذ أقلّ من أسبوعين، وكانت مستعدة للعمل وفقاً للمبدأ المسيحي العظيم «اغفرْ وانسَ»، فألقت محاضرة طويلة على الآنسة ماتي العزيزة حول هذا العنوان انتهت قطعاً بالتأكيد لها أن من واجبها، كونها ابنة قسيس، شراء قبعة جديدة والذهاب إلى حفلة السيدة جاميسون. لذا «فإننا نقبل بسرور بالغ»، بدلاً من «الندم على أننا اضطررنا أن نرفض».

كان الإنفاق على الملابس في كرانفورد مُنصبّاً بشكل رئيسي على ذلك الصنف المشار إليه. وإذا كانت الرؤوس مدفونة في قبعات جديدة أنيقة، فقد كانت النساء مثل طيور النعام، ولا يكترثن لما كان يحدث لأجسادهن. أثواب قديمة، وياقات بيضاء مهيبة، عدد كبير من دبابيس الزينة، في الأعلى والأسفل وفي كل مكان (بعضها مرسوم عليها عيون كلاب، وبعضها كانت مثل إطارات صور مع أضرحة وأشجار صفصاف نافذة بعناية في الشعر من الداخل، وبعضها صور مصغرة جداً لسيدات وسادة يبتسمون بعذوبة من داخل عشّ من الموسلين المتيبّس)، ودبابيس زينة قديمة لزخرفة دائمة، وقبعات جديدة لتلائم الأزياء الدارجة - ترتدي نساء كرانفورد دائماً ملابس تتسم بأناقة محتشمة وعفيفة، كما عبّرت الآنسة باركر عن ذلك ذات مرة بشكل جميل.

بثلاث قبعات جديدة، وعدد من دبابيس الزينة أكبر مما شوهد معاً في الوقت ذاته منذ أن أصبحت كرانفورد بلدة، حضرت السيدة فوريستر والآنسة ماتي والآنسة بول في مساء الثلاثاء المشهود. لقد

أحصيتُ أنا نفسي سبعة دبابيس زينة على ثوب الآنسة بول: اثنان مثبتان بإهمال في قبعتها (كان أحدهما على شكل فراشة مصنوعة من حصى اسكتلندية، قد يعتقد صاحب الخيال الواسع أنها حشرة حقيقية)، وواحد رَبَطَ وشاحها، وواحد على ياقتها، وواحد زيّن ثوبها من الأمام، في منتصف الطريق بين حنجرتها وخصرها، وآخر زين رباط معدتها. ونسيت أين كان السابع، لكنه كان في مكان ما عليها، أنا متأكدة من ذلك.

ولكنني أتقدَّم بسرعة في وصف ثياب الزائرات. كان عليّ التحدّث بشأن المجموعة التي في طريقها إلى منزل السيدة جاميسون. كانت تلك السيدة تعيش في منزل كبير خارج البلدة، وامتد طريق، كان يعرف أنه شارع، أمام المنزل مباشرة، وكان باب المنزل يُفتح عليه دون أن تتخلل المسافة التي بينهما حديقة أو ساحة. ومهما كانت حالة الشمس، فإنها لم تسطع قطُّ على واجهة ذلك المنزل. وبالتأكيد كانت غرف المعيشة في الخلف تُطِلُّ على حديقة جميلة، وكانت النوافذ الأمامية تخص فحسب المطابخَ وغرفَ المشرفين على المنزل، وغرفَ الخزين، وقد بَلَغَنا أن السيد مولينر كان يجلس في إحداها. في الواقع، كنا ننظر شزراً، فنرى في كثير من الأحيان مؤخرة رأس مُغطى بشعر مستعار عليه بودرة شعر وتناثرت هذه البودرة فوق ياقة معطفه حتى خصره. وكان هذا الظهر المَهيب منشغلاً دائماً بقراءة صحيفة سانت جيمس المفتوحة تماماً، والتي كانت تُفسر إلى حد ما طول الوقت الذي تستغرقه الصحيفة المذكورة في الوصول إلينا، نحن المشتركات على قدم المساواة في الدفع مع السيدة جاميسون، على الرغم من أنها هي دائماً التي تقرؤها أولاً بوصفه حقاً لها نظراً

إلى أنها شريفة. ومساء الثلاثاء هذا بالذات، كان التأخير في إرسال العدد الأخير مثيراً للسخط بوجه خاص. ذلك أنه الوقت الذي كانت الآنسة بول والآنسة ماتي، وبشكل أكبر الأولى، تريدان الاطلاع علي الصحيفة لمعرفة أخبار القصر، لتكونا مستعدتين للمقابلة مع امرأتين من الطبقة الأرستقراطية. أخبرتنا الآنسة بول أنها انتهزت الفرصة تماماً، وكانت جاهزة بحلول الساعة الخامسة، لكي تكون مستعدة لقراءة صحيفة سانت جيمس في حال وصولها في آخر لحظة - صحيفة سانت جيمس ذاتها التي كان صاحب الرأس بالشعر المستعار المُغطى بالبودرة يقرؤها بهدوء ورباطة جأش في أثناء مرورنا هذا المساء بالنافذة المعهودة.

قالت الآنسة بول في همس، «يا لوقاحة الرجل! أودّ أن أسأله عمّا إذا كانت سيدته تدفع ربع مساهمتها لكي يستخدمها بشكل حصري».

نظرنا إليها بإعجاب للشجاعة في تفكيرِها، فقد كان السيد مولينر موضع هيبة عظيمة عندنا جميعنا. وبدا أنه لم ينسَ قطُّ تنازله بالقدوم والعيش في كرانفورد. لقد كانت الآنسة جينكينز، في بعض الأحيان، هي التي تتصدر مدافعةً بشجاعة عن جنسها، وتتكلم معه على قدم المساواة. ولكن حتى الآنسة جينكينز لم تكن تستطيع أن تذهب أبعد من ذلك. وفي أحسن حالاته المزاجية وأكثرها لطفاً، كان يبدو مثل ببغاء كُكاتوه عابس. لم يكن يتكلم إلا في كلمات فظة أحادية المقاطع. انتظر في الصالة على الرغم من أننا توسلنا إليه ألا ينتظر، ثمّ بدا مستاء جداً لأننا أبقيناه هناك في أثناء تجهيز أنفسنا بأيدٍ تتحرك بسرعة وترتعش لكي نظهر في جماعة.

خاطرت الآنسة بول بسرد طرفة قصيرة في أثناء صعودنا إلى الطابق العلوي، وعلى الرغم من أنها كانت موجهة لنا، إلا أن القصد منها كان إعطاء السيد مولينر قدراً طفيفاً من التسلية. ابتسمنا، لكي نبدو كما لو أننا كنا في راحة وطمأنينة، ونظرنا بتهيب ليشاركنا السيد مولينر. لم تسترخِ عضلة واحدة من ذلك الوجه الخشبي، فعبسنا فوراً.

كانت غرفة استقبال السيدة جاميسون بهيجة مع تدفق أشعة شمس المساء إليها، وكانت الأزهار متجمعة حول النافذة المربعة الواسعة. كان الأثاث أبيضَ وذهبياً، ليس من أحدث طراز، أعتقد أنهم يدعونه لويس كاتورز، كله أصداف ودوائر. لا، ليس هناك أي تقوس أو التواء حول كراسي السيدة جاميسون ومناضدها، وأرجل الكراسي والمناضد تتضاءل مع اقترابها من الأرض، وكانت مستقيمة وزواياها قائمة عند الحواف. وكانت جميع الكراسي مستندة إلى الجدران في صف واحد، باستثناء ثلاثة أو أربعةٍ كانت مرتبة على شكل حلقة حول النار. كانت ظهورها مزودة بقضبان بيضاء وبقبضات من الذهب. لم تكن القضبان ولا القبضات تدعو إلى الشعور بالارتياح. وكان هناك منضدة مطلية بورنيش أسود لامع، مخصصة للمطبوعات، موضوع عليها كتاب مقدس وكتاب رتبة النبلاء وكتاب صلوات. وكان هناك أيضاً منضدة «بيمبروك» مربعة مخصصة للفنون الجميلة، موضوع عليها مشكال وبطاقات محادثة وبطاقات أحاجي (مربوطة معاً بشريط طويل جداً من ساتانٍ بلون وردي باهت) وصندوق مطلي بتقليد ينم عن شغف بالرسومات التي تُزين مناضد الشاي. الكلب كارلو مُستلقٍ على البساط المشغول من الصوف، ونَبَحَ بفظاظة علينا عندما دخلنا. وقفت السيدة جاميسون،

مُبتسمة لنا ابتسامة ترحيب فاترة، وتنظر وراءنا نحو السيد مولينر بعجز، كما لو أنها تأمل أن يضعنا في كراسينا، فلن تتمكن من فعل ذلك مُطلقاً إذا هو لم يفعل. أظن أنه اعتقد أنه كان بإمكاننا العثور على طريقنا إلى الحلقة حول النار، التي ذكّرتني بأطلال ستونْهِنج الدائرية، لا أعرف لماذا. جاءت الليدي غلينماير لإنقاذ مُضيفتنا، فوجدنا أنفسنا، بطريقة أو بأخرى، مُستقرات بشكل لطيف في منزل السيدة جاميسون، وليس بطريقة رسمية. أما بالنسبة إلى الليدي غلينماير، التي كان لدينا وقت لننظر إليها الآن، فقد تبين أنها امرأة صغيرة بهية الطلعة في منتصف العمر، وكانت جميلة جداً في أيام شبابها، وما تزال حتى الآن جميلة جداً. رأيتُ الآنسة بول تقيِّم ثوبها في أول خمس دقائق، وصدّقتُ كلامها عندما قالت في اليوم التالي:

«عزيزتي! عشرة جنيهات كانت كافية لشراء كل غرزة كانت ترتديها، بالدانتيل وكل شيء».

كان أمراً ساراً أن نشتبه بأنه من الممكن أن تكون إحدى النبيلات فقيرة، ووفّق ذلك جزئياً بيننا وبين حقيقة أن زوجها لم ينضم إلى مجلس اللوردات قطُّ، الأمر الذي، عندما سمعنا به أول مرة، بدا كأنه يحتال علينا فيُبعدنا عن توقعاتنا بذرائع زائفة، أمر أشبه بمسألة «لورد وليس لورداً».

كنا جميعنا صامتات في البداية. كنا نفكر فيما يمكننا التحدث به، بحيث يكون سامياً بما يكفي ليثير اهتمام 'سيدتي النبيلة'. كان هناك ارتفاع في سعر السكر، ونظراً إلى أن وقت إعداد الأغذية المحفوظة كان قريباً، فتلك كانت معلومة مهمّة لجميع المشرفات على

الشؤون المنزلية، وكان من الممكن أن تكون موضوعاً طبيعياً لو لم تكن الليدي غلينماير حاضرة. ولكننا لم نكن متأكدات فيما إذا كانت النبيلة تأكل الأغذية المحفوظة، ناهيك عن معرفة كيف كانت تُعَدّ. وأخيراً بادرت الآنسة بول، التي تتمتع دائماً بقدر كبير من الشجاعة واللباقة، بالتحدث إلى الليدي غلينماير التي بدا أنها كانت مثلنا تماماً محتارة بشأن معرفة كيف تكسر الصمت.

سألتْ، «هل ذهبت يا سيدتي النبيلة إلى القصر في الآونة الأخيرة؟» ثم ألقت نظرة سريعة علينا، نصفَ خجولٍ ونصف منتصرة، كما لو كانت تقول، «انظروا مدى الحصافة التي اخترت فيها موضوعاً يلائم مقام الغريبة».

«لم أذهب قطُّ إلى هناك في حياتي». قالت الليدي غلينماير ذلك في لكنة اسكتلندية واضحة، ولكن بصوت عذب جداً. وبعد ذلك، كما لو أنها توقفت عن الكلام بشكل مفاجئ أكثر من اللازم، أضافت: «نادراً جداً ما كنا نذهب إلى لندن. في الواقع إنهما كانتا مرتين طوال حياتي الزوجية فحسب. وقبل زواجي كان لدى والدي أسرة كبيرة جداً». (الابنة الخامسة للسيد كامبل، أنا متأكدة من أن ذلك كان يدور في أذهاننا جميعاً) «أكبر مما يسمح بأخذنا جميعنا خارج المنزل في أحيان كثيرة، حتى إلى إدنبره. ربما أنتُنَّ ذهبتنّ إلى إدنبره؟» قالت ذلك مبتهجة فجأة على أمل أن تجد اهتماماً مشتركاً. لم يسبق لأي منا أن ذهبت إلى هناك، ولكن كان لدى الآنسة بول عمٌّ، كان قد أمضى ليلة هناك، وكان أمراً ممتعاً جداً.

وفي تلك الأثناء، كانت السيدة جاميسون مستغرقة في التساؤل لماذا لم يُحضِر السيد مولينر الشاي، وأخيراً خرج التساؤل ببطء من فمها.

قالت الليدي غلينهاير بنشاط، «من الأفضل أن أقرع الجرس يا عزيزتي، أليس كذلك؟»

«لا – لا أعتقد – مولينر لا يُحب أن يُستعجَل».

كنا نود أن يقدّم الشاي لنا، ذلك أننا تناولنا غداءنا في وقت أبكر بساعة من موعد غداء السيدة جاميسون. أظن أنه كان على السيد مولينر أن يُنهي قراءة صحيفة سانت جيمس قبل أن يُقرر إزعاج نفسه بشأن الشاي. تململت سيدته وتململت، واستمرت تقول: لا أستطيع تخمين لماذا لا يُحضر مولينر الشاي. لا أستطيع التفكير في ما يمكن أن يُشغِله». وأخيراً نفد صبر الليدي غلينهاير، لكنه كان نوعاً لطيفاً من نفاد الصبر على الرغم من كل شيء، فقرعت الجرس بعنف إلى حد ما، بعد أن تلقت شبه إذن بفعل ذلك من سلفتها. ظهر السيد مولينر متفاجئاً بوقار. قالت السيدة جاميسون، «أوه! قرعت الليدي غلينهاير الجرس. أعتقد أنه من أجل الشاي».

أُحضِرَ الشاي في غضون دقائق قليلة. كان الخزف الصيني رقيقاً جداً، والطبق قديماً جداً، والخبز والزبدة رقيقين جداً، وقطع السكر صغيرة جداً. لقد كان واضحاً أن السكر هو اقتصاد السيدة جاميسون المفضل. أتساءل عما إذا كانت ملاقط السكر المخرمة، الشبيهة بالمقصات، من الممكن أن تفتح نفسها فتحة واسعة بما يكفي لالتقاط قطعة بحجم عادي جيد صحيح. وعندما حاولتُ أخذ قطعتين صغيرتين جداً دفعة واحدة، بحيث لا أُكتشف بعودتي المتكررة إلى وعاء السكر، أسقط الملقط إحدى القطعتين مع صوت طقطقة صغيرة قوية، بطريقة كيدية وغير طبيعية. ولكن قبل حدوث هذا،

كنا قد تعرضنا لخيبة أمل طفيفة، فقد كان في الوعاء الفضي الصغير قشدة، وفي الوعاء الأكبر حليب، وفور دخول السيد مولينر، بدأ كارلو بالتوسل، الأمر الذي منعتنا أخلاقنا من فعله، على الرغم من أننا كنا نشعر بالجوع مثله تماماً. وقالت السيدة جاميسون إنها متأكدة من أننا سوف نعذرها إذا أعطت الشاي أولاً لكلبها البائس الأحمق كارلو. وهكذا مزجتْ ملء طبق صغير من أجله، ووضعته على الأرض لكي يلعقه. ثم أخبرتنا كم كان ذلك الرفيق الصغير العزيز ذكياً ومُدركاً. كان يعرف القشدة بشكل جيد تماماً، وكان يرفض باستمرار الشاي مع الحليب: لذا فقد تُرك الحليب لنا. إلا أننا فكرنا في صمت أننا كنا ذكيات ومدركات مثل كارلو تماماً، وشعرنا كما لو أن الأمر ازداد سوءاً عندما طُلِبَ منا أن نُعجب بالامتنان الذي ظهر من خلال هزّه ذيلَه من أجل القشدة التي كان يُفترض أن تكون لنا.

بعد الشاي، أصبحنا أقل تحفظاً ورسمية فتحدثنا بمواضيع الحياة العامة. كنا ممتنّات لليّدي غلينماير لاقتراحها تناول المزيد من الخبز والزبدة، وجعلتنا هذه الرغبة المتبادلة مستأنسات بها أفضل مما كنا سنستأنس بالحديث بشأن القصر، على الرغم من أن الآنسة بول قالت إنها كانت تأمل أن تعرف من شخص مقرَّب من القصر كيف كانت الملكة العزيزة.

بدأت الرفقة بالخبز والزبدة، وامتدت إلى لعب الورق. لعبت الليدي غلينماير بريفيرينس بمهارة مثيرة للإعجاب، وكانت خبيرة تماماً فيما يتعلق بـ الأومبر و الكَدريل. وحتى الآنسة بول نسيت تماماً قول «ماي ليدي» و «يا سيدتي النبيلة»، وقالت «باستو! يا سيدتي»،

و«لديك أص البستوني، على ما أعتقد»، قالت ذلك بهدوء كبير كما لو أننا لم نعقد قطُّ اجتماعاً لبرلمان كرانفورد من أجل مناقشة موضوع الطريقة الصحيحة لمخاطبة واحدة من النبيلات».

ودليلاً على أننا نسينا تماماً أننا في حضرة امرأة كان من الممكن أن تجلس لاحتساء الشاي مع امرأة تضع تاجاً على رأسها، بدلاً من قبعة، روت السيدة فوريستر حقيقة بسيطة لليدي غلينماير – حكاية طريفة معروفة في دائرة صديقاتها الحميمات، لكنها حكاية لم تكن السيدة جاميسون نفسها تدري بها، وهي متعلقة بدانتيل قديم ناعم، هو الأثر الوحيد الباقي من أيام أفضل، كانت الليدي غلينماير تُبدي إعجابها به على ياقة السيدة فوريستر.

قالت تلك السيدة، «نعم، من غير الممكن الحصول على مثل ذلك الدانتيل الآن لا بالحب ولا بالمال. لقد صَنَعَتْهُ راهبات في الخارج، هذا ما قالوه لي. ويقولون إنهن لا يستطعن صنعه الآن هناك. ولكن ربما يستطعن الآن بعد أن مرروا قانون التحرر الكاثوليكي. ينبغي لي ألا أستغرب، لكنني، في هذه الأثناء، أقدِّر دانتيلي كثيراً جداً. ولا أجرؤ أن أتّكل في غسله على خادمتي» (فتاة المدرسة الخيرية التي ذكرتها سابقاً، ولكن بدا أن تسميتها «خادمة»). «إنني أغسلها دائماً بنفسي. وذات مرة نجت بأعجوبة. تعرفين يا سيدتي النبيلة، بلا ريب، إن مثل هذا الدانتيل ينبغي لي ألا يُعالج بالنشا أو بالكي أبداً. بعض الناس يغسلونه بالسكر والماء، وبعضهم بالقهوة، لكي يكتسب اللون الأصفر المناسب. ولكنني حصلت على نتيجة جيدة جداً من غسله بالحليب، ما يجعله يتيبّس بما يكفي ويمنحه لوناً قشدياً جميلاً جداً. حسناً يا سيدتي، ضممته معاً (ومن روعة هذا الدانتيل البديع

أنه يحتل حيزاً صغيراً جداً عندما يكون مبتلاً)، ووضعته ليُنقع في الحليب، ثمّ، للأسف، خرجت من الغرفة. وعند عودتي، وجدت الهرة بوسي على الطاولة، تبدو مثل لص إلى حد كبير، ولكنها تبتلع شيئاً بصعوبة كبيرة، كما لو أنها على توشك أن تختنق بشيء تريد ابتلاعه ولا تستطيع. وهل كنتِ ستصدقين ذلك؟ في البداية أشفقت عليها، وقلت 'بوسي المسكينة! بوسي المسكينة!' إلى أن نظرت فجأة إلى كوب الحليب فوجدته فارغاً - نظيفاً تماماً! قلتُ، 'أيتها القطة الشقية!' وأعتقد أنني كنتُ مُستفَزَّة جداً إلى درجة أنني صفعتها، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً، بل أدى إلى مساعدة الدانتيل في النزول إلى الأسفل تماماً، مثلما يحدث عندما تصفعين طفلاً يغص بالطعام على ظهره. كان من الممكن أن أبكي. لقد كنت غاضبة جداً، لكنني كنتُ مصممة على عدم التخلي عن الدانتيل دون صراع من أجله. مهما يكن من أمر أملت ألّا يلائم الدانتيل صحتها. ولكنْ كان ذلك سيكون صعباً جداً بالنسبة إلى جوب، لو أنه رأى، كما رأيت أنا، تلك الهرة تدخل هادئة جداً وتخرخر، بعد أقل من ربع ساعة، وكأنها تتوقع أن تُمسَّد. قلتُ 'لا يا بوسي! إذا كان لديك ضمير فينبغي لك ألّا تتوقعي ذلك!' ثم خطرت لي فكرة، فقرعت الجرس لتحضر خادمتي، وأرسلتها إلى السيد هوغينز، مع تحياتي، ولتسأله إذا كان يمكن أن يكون كريماً بما يكفي لإعارتي واحدة من جزماته العالية ساعة واحدة؟ لم أفكر أنه كان هناك أي شيء غريب في هذه الرسالة. ولكن جيني قالت إن الشباب في غرفة الجراحة ضحكوا، كما لو أنهم تلقوا رغبتي في الحصول على جزمة عالية غير صالحة. عندما وصلت الجزمة، قمتُ وجيني بوضع بوسي فيها وقدماها الأماميتان مستقيمتين

نحو الأسفل، بحيث تكونان مثبتتين فلا تستطيع أن تخدش، وأعطيناها ملء ملعقة شاي من حلوى هلام مزجتُ فيها (لا بد أن تعذريني يا سيدتي النبيلة) طرطيراً مقيّئاً. لن أنسى مطلقاً إلى أي مدى كنت قلقة طوال النصف ساعة التالية. أخذتُ بوسي إلى غرفتي، وفرشتُ منشفة نظيفة على الأرضية. لقد كان من الممكن أن أُقبلها كثيراً عندما أخرجت الدانتيل إلى مكان يمكن رؤيته فيه. كانت جيني قد أعدت ماء مغلياً، ونقعناه فيه مراراً وتكراراً، ونشرناه على شجيرة لافندر في الشمس قبل أن يكون بإمكاني لمسه مرة أخرى، أو وضعه في حليب. ولكن الآن لن تُخمني مطلقاً يا سيدتي النبيلة أنه صار في بطن بوسي».

اكتشفنا خلال المساء أن الليدي غلينهاير كانت ستبقى في زيارة السيدة جاميسون فترة طويلة، حيث إنها تخلت عن منزلها في إدنبره، وليس لديها صلات تجعلها تعود إلى هناك بسرعة. بشكل عام، كنا مسرورين إلى حد ما بسماع هذا، ذلك أنها تركت فينا انطباعاً حسناً. وكان أيضاً من المريح كثيراً معرفة، من بين أشياء كثيرة أخرى تسربت في أثناء المحادثة، أن هناك العديد من صفات الانتساب إلى الأرستقراطية التي كانت قد أصبحت بعيدة عنها، ومن بينها «ابتذال الثروة».

«ألا تجدن أن المشي بغيض جداً؟» سألت السيدة جاميسون ذلك عندما أُعلِن عن وصول الخدم الخاصين بكل واحدة منا. لقد كان سؤالاً اعتيادياً جداً من السيدة جاميسون التي كان لديها عربتها الخاصة في مرآب العربات، وكانت دائماً تذهب في كرسي حمّال إلى أقصر المسافات. وكانت الإجابات اعتيادية بالدرجة ذاتها، تقريباً.

«أوه يا عزيزتي، لا! إن الجو لطيف وهادئ جداً في الليل!»
«إنه مصدر انتعاش كبير بعد الإثارة التي تحصل في أية حفلة!»
«النجوم جميلة جداً!» وهذه الجملة الأخيرة كانت من الآنسة ماتي.

سألت الليدي غلينماير، «هل أنت مغرمة بعلم الفلك؟»

أجابت الآنسة ماتي، «ليس كثيراً» وقد اختلط عليها الأمر في هذه اللحظة لتتذكر أيهما كان علم الفلك وأيهما كان علم التنجيم – ولكن الجواب كان صحيحاً في كلتا الحالتين، ذلك أنها قرأت تنبؤات فرانسيس مور فأفزعتها قليلاً. وبالنسبة إلى علم الفلك، فقد أخبرتني، في حديث خاص سري، بأنها لم تستطع قطُّ أن تصدق أن الأرض تتحرك باستمرار، وأنها لن تصدق ذلك لو كان بإمكانها أن تفعل، فذلك سيجعلها تشعر بالتعب والدوار كلما فكرت فيه.

عدنا إلى منزلنا بأحذيتنا ذات النعال الخشبية واخترنا طريقنا بعناية مفرطة في تلك الليلة، وكانت مداركنا بعد احتسائنا الشاي مع «السيدة النبيلة» قد أصبحت راقية ومرهفة جداً بعد احتساء الشاي مع «السيدة النبيلة».



9

سينيور برونيوني

بعد فترة وجيزة من الأحداث التي قدمتُ وصفاً لها في مقالتي الأخيرة، استُدعيت إلى المنزل بسبب مرض والدي. ومن قلقي عليه، نسيت، فترة من الزمن، التساؤلَ كيف كانت تسير أمور صديقاتي العزيزات في كرانفورد، أو كيف تمكنت الليدي غلينمايير من جعل نفسها تتقبل رتابة زيارتها الطويلة التي كانت ما تزال تقوم بها لسلفتها السيدة جاميسون. وعندما أصبح والدي أقوى قليلاً، رافقته إلى شاطئ البحر، وهكذا بدا أنني كنت منفية عن كرانفورد تماماً، ومحرومة من أي فرصة لسماع أية معلومة عابرة من بلدتي الصغيرة العزيزة طوال الجزء الأكبر من تلك السنة.

في وقت متأخر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر - عندما كنا قد عُدنا إلى المنزل مرة أخرى، وأصبح والدي بصحة جيدة - استلمتُ رسالة من الآنسة ماتي، ويا لها من رسالة غامضة. لقد بدأتْ بجمل كثيرة دون أن تنهيها، وجعلتها متداخلة، بالطريقة الفوضوية التي تتداخل بها الكلمات المكتوبة معاً على الورق النشاف. وكان كل ما استطعت فهمه هو ما إذا كان والدي قد تحسن (وهو ما كانت تأمل أنه حدث)، وأن آخذ حذري وأرتدي معطفاً كبيراً من عيد القديس

ميخائيل إلى عيد البشارة، وإذا كانت قبعات التُّربان دارجة، فهل يمكنني أن أخبرها بذلك؟ سوف يكون هناك مرح كما لم يُشاهد أو يُعرف منذ أن جاءت أُسود «ومبويل»، عندما أكل واحد منها ذراع طفل. وربما كانت هي مسنّة أكثر مما يسمح لها بالاهتمام بملبسها، ولكن كان لا بد لها من أن تحصل على قبعة جديدة. ونظراً لأنها سمعت أن قبعات التُّربان كانت تُرتدى، وأن بعض الأسر العريقة من المرجح أن تأتي، فقد رغبتْ في أن تبدو مرتبة، وإذا تكرمتُ بأن أُحضِر قبعة لها من صانع القبعات الذي أعتمده. وأوه، عزيزتي! كم كان إهمالاً منها أن تنسى أنها كتبت إليّ لكي تطلب مني أن أَحضُر لزيارتها في يوم الثلاثاء القادم، إذ إنها تأمل أن يكون لديها شيء تقدمه إليّ على سبيل التسلية، لم تكن تعرف الآن منه لوصفه بتفصيل أكبر، سوى أن اللون الأخضر الضارب إلى الزرقة كان لونها المفضل. هكذا اختتمت الرسالة. ولكنها أضافت في ملاحظة حاشية أنها تعتقد أن بإمكانها أن تقول لي ماذا كان عامل الجذب المميز لكرانفورد في هذه الفترة. كان السينيور برونيوني سيعرض سحره الرائع في صالات مجلس كرانفورد في مساء يومي الأربعاء والجمعة من الأسبوع القادم.

قبلتُ دعوة الآنسة ماتي العزيزة بسرور كبير، دون تأثر بالمشعوذ، وتوّاقة بصورة خاصة لمنعها من تشويه وجهها الصغير اللطيف الرقيق بعمامة رأس كبيرة. ولذلك، اشتريت لها قبعة جميلة وأنيقة مناسبة إلى من هم في منتصف العمر. إلا أنها تعرضت لخيبة أمل إلى حد ما عندما تبعتني إلى غرفة نومي فور وصولي، ظاهرياً لكي تحرك الجمر، ولكن في الواقع، في اعتقادي، لكي ترى ما إذا كانت قبعة التُّربان ذات اللون الأخضر الضارب إلى الزرقة محفوظة

في صندوق القبعات الذي سافرتُ به. لقد قمتُ بتحريك القبعة في حركة دائرية بيدي لعرض الواجهات الخلفية والجانبية، لكن دون جدوى: لقد كان قلبها متعلقاً بقبعة تُربان، وكل ما استطاعت فعله هو أن قالت باستكانةٍ، في مظهرها وصوتها:

«أنا متأكدة من أنك فعلت كل ما في وسعك يا عزيزتي. إنها تشبه تماماً القبعات التي ترتديها جميع النساء في كرانفورد، ولديهن قبعاتهن منذ عام، على ما أظن. كنتُ أُفضل شيئاً جديداً أكثر، أعترف بذلك - شيئاً مثل قبعات التُّربان التي أخبرتني الآنسة بيتي باركر بأن الملكة أديلايد ترتديها. ولكنها جميلة جداً يا عزيزتي، ومن المحتمل أن يكون لون اللافندر أفضل من اللون الأخضر الضارب إلى الزرقة عند ارتدائه. حسناً، على الرغم من كل شيء، ما هي الثياب حتى نهتم بشأنها؟ أخبريني إذا كنتِ تريدين أي شيء يا عزيزتي. ها هو الجرس. أظن أن قبعات التُّربان لم تصل إلى درمبل بعد؟»

قالت المرأة العزيزة المتقدمة في السن هذا، وخرجت من الغرفة في حسرة، وتركتني لكي أرتدي ثيابي، ذلك أنها أبلغتني أنها تتوقع قدوم الآنسة بول والآنسة فوريستر، وكانت تأمل ألّا أكون مُتعبة جداً إلى درجة لا تمكّنني من الانضمام إلى المجموعة. يُفترض من غير ريب ألّا أكون متعبة جداً. وقد تعجلتُ في تفريغ ثيابي وترتيبها. ولكن، مع كل سرعتي، سمعت ضجيج المحادثة في الغرفة المجاورة قبل أن أكون جاهزة. وفي اللحظة التي فتحتُ فيها الباب، تناهت إلى مسامعي الكلمات، «كنتُ غبية عندما توقعت أي شيء أرستقراطي جداً من متاجر درمبل. الفتاة المسكينة! لقد فعلتْ ما

بوسعها، أنا متاكدة». ولكن على الرغم من كل ذلك، أُفضِّل أن تكون قد ألقت اللوم على درمبل وعليّ من أن تشوه نفسها بقبعة تُربان.

كانت الآنسة بول دائماً المرأة الوحيدة التي لديها تجارب مثيرة، في ثلاثية نساء كرانفورد المجتمِعات الآن. كانت معتادة على قضاء فترات الصباح في التجول من متجر إلى آخر، ليس لشراء أي شيء (باستثناء بكرة قطن أو قطعة شريط لاصق أحياناً)، بل لكي ترى السلع الجديدة وتقدِّم وصفاً لها، ولتجمع كل أجزاء المعلومات المتفرقة في البلدة. كما أن لها طريقة في الدخول فجأة بشكل رزين في أماكن مختلفة هنا وهناك لإرضاء فضولها في أي لحظة - وهي طريقة كان من الممكن أن تُعَدَّ وقحة لو لم تكن تبدو أرستقراطية ومحتشمة. وقد عرفنا الآن، من خلال الطريقة المعبّرة التي تنحنحت بها، وانتظارها حتى يتم الانتهاء من الحديث في جميع المواضيع البسيطة (مثل القبعات وقبعات التُّربان)، عرفنا أنها تريد أن تروي شيئاً ما مميزاً، وعندما جاء التوقف المتوقع - وأنا أتحدى أي أشخاص لديهم قدر عادي من التواضع أن يستمروا بالمحادثة وقتاً طويلاً عندما يكون أحدهم جالساً متعالياً بصمت، وينظر بترفع إلى كل الأشياء التي يقولونها بوصفها تافهة وسخيفة مقارنة بما يُمكنه أن يبوح به، إن طُلِب منه ذلك بطريقة مناسبة. بدأت الآنسة بول :

«في أثناء خروجي من متجر غوردن اليوم، خاطرتُ بالذهاب إلى 'فندق جورج' (هناك ابنة عمّ لعزيزتي بيتي تعمل مسؤولة عن الغرف فيه، وخطر لي أن بيتي ربما تُحب أن نسمع بأحوالها). لم أرَ أي شخص في الأرجاء، فصعدتُ الدرج ببطء، ووجدتُ نفسي في الممر المُفضي إلى قاعة الاجتماعات (أنا وأنت نتذكر قاعة الاجتماعات، أنا

متأكدة يا آنسة ماتي! وقائع المحكمة!) لذا مضيت قدماً، دون تفكير فيما كنت أنوي أن أفعله، عندما أدركت فجأة أنني كنت في وسط التحضيرات من أجل ليلة الغد - لقد كانت الغرفة مقسومة بواسطة مَنشَر غسيل كبير، كان رجال كروسبي يقومون بتثبيت قماش فلانيلا أحمر عليه، وكانت مظلمة جداً وبدت غريبة. لقد أذهلتني كثيراً، وكنت ذاهبة وراء الستائر في غياب ذهنيٍّ عندما تقدَّم رجل محترم، (رجل محترم تماماً، أؤكد لَكُنّ)، وسأل ما إذا كان لديّ أيّة مهمة يمكنه أن يساعدني في تدبّر أمرها. لقد تكلم بلغة إنجليزية مكسَّرة إلى حد ما، لم يكن في وسعي ألا أفكر في ثاديوس من وارسو، وفي الأخوين الهنغاريين، وفي سانتو سيباستيان. وعندما كنتُ منشغلة بتصوير حياته السابقة لنفسي، انحنى لي وأنا أخرج من القاعة. ولكن انتَظِرنَ دقيقة! لم تسمعن نصف قصتي بعد! كنت ذاهبة إلى الطابق السفلي عندما التقيتُ بابنة عم بيتي من الدرجة الثانية. لذا توقفتُ، من غير ريب، للتحدث معها من أجل بيتي، وأخبرتني أنّ مَن رأيتُه أنا هو المشعوذ فعلياً - لقد كان الرجل المحترم الذي تكلم اللغة الإنجليزية المكسّرة هو السينيور برونيوني نفسه. وفي تلك اللحظة بالضبط مرّ بنا على الدرج، منحنياً انحناءة لطيفة! فرددت على ذلك بالانخفاض بثني الركبتين - جميع الأجانب لديهم مثل هذه السلوكيات المهذبة، ويلتقط المرء شيئاً منها. ولكن عندما نزل إلى الطابق السفلي، تذكرتُ أنني كنتُ قد أسقطت قفازيَّ في قاعة الاجتماعات (كان آمناً داخل فراء تدفئة يدي طوال الوقت، لكنني لم أعثر عليه إلا فيما بعد). لذا رجعت، في اللحظة التي كنت أنسلّ فيها في الممرّ المتروك على أحد جانبي الستارة الكبيرة التي تمتد تقريباً من جانب إلى آخر

من القاعة. ومن يُفترض أن أرى سوى الرجل المحترم نفسه الذي التقيته من قبل، ومرَّ بي على الدرج، وكان يأتي الآن متقدماً من الجزء الداخلي من القاعة التي لا مدخلَ لها - أنت تذكُرين يا آنسة ماتي - ويكرر، بلغته الإنكليزية المكسَّرة فحسب، السؤال عمّا إذا كان لديّ أية مهمة هناك - لا أعني أنه طرحه بخشونة، ولكنه بدا محذّراً مِن تجاوزي الستارة - لذا قمتُ، قطعاً، بتوضيح أمر قفازيّ اللذيين، بشكل غريب جداً، عثرتُ عليها في تلك اللحظة».

إذن، لقد رأت الآنسة بول المشعوذ - المشعوذ الحقيقي في حالته الطبيعية! وطرحنا عليها جميعنا أسئلة كثيرة. «هل هو ملتحٍ؟» «هل هو شابّ أم مُسِنّ؟» «ذو بشرة بيضاء أم سمراء؟» «هل بدا» - (أنا غير قادرة على صياغة سؤالي بشكل متعقل، لذا صغتُه بشكل مختلف) - «كيف كان يبدو؟» باختصار، كانت الآنسة بول بطلة الأمسية، بسبب لقائها الصباحي. وإذا لم تكن هي الوردة (أي المشعوذ) فقد كانت قريبة من ذلك.

استحضار الأرواح، وخفة اليد، والسحر، والشعوذة، كانت هي مواضيع تلك الأمسية. وكانت الآنسة بول متشككة بعض الشيء، وتميل إلى الاعتقاد أنه من الممكن أن تكون هناك إجابات علمية لأعمال ساحرة إندور. وكانت السيدة فوريستر تصدق كل شيء، من الأشباح إلى حرّاس الموتى. واحتلت الآنسة ماتي مكاناً بين الاثنتين - مقتنعة دائماً بما قالته آخر متحدثة. وأظن أنها كانت تميل أكثر إلى طرف السيدة فوريستر، ولكن رغبتها في أن تثبت أنها جديرة بأن تكون أخت الآنسة جينكينز جعلتها تتخذ موقفاً متوازناً - لم تكن الآنسة جينكينز تسمح قطُّ لأي خادمة بتسمية لفّات الشحم التي

كانت تتشكل حول الشموع «كفناً»، بل كانت تُصرّ على أن تسمى فطائر «رولي بولي!» فهل من الممكن أن تكون أختها مؤمنة بالخرافات! لا يصح ذلك مطلقاً.

بعد الشاي، أُرسِلتُ إلى صالة الطعام في الطابق السفلي لكي أُحضر ذلك المجلد من الموسوعة التي تحتوي على أسماء تبدأ بالحرف سي (C)، حتى تزوِّد الآنسة بول نفسها بالتفسيرات العلمية فتكون جاهزة لحيل الأمسية القادمة. لقد أفسد ذلك مجموعةُ اللاعبات المشاركات في لعبة بريفيرنس التي كانت الآنسة ماتي والسيدة فوريستر تتطلعان إليها، ذلك أن الآنسة بول أصبحت مستغرقة في موضوعها، وفي اللوحات التي تم توضيحها فيها، إلى درجة أننا شعرنا أنه سيكون من القسوة إزعاجها بما هو أكثر من التثاؤب الذي كنت أنفثه بين الفينة والأخرى، في بضع مرات في التوقيت المناسب، حيث إنني تأثرتُ فعلياً بالطريقة المهادنة التي كانت المرأتان تضمران فيها خيبة أملهما. ولكن ما كان من الآنسة بول إلا أن تقرأ بحماسة أكبر، لتمنحنا معلومات لا تزيد على هذه:

«آه! فهمت. استوعبت تماماً. أ تمثل الكرة. ضع أ بين ب و د - لا! بين س و ف، وأدر المفصل الثاني من الإصبع الثالثة فوق رسغ يدك اليمنى. واضح جداً بالفعل! عزيزتي السيدة فوريستر، استحضار الأرواح والشعوذة هما مجرد مسألة أبجدية. هل تسمحن لي أن أقرأ لَكُنَّ هذا المقطع؟»

توسلت السيدة فوريستر من الآنسة بول أن تجنبها ذلك، وقالت إنها لم تستطع قطّ فهم ما يُقرأ لها بصوت مرتفع، منذ أن كانت طفلة

فصاعداً. أسقطتُ رزمة أوراق الشدة التي كنت أخلطها بصوت مسموع جداً. ومن خلال هذه الحركة المتحفظة، أجبرتُ الآنسة بول على إدراك أن لعبة بريفيرنس ينبغي أن تكون هي برنامج الأمسية، وأن تقترح، على مضض إلى حد ما، بأنه ينبغي لنا أن نبدأ لعب الشدة. وفجأة، تهلل وجها الامرأتين بهذا الأمر! عانت الآنسة ماتي من بضع وخزات تأنيب الضمير لمقاطعة الآنسة بول في دراستها: ولم تتذكر بطاقاتها جيداً، ولم تعطِ انتباهها الكامل للعبة، إلى أن هدّأت ضميرها من خلال عرض إعارة الموسوعة على الآنسة بول، التي قبلت ذلك بامتنان، وقالت إن بيتي ستحمله معها إلى المنزل عندما تأتي بالفانوس.

في مساء اليوم التالي، كنا جميعنا في هياج لطيف من تصور ما ينتظرنا من مباهج. ذهبت الآنسة ماتي إلى الطابق العلوي لترتدي ملابسها في وقت مبكر، وحثتني على الإسراع إلى أن أصبحتُ جاهزة، عندما اكتشفنا أن علينا الانتظار ساعة ونصف الساعة قبل أن «تُفتَح الأبواب عند الساعة السابعة». وكان علينا قطع مسافة عشرين ياردة فقط! إلا أنه، كما قالت الآنسة ماتي، ينبغي لنا ألّا ننهمك كثيراً في أي شيء، فننسى الوقت. لذا فقد فكرتُ أنه من الأفضل لنا أن نجلس بهدوء، دون إشعال الشمعات، حتى الساعة السابعة إلا خمس دقائق. وهكذا غفت الآنسة ماتي، أما انا فقد انشغلت بالحياكة.

وأخيراً انطلقنا. وعند الباب، تحت طريق العربات عند فندق «جورج»، التقينا بالسيدة فوريستر والآنسة بول: كانت الأخيرة تناقش موضوع المساء بحدّة أكثر من أي وقت مضى، وتُلقي بطاقات عليها أحرف إكس (X) وأحرف ب (B) على رؤوسنا مثل البَرَد. بل إنها

نسخت بضع «وصفات» -كما أسمتها- للحيل المختلفة، على الوجه الخلفي لبطاقات الأحرف، وكانت مستعدة لتفسير واكتشاف فنون السينيور برونيوني واكتشافها.

ذهبنا إلى غرفة المعاطف المجاورة لقاعة الاجتماعات. تنهدت الآنسة ماتي بضع مرات متحسرة على شبابها الماضي، وعلى ذكرى آخر مرة تواجدت فيها هنا، وذلك في أثناء تعديلها قبعتها الجديدة الجميلة أمام المرآة القديمة الغريبة الشكل في غرفة المعاطف. كانت قاعة الاجتماعات قد ألحقها بالفندق، قبل حوالى مائة عام، أُسَرٌ عريقةٌ مختلفة كانت تلتقي معاً مرة في الشهر في فصل الشتاء لممارسة الرقص ولعب الورق. وكثيرات هن الحسناوات من الأسر العريقة اللواتي تمايلن أول مرة في رقصات المينويت ثم رقصن فيما بعد أمام الملكة تشارلوت في هذه القاعة ذاتها. وقيل إن واحدة من أسرة غَنينغ قد أضفت بهجة على المنزل بجمالها. ومن المؤكد أن أرملة جميلة وثرية، هي الليدي ويليامز، قد فُتِنَت بالبنية المهيبة لفنان شاب كان يقيم مع أسرةٍ ما في الجوار لأغراض مهنية، ورافق رعاته إلى حفل كرانفورد. وإن صدقت جميع الحكايات، فقد حصلت الليدي ويليامز المسكينة على صفقة جميلة من زوجها الوسيم. والآن، لا نجد، على طول جوانب قاعة اجتماعات كرانفورد، حسناء متوردة خجلاً لها غمّازتان، ولا نجد أيّ فنان وسيم كسب قلوباً بانحناءاته، وقبعته في يده. لقد كانت القاعة القديمة معتمة بكدر، وكان الطلاء ذو اللون البرتقالي الوردي قد بهت فأصبح أسمر فاتحاً. وكانت قطع كبيرة من الملاط قد قُشِطَت عن الأكاليل والفساتين الجميلة التي على جدرانها. ولكن كانت ما تزال هناك رائحة أرستقراطية عتيقة متبقية في أرجاء

المكان، والذكريات الغابرة للأيام الخوالي جعلت الآنسة ماتي والسيدة فوريستر تشمخان بأنفيهما غروراً في أثناء دخولهما، وتسيران بشكل متكلَّف في القاعة، كما لو كان هناك بين الحضور عدد من النبلاء، بدلاً من صبيين صغيرين مع عصا من الحلوى بينهما يتسليان بها لتمضية الوقت.

توقفنا فجأة عند الصف الأمامي الثاني، لم أستطع ان أفهم لماذا، إلى أن سمعت الآنسة بول تسأل نادلاً يسير بالقرب منها ما إذا كان من المتوقع حضور أي من الأسر العريقة، وعندما هزّ رأسه، واعتقدت السيدة فوريستر والآنسة ماتي أن الجواب لا، مضتا قُدُماً، ومثلت جماعتنا حلقة حوارية. وسرعان ما أصبح الصف الأول أكثر عدداً وأثرى قيمة بالليدي غلينماير والسيدة جاميسون. لقد شغلنا نحن الست نساء أول صفين أماميين، واحترم عزلتَنا الأرستقراطيةَ مجموعاتُ أصحاب المتاجر الذين كانوا يدخلون متفرقين من وقت إلى آخر، وتجمعوا معاً في المقاعد الخلفية. على الأقل خمَّنتُ أنا ذلك، من الضجيج الذي أحدثوه والارتطامات الرنانة التي أصدروها عند جلوسهم. شعرتُ بضجر من الستارة الخضراء العنيدة التي لم تكن لترتفع، بل كانت تحدّق بي بعينين غريبتين تظهران من خلال الثقوب، كما في قصة النسيج المزدان بالرسوم القديمة. وعندما كان من الممكن أن أنظر بسرور حولي إلى الناس الذين كانوا يثرثرون في بهجة ورائي، أمسكت الآنسة بول بذراعي وناشدتني ألّا ألتفت لأنه «لم يكن أمراً مقبولاً اجتماعياً». ما هو السبب، لم أعرف قطُّ، لكن لا بد أنه مملٌ ومضجرٌ جداً. من ناحية أخرى، جلسنا جميعنا بعيون في الاتجاه الصحيح، مباشرة إلى الأمام، نحدق إلى الستارة المُعذِّبة،

ونادراً ما نتحدث بشكل مفهوم، كنا نشعر بخوف كبير من الوقوع في الفعل المبتذل بأن نصدر أي ضجة في مكان للتسلية العامة. وكانت السيدة جاميسون هي المحظوظة أكثر لأنها غطت في النوم.

اختفت العينان أخيراً - ارتعشت الستارة - وارتفع أحد الجانبين قبل الجانب الآخر وعَلِق بلا حراك. أُنزِل مرة أخرى، ثم ارتفع بسرعة بمجهود جديد وسحب عنيف من يد غير مرئية، فكشف لنا عن سيد ضخم في زي تركي، يجلس أمام منضدة ويحدّق بنا (لست متأكدة، ولكنني أظن أنهما العينان اللتان رأيتهما آخر مرة من خلال الثقب في الستارة) بهدوء ومهابة وبشيء من التعالي، «مثل كائن من عالم آخر»، على حدّ قول صوت عاطفي هتف فجأة من ورائي.

قالت الآنسة بول بلا تردد، «ذاك ليس السينيور برونيوني!» نطقتها بصوت مسموع إلى درجة أنني متأكدة أنه سمعه، فقد ألقى نظرة إلى الأسفل من فوق لحيته المسترسلة نحو جماعتنا في جوّ من الاستنكار الصامت. «السينيور برونيوني غير ملتحٍ - لكن ربما سيأتي في الحال». وهكذا هدّأت نفسها إلى حد الصبر. وفي تلك الأثناء، استطلعت الآنسة ماتي المكان من خلال نظارتها، ثم مسحتها، ونظرت مرة أخرى. ثم استدارت وقالت لي، بنبرة لطيفة رقيقة حزينة :

«أترين يا عزيزتي، قبّعات التُّربان تُرتدى».

ولكن لم يكن لدينا وقت لمزيد من التحدث فقد نهض التركي الضخم، كما اختارت الآنسة بول أن تسميه، وعرَّف نفسه أنه هو السينيور برونيوني.

قالت الآنسة بول بتحدٍّ، «أنا لا أصدقه!» نظر إليها مرة أخرى، بنفس التوبيخ الوقور في ملامحه. وكررت بشكل قطعي أكثر من السابق، «لا أصدقه! لم يكن عند السينيور برونيوني ذلك الشيء المنتفخ حول ذقنه. بل بدا مثل رجل محترم مسيحي حليق اللحية».

كان لجمل الآنسة بول المفعمة بالنشاط الأثر الجيد في إيقاظ السيدة جاميسون التي فتحت عينيها واسعاً في إشارة إلى انتباه شديد - ما أدى إلى إسكات الآنسة بول، وشجّع التركي الضخم على المضي قدماً، وهو ما فعله بلغة إنجليزية مكسَّرة - مكسَّرة جداً إلى درجة أنه لم يكن هناك ترابط بين أجزاء جُمَلِه. في الواقع، أدرك ذلك هو نفسه أخيراً، فتوقف عن الكلام وشرع بالعمل.

الآن أصبحنا مندهشين. لا يمكنني أن أتخيل كيف قام بحِيَلِه. لا، ولا حتى عندما أَخْرَجَت الآنسةُ بول قطع أوراقها وبدأت تقرأ بصوت مرتفع -أو على الأقل في همس مسموع جداً- «الوصفات» المنفصلة الخاصة بحِيَله الأكثر شيوعاً. إن سبق لي أن رأيتُ في حياتي رجلاً يعبس ويبدو غاضباً، فقد رأيتُ التركي الضخم يعبس في وجه الآنسة بول. ولكن، كما قالت، ماذا يمكن أن يُتوقَّع من مُسلِم سوى نظرات غير مسيحية؟ وإذا كانت الآنسة بول متشككة، ومنشغلة بوصفاتها ورسوماتها التوضيحية أكثر من انشغالها بحيَلِه، فقد كانت الآنسة ماتي والسيدة فوريستر محيرتين ومشدوهتين إلى أقصى درجة. واستمرت السيدة جاميسون في خلع نظارتها ومسحها، كما لو كانت تعتقد أن هناك خللاً ما فيها هو الذي أحدَثَ الشعوذة. أما الليدي غلينماير، التي رأت الكثير من المشاهد الغريبة في إدنبره، فكانت مصدومة بحِيَله، ولم تتفق على الإطلاق مع الآنسة بول التي صرحت

بأن أي شخص يمكنه أن يؤديها بقليل من التدريب، وبأنها تتعهد بأن تؤدي، هي نفسها، كل الحيل التي قام بتأديتها، وذلك بتخصيص ساعتين لدراسة الموسوعة وجعل إصبعها البُنصر مرنةً.

وأخيراً، أصبحت الآنسة ماتي والسيدة فوريستر مرعوبتين تماماً، وتهامستا معاً. كنت جالسة وراءهما تماماً، لذا لم يكن في وسعي عدم سماع ما كانتا تقولانه. سألت الآنسةُ ماتي الآنسةَ فوريستر «ما إذا كانت تعتقد أن حضورهما لمشاهدة مثل هذه الأشياء كان أمراً صائباً تماماً؟ وأنها لم تستطع منع نفسها من الشعور بالخوف من أنهما شجعتا شيئاً لم يكن فعلاً» - هزة صغيرة من الرأس أكملت الجملة. وأجابت السيدة فوريستر بأن الفكرة ذاتها قد جالت في خاطرها، فهي أيضاً كانت تشعر بقدر كبير من عدم الارتياح، لقد كان أمراً غريباً جداً. كانت متاكدة تماماً أن منديل جيبها هو الذي كان في ذلك الرغيف في تلك اللحظة، وأنه كان في يدها منذ أقل من خمس دقائق. وتساءلت من الذي قدَّم الخبز؟ لقد كانت متأكدة من أنه لا يمكن أن يكون «داكِن» هو من فعل ذلك، لأنه كان وكيل الكنيسة. وفجأة استدارت الآنسة ماتي نصف استدارة نحوي :

«هلا نظرت أنت يا عزيزتي - أنت غريبة عن البلدة، ولن يؤدي ذلك إلى إثارة نميمة بغيضة - هلا نظرت حولك ورأيت ما إذا كان القسيس هنا؟ إذا كان هنا، فأعتقد أننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الرجل الخارق قد أجازته الكنيسةُ، وسيكون في ذلك راحة كبيرة لضميري».

نظرتُ، ورأيت القسيس الرزين المتحفظ النحيل الطويل جالساً محاطاً بصبيان المدرسة الوطنية، محمياً بجنود من جنسِه يحفظونه

جيّداً من اقتراب عوانس كرانفورد الكثيرات. كان وجهه اللطيف مندهشاً تماماً بابتسامات عريضة، وكان الصبيان حوله في حالة من الضحك. أخبرتُ الآنسة ماتي بأن الكنيسة كانت تبتسم في استحسان، ما أراح ضميرها.

لم أذكر قطُّ اسم السيد هايتر، القسيس، لأنني، كأي امرأة شابة ثرية وسعيدة، لم أحتك به شخصياً قطُّ. لقد كان عازباً كبيراً في السن، ولكنه كان خائفاً من تناقل إشاعات الزواج عنه في كل اتجاه مثل أي فتاة في سن الثامنة عشرة: وكان يندفع بسرعة إلى داخل متجر أو يهرع إلى مدخل بمجرد لقاء أي امرأة من نساء كرانفورد في الشارع. وبالنسبة إلى حفلات لعبة بريفيرنس، لم أستغرب عدم قبوله الدعوات إليها. وبصراحة، كنت دائماً أشك في أن الآنسة بول كانت تقوم بملاحقة السيد هايتر ملاحقة نشطة جداً عندما وصل إلى كرانفورد أول مرة. وأيضاً، لأنها بدت الآن تشاركه خوفه بشكل واضح جداً خشية أن يُقرن اسمها باسمه في أي وقت. لقد وجد كل اهتماماته بين الفقراء والعجزة. وقد أحضر أولاد المدرسة الوطنية إلى العرض هذه الليلة بالذات ليمتعهم. وقد كان الخير الذي فعله، في هذه المرة على الأقل، هو نفسه الجزاء، ذلك أنهم كانوا يحرسونه عن اليمين وعن اليسار، وظلوا حوله وعلى مقربة منه كما لو كان هو ملكة النحل وكانوا هم سرب النحل. لقد كان مطمئناً في وسطهم إلى درجة أنه كان قادراً على منح جماعتنا انحناءة في أثناء خروجنا في طابور. تجاهلت الآنسة بول حضوره، وتظاهرت بأنها مستغرقة في إقناعنا بأننا تعرضنا للخداع، ولم نرَ السينيور برونيوني على الرغم من كل شيء.

10

الذعر

أعتقد أن مجموعة من الظروف المؤرخة منذ زيارة السينيور برونيوني إلى كرانفورد، بدت في ذلك الوقت مرتبطة به في أذهاننا على الرغم من أنني لا أعتقد أن له أي علاقة فعلية بها. دفعة واحدة، انتشرت أنواع كثيرة جداً من الشائعات المزعجة في البلدة. لقد كان هناك بضع سرقات - سرقات حقيقية، ورجال وقفوا أمام قضاة التحقيق وقُدِّموا للمحاكمة - وبدا أن ذلك جعلنا جميعنا خائفين من التعرض للسرقة، ففي منزل الآنسة ماتي، أعرفُ ذلك، اعتدنا فترة طويلة أن نقوم بحملات استكشافية في جميع أنحاء المطابخ والأقبية في كل ليلة، حيث كانت الآنسة ماتي تقود الطريق مسلّحة بقضيب معدني يُستخدَم لإذكاء النار، أتبعها أنا بفرشاة تنظيف جانب الموقد، وتحمل مارثا المجرفة والمكاوي التي تنبه بها لوقوع خطر داهم. وعند ارتطام هذه الأدوات معاً مصادفة، كانت تخيفنا كثيراً إلى درجة أننا كنا ثلاثتنا نلتصق معاً في المطبخ الخلفي أو في غرفة الخزين أو في المكان الذي تصادف أن كنا فيه أياً كان. وعندما يكون رعبنا قد انتهى، كنا نستعيد رباطة جأشنا ونتقدم مرّة أخرى بجرأة مضاعفة. وفي النهار كنا نسمع قصصاً غريبة لأصحاب المتاجر وساكني

الأكواخ، ولعربات كانت تتنقل في جوف الليل، تجرها أحصنة مزودة بحدوات من لباد، ويحرسها رجال يرتدون ملابس سوداء، يتجولون في البلدة، بلا ريب، بحثاً عن بعض المنازل غير المراقبة أو عن باب ما غير مقفول.

كانت الآنسة بول تتظاهر بشجاعة كبيرة، وكانت الشخص الرئيسي الذي يجمع ويرتب هذه الإشاعات بحيث تجعلها تتخذ الشكل المخيف أكثر. ولكننا اكتشفنا أنها طلبت واحدة من قبعات السيد هوغينز المهترئة لتعلقها في ردهتها، وكان لدينا (على الأقل لديّ أنا) شكوك فيما إذا كانت ستستمتع فعلياً بالمغامرة الصغيرة المتمثلة بأن يتم اقتحام منزلها، فقد أظهرتْ أنها قد تستمتع بذلك جداً. لم تُخفِ الآنسة ماتي كونها امرأة جبانة إلى أقصى درجة، لكنها كانت تؤدي بانتظام مهمة مدبرة المنزل المتعلقة بالتفتيش - إلا أن ساعة القيام بذلك التفتيش أصبحت مبكرة أكثر وأكثر، حتى أصبحنا أخيراً نقوم بجولتنا في الساعة السادسة والنصف، وأصبحت الآنسة ماتي تأوي إلى الفراش بعد الساعة السابعة بقليل، «لكي ينقضي الليل في وقت أسرع».

لطالما تباهت كرانفورد بكونها بلدة نزيهة وأخلاقية إلى درجة أنها أصبحت تتخيّل نفسها أرستقراطية ومهذبة إلى درجة لا تسمح لها بأن تكون خلاف ذلك، وشعرتْ بالوصمة على شِيَمها في هذا الوقت بشكل مضاعف. ولكننا عزّينا أنفسنا بالتأكيد الذي منحه بعضُنا بعضاً بأن السرقات لا يمكن أن يكون مرتكبها أي شخص من كرانفورد. ولا بد أن يكون غريباً، أو غرباء هم الذين جلبوا هذا

الخزي إلى البلدة، ولهذا استحدثنا عدداً كبيراً من الإجراءات الاحترازية كما لو كنا نعيش بين الهنود الحمر أو الفرنسيين.

هذا التشبيه الأخير لحالة الدفاع والتحصينات الليلية أدلت به السيدة فوريستر، التي كان والدها قد خدم تحت إمرة الجنرال بورغين في الحرب الأمريكية، والتي كان زوجها قد حارب الفرنسيين في إسبانيا. وقد كانت تميل في الواقع إلى فكرة أن الفرنسيين كانوا مرتبطين، بطريقة ما، بالسرقات الصغيرة، التي كانت حقائق مؤكدة، وكذلك بعمليات السطو والسرقات على الطرق السريعة، التي كانت إشاعات. لقد كانت متأثرة كثيراً بفكرة الجواسيس الفرنسيين في فترة ما من حياتها. ولم يكن من الممكن قطُّ اجتثاث الفكرة بشكل مقبول، بل كانت تظهر مجدَّداً من وقت إلى آخر. وكانت نظريتها الآن هي التالية: كان أهالي كرانفورد يحترمون أنفسهم كثيراً جداً، وكانوا ممتنين كثيراً للطبقة الأرستقراطية التي كانت كريمة جداً بالعيش قريباً من البلدة، فلا يقدمون مطلقا على وسم تنشئتهم بالعار من خلال كونهم غير أمناء أو غير أخلاقيين. لذا، لا بد من أن نُصدق بأن اللصوص كانوا غرباء - وإذا كانوا غرباء، فلماذا لا يكونون أجانب؟ وإذا كانوا أجانب، أليس من المرجح أكثر أن يكونوا فرنسيين؟ والسينيور برونيوني كان يتكلم لغة إنجليزية مكسّرة مثل الفرنسيين. وعلى الرغم من أنه كان يرتدي عمامة مثل الأتراك، فقد كانت السيدة فوريستر قد رأت صورة في مطبوعة لمدام دي ستايل ترتدي قبعة توربان تشبه العمامة، وفي مطبوعة أخرى رأت صورة السيد دينون في ثوب مثل ذلك الذي ظهر فيه المشعوذ، ما يدل بوضوح على أن الفرنسيين، وكذلك الأتراك، يرتدون عمائم. ليس

هناك أدنى شك في أن السينيور برونيوني كان فرنسياً - جاسوس فرنسي جاء لكي يكتشف الأماكن الضعيفة وغير المحمية في إنجلترا، ومما لا شك فيه أن لديه شركاءَه. ومن جانبها، فقد كان دائماً لدى السيدة فوريستر رأيها في مغامرة الآنسة بول في «فندق جورج» - رؤية رجلين حيث يُعتقد أنه كان هناك رجل واحد فقط. لقد كان لدى الفرنسيين دائماً طرق ووسائل لا يعرف الإنجليز منها شيئاً، وكانت ممتنة لقول ذلك. كما أن ضميرها لم يكن مرتاحاً قطُّ بشأن الذهاب لمشاهدة المشعوذ - لقد كان أمراً محرَّماً إلى حد ما، على الرغم من أن القسيس كان هناك. باختصار، أصبحت السيدة فوريستر منفعلة أكثر مما عهدناها به في أي وقت سابق، ونظراً إلى أنها ابنة ضابط وأرملة ضابط، فإننا كنا نعظِّمُ رأيها، بلا ريب.

أنا في الواقع لا أعرف مدى الصحة أو الخطأ في الإشاعات التي كانت تنتشر انتشار النار في الهشيم في هذا الوقت بالتحديد. ولكن بدا لي أنه كان هناك أسباب كثيرة للاعتقاد أن المنازل والمتاجر في ماردون (وهي بلدة صغيرة تبعد حوالى ثمانية أميال عن كرانفورد) كانت تُدخَل من خلال فتحات في الجدران، حيث كان يتم نقل الطوب بصمت في جوف الليل، وكان كل ذلك يتم في هدوء شديد إلى درجة أنه لم يكن يُسمع أي صوت لا في المنزل ولا خارج المنزل. تخلت الآنسة ماتي عن الأمر في يأس عندما سمعت بهذا. وقالت، «ما الفائدة من الأقفال والأجراس للنوافذ، وما فائدة الطواف حول المنزل كل ليلة؟ لقد كان ذلك العمل البارع الأخير عملاً يليق بمشعوذ. الآن صدّقتْ فعلياً أن السينيور برونيوني كان هو المسبب الرئيسي لما كان يحدث».

في الساعة الخامسة من بعض ظهر أحد الأيام، جفلنا من طَرْقٍ متسرّع على الباب. طلبت مني الآنسة ماتي أن أركض وأخبر مارثا ألّا تفتح الباب قبل أن تكون هي (الآنسة ماتي) قد استكشفت الأمر من خلال النافذة. وسلّحت نفسها بمسند قدمين لكي تُسقطه على رأس الزائر، في حال أظهر وجهاً مُغطى بقماش أسود، عندما ينظر إلى الأعلى في ردّ على استفسار «مَن هناك». ولكن لم يكن الطارق سوى الآنسة بول وبيتي. صعدت الأولى إلى الطابق العلوي وهي تحمل سلَّ يد صغيراً، وبدا واضحاً أنها كانت في حالة هياج شديد.

قالتْ لي عندما عرضتُ أن أريحها من سلّها، «اعتني بهذا! فيه مقتنياتي النفيسة. أنا متأكدة أن هناك خطة لسرقة منزلي في هذه الليلة. لقد جئتُ لكي تستضيفيني يا آنسة ماتي. سوف تذهب بيتي للنوم عند ابنة عمها في 'فندق جورج'. يمكنني أن أسهر هنا طوال الليل إن أذنت لي بذلك. ولكن منزلي بعيد جداً عن أي جيران، ولا أظن أنه من الممكن أن يسمعنا أحد إذا صرخنا بأعلى صوت!»

قالت الآنسة ماتي، «ولكن ما الذي جعلك مذعورة إلى هذه الدرجة؟ هل رأيت رجالاً يتربصون بالمنزل؟»

أجابت الآنسة بول، «أوه، نعم! رجلان مظهرهما سيّئ جداً، مرّا بجانب المنزل ثلاث مرات ببطء شديد. ومنذ أقل من نصف ساعة، جاءت متسولة إيرلندية، كانت توشك أن تدخل عنوة وتتجاوز بيتي، وهي تقول إن أطفالها يتضورون جوعاً، وأنها لا بد أن تتحدث مع السيدة. كما ترين قالت 'سيدة' على الرغم من تعليقنا قبّعة رجلٍ في صدر الصّالة، فكان من الطبيعي أكثر أن تقول 'سيد'». ولكن

بيتي أغلقت الباب في وجهها، وصعدت إليّ، مكثنا معاً وجلسنا عند نافذة صالة الاستقبال نراقب إلى أن رأينا توماس جونز مُنصرفاً من عمله، فناديناه، وطلبنا منه أن يحافظ على سلامتنا حتى نصل إلى داخل البلدة».

كان من الممكن أن نبتهج بالنصر على الآنسة بول التي كانت تتظاهر بالتحلي بشجاعة كبيرة إلى أن أصابها الرعب. ولكننا كنا مسرورين جداً بأننا أدركنا أنها كانت تتشارك في مواطن ضعف البشر إلى درجة لم تسمح لنا بالابتهاج من الانتصار عليها. وقد تخليت لها عن غرفتي بطيب خاطر، وشاركتُ الآنسة ماتي في سريرها هذه الليلة. ولكن قبل أن نذهب إلى النوم، أخرجت الامرأتان من أعماق ذاكرتيهما قصصاً رهيبة من حوادث السرقة والقتل إلى درجة أنني شعرت بقشعريرة تسري في جسدي. كان واضحاً أن الآنسة بول كانت حريصة على إثبات أن مثل هذه الأحداث الفظيعة كانت ضمن خبرتها بحيث كان ذعرها المفاجئ مبرَّراً. ولم تكن الآنسة ماتي ترغب في أن يُتَفَوَّقَ عليها، فعقبت على كل قصة بقصة مرعبة أكثر، إلى أن ذكّرتني بشكل غريب جداً بقصة قديمة، كنت قد قرأتها في مكان ما، تصوّر عندليباً وموسيقيّاً كافح كل منهما ضد الآخر لمعرفة من كان قادراً على إنتاج الموسيقى الأروع، إلى أن لقت فيلوميلا المسكينة حتفها.

إحدى القصص التي راودتني فترة طويلة بعد ذلك كانت في فتاة تُرِكت في يوم جميل مميَّز لتكون مسؤولة عن منزل كبير في مقاطعة كمبرلاند، أما الخدم الآخرون فقد ذهبوا كلهم للمرح. كانت الأسرة مسافرة إلى لندن، ومرّ بائع متجول، وطلب أن يترك حقيبته الكبيرة

والثقيلة في المطبخ، قائلاً إنه سيأتي من أجلها مرة أخرى في الليل. وكانت الفتاة (وهي ابنة حارس طرائد)، تتجول بحثاً عن تسلية، فعثرت مصادفة على بندقية معلقة في القاعة، أنزلتها لكي تتأمل في النقش. فانطلقت رصاصة خلال باب المطبخ المفتوح، ضربت الحقيبة، فخرج خيط هزيل من دم أدكن ينزّ ببطء. (كم استمتعت الآنسة بول بهذا الجزء من القصة، تتأمل في كل كلمة كما لو أنها أحبتها!) ثم تعجّلتُ إلى حدّ ما في سرد باقي الوصف لشجاعة الفتاة، وحصلتُ على فكرة مشوشة في أنها، بطريقة ما، أربكت اللصوص بتسخين المكاوي الإيطالية حتى أصبحت ساخنة متوهجة بلون أحمر، ثم أعادتها إلى السواد بغمسها في الشحوم.

افترقنا في تلك الليلة مع تساؤل بخوف عما سنسمع به في الصباح - ومع رغبة جارفة، من طرفي، في أن تنقضي الليلة وترحل: فقد كنت خائفة جداً خشية أن يكون اللصوص قد رأوا، من مخبأ تربُّصٍ مظلم، أن الآنسة بول قد حملت معها مقتنياتها النفيسة، وبذلك يكون دافعهم إلى مهاجمة منزلنا مزدوجاً.

ولكن، إلى أن جاءت الليدي غلينماير لزيارتنا زيارة قصيرة في اليوم التالي، لم نسمع شيئاً غير عادي. كانت جميع المكاوي في الوضع نفسه تماماً الذي كانت عليه مستندة إلى الباب الخلفي، كما قمتُ ومارثا بتكويمها بمهارة، كما في لعبة العيدانية، لتكون جاهزة فتسقط محدثة قعقعة فظيعة بمجرد أن تقوم قطة بلمس الألواح الخلفية. وتساءلتُ ماذا عسانا أن نفعل لو أيقظنا أحدٌ أو أنذَرَنا بهذه الطريقة، واقترحتُ على الأنسة ماتي أن نُغطي وجوهنا بأغطية الفراش بحيث لا يكون هناك خطر في أن يُفكر اللصوص أننا نستطيع أن نتعرف

إليهم. ولكن الآنسة ماتي، التي كانت ترتجف كثيراً جداً، رفضت هذه الفكرة بازدراء، وقالت إن واجبنا تجاه المجتمع يُلزمنا بأن نُمسك بهم، وأنه ينبغي لها بكل تأكيد أن تفعل ما في وسعها للإمساك بهم وحبسهم في العليّة حتى الصباح.

عندما جاءت الليدي غلينماير، شعرنا بشيء من الغيرة منها. لقد كان منزل السيدة جاميسون قد تعرض لهجوم فعلياً. على الأقل، كانت هناك آثار خطوات أقدام رجال ظاهرة للعيان على حوض الأزهار تحت نوافذ المطبخ، «حيث لا يُفترض أن يكون هناك رجال». إضافة إلى أن كارلو ظل ينبح طوال الليل كما لو كان هناك غرباء في الخارج. أيقظت الليدي غلينمايرُ السيدةَ جاميسون، وقامتا بقرع الجرس المتصل مع غرفة السيد مولينر في الطابق الثالث، وعندما ظهر رأسه المغطى بقبعة النوم فوق قضبان الدرابزين ردّاً على استدعائهما، أخبرتاه بقلقهما وأسبابه. عندئذ تراجع إلى غرفة نومه، وأقفل الباب (خوفاً من التيارات الهوائية، كما أبلغهما في صباح اليوم التالي)، وفتح النافذة وصاح بجرأة ليقول إنه إذا حدث أن جاء اللصوص المفترَضون إليه فإنه سوف يقاتلهم. ولكن، كما قالت الليدي غلينماير، لم يكن ذلك سوى مواساة واهية نظراً إلى أن اللصوص لا بد أن يمروا بغرفة السيدة جاميسون وبغرفتها قبل أن يتمكنوا من الوصول إليه، ولا بد أن تكون لديهم نزعة مشاكسة جداً فعلياً إذا تجاهلوا فرص السرقة المتاحة في الطابقين السفليين ليصعدوا إلى العليّة ويفتحوا الباب عنوة هناك لكي يصلوا إلى بطل المنزل. وبعد الانتظار والإصغاء بعض الوقت في غرفة الاستقبال، اقترحت الليدي غلينماير على السيدة جاميسون أن تذهبا للفراش. ولكن تلك السيدة قالت إنها ما

كانت لتشعر بالراحة إلا إذا بقيت مستيقظة وراقبت. وهكذا، دثرت نفسها جيداً على الأريكة، حيث وجدتها خادمة المنزل، عندما دخلت إلى الغرفة في الساعة السادسة صباحاً، تغطّ في نوم عميق. أما الليدي غلينماير، فقد ذهبت إلى الفراش، وبقيت مستيقظة طوال الليل.

عندما سمعت الآنسة بول بهذا الأمر، أومأت برأسها برضاً كبير، فقد كانت متأكدة من أننا كنا سنسمع بحدوث شيء ما في تلك الليلة في كرانفورد، وقد سمعنا، حيث كان واضحاً أنهم اقترحوا أولاً مهاجمة منزلها، ولكن عندما رأوا أنها وبيتي كانتا مستعدتين لأي طارئ، وحملتا معهما المقتنيات النفيسة، غيروا ترتيباتهم وذهبوا إلى منزل السيدة جاميسون، ولم يعرف أحد ما الذي كان من الممكن أن يحدث لو لم ينبح كارلو، ذلك الكلب الجيد!

كارلو المسكين! أيام نباحه كانت قد أوشكت على الانقضاء. وسواء أكانت العصابة التي غزت الحي خائفة منه، أم أن أفرادها كانوا ميالين إلى الانتقام بما فيه الكفاية بسبب الطريقة التي أعاقهم فيها، في تلك الليلة المُشار إليها، إلى درجة دفعتهم إلى أن يُسمّموه. أم أنه، كما اعتقد بعض من الناس الأقل تثقيفاً، مات من نزيف داخلي مفاجئ نجم عن التغذية المفرطة وقلة التمرين. أياً ما كان، فمن المؤكد أن كارلو قد عُثِرَ عليه ميتاً بعد يومين من تلك الليلة الزاخرة بالأحداث، وكانت ساقاه الهزيلتان ممدودتين متشنّجتين في وضعية الجري، كما لو كان بإمكانه، بمثل هذا الجهد غير العادي، الهروب من المُطارِد الذي لا يُخطئ، الموت.

شعرنا جميعنا بالحزن على كارلو، الصديق القديم المألوف الذي كثيراً ما نبح علينا بحدّة وغضب سنوات عديدة. وقد أزعجتنا كثيراً

طريقة موته الغامضة. هل يمكن أن يكون السينيور برونيوني وراء كل هذا؟ فقد سبق أن قُتِل طائر كناري بمجرد كلمة آمرة، على ما يبدو. وبدا أن إرادته هي ذات قوة مهلكة، فمن الذي يعرف أنه ما زال باقياً في الحي لا لشيء سوى القيام بأمور فظيعة متنوعة كثيراً!

تهامسنا بهذه التصورات فيما بيننا في أوقات المساء. ولكن في فترات الصباح، كانت شجاعتنا تعود إلينا مع نور النهار، وفي غضون أسبوع كنا قد تجاوزنا صدمة موت كارلو. جميعنا ما عدا السيدة جاميسون. لقد كان شعورها، المسكينة، كما لم تشعر تجاه أي حدث آخر منذ وفاة زوجها. وفي الواقع، على حد قول الآنسة بول، نظراً إلى أن صاحب الفخامة السيد جاميسون كان يشرب كثيراً جداً، وتسبب لها بالكثير من الهم، فمن الممكن أن يكون موت كارلو هو المحنة الأكبر. ولكن كان هناك دائماً مسحة من السُّخرية في تعليقات الآنسة بول. إلا أن هناك أمراً واحداً كان واضحاً ومؤكداً - كان من الضروري أن تحظى السيدة جاميسون بشيء من التغيير في المشهد، وكان السيد مولينر مثيراً للعاطفة إلى حد كبير في هذه النقطة، فكان يهزّ رأسه كلما استفسرنا عن سيدته، ويتحدث بشأن فقدانها لشهيتها وبشأن الليالي السيئة بشكل ينذر بالخطر إلى حد كبير، وبإنصاف أيضاً، ذلك أن لديها صفتين في حالتها الصحية الطبيعية، وهما الإقبال على الأكل والنوم، فإذا كانت لا تقوى على الأكل ولا على النوم، فلا بد أنها مُغتمة وفي حالة صحية سيئة.

الليدي غلينماير (التي كان من الواضح أنها أصبحت معجبة جداً بكرانفورد) لم تُعجبها فكرة ذهاب السيدة جاميسون إلى شلتنهام، وأشارت أكثر من مرة، بصراحة كبيرة، إلى أن ذلك كان صنيع السيد

مولينر الذي كان قد شعر بذعر شديد بسبب تعرض المنزل للهجوم، وقال بعد ذلك، أكثر من مرة، إنه يشعر بأنها مهمة ذات مسؤولية كبيرة أن يتعين عليه حماية عدد كبير إلى هذه الدرجة من النساء. على أي حال، ذهبت السيدة جاميسون إلى شلتنهام برفقة السيد مولينر، وبقيت الليدي غلينماير هي المسيطرة على المنزل، وكانت مهمتها الظاهرية هي الاهتمام بأن لا تكون للخادمات علاقات غرامية مع مُعجبين بهن. لقد كانت مثل تنّين ذي مظهر لطيف جداً. وما أن تم ترتيب أمر إقامتها في كرانفورد، حتى اكتشفتْ أن زيارة السيدة جاميسون إلى شلتنهام كانت أفضل شيء في العالم، حيث إنها كانت قد تخلت عن منزلها في إدنبره، وكانت في تلك الفترة بلا منزل، لذا فإن مهمة تعهُّد منزل سِلفتها المريح كانت مهمة ملائمة ومقبولة جداً.

كانت الآنسة بول تميل بشدة إلى تنصيب نفسها كبطلة، بسبب الخطوات المحددة التي اتخذتها في الهرب من الرجلين والمرأة، الذين أطلقت عليهم اسم «العصابة القاتلة». وقد وصفت مظهرهم بإعجاب شديد، ولحظتُ أنها في كل مرة استعرضت فيها القصة كانت تُضيف سمة جديدة من سمات الإجرام في مظهرهم. كان أحد الرجلين طويلاً - ثم نما ليُصبح عملاقاً في طوله قبل أن نكون قد طوينا صفحته، وكان شعره أسود بطبيعة الحال - وفي نهاية المطاف تسكع في خصل شعر ضفرتها جنيات متدلية من فوق جبينه، حتى أسفل ظهره. وكان الآخر قصيراً وعريضاً - ظهرت حدبة على كتفه قبل أن نسمع آخر وصف له. كان شعره أحمر تحول إلى أحمر أدكن، وكانت متأكدة تقريباً أن عينيه فيهما حَوَل طفيف - حوَل أكيد. أما بالنسبة إلى المرأة، فقد كانت عيناها متوهجتين، وكانت ذات ملامح ذكورية

- فحولة تامة. على الأغلب إنها كانت رجلاً يرتدي ملابس امرأة، وفيما بعد سمعنا بلحية على ذقنها، وصوت رجل وخطوات رجولية.

إذا كانت الآنسة بول مسرورة بسرد أحداث ما بعد ظهر ذلك اليوم لجميع المستفسرين، فقد كان غيرها غير فخورين بمغامراتهم في مجال السرقة. فقد تعرض السيد هوغينز، الجرّاح، لعملية سطو أمام باب منزله قام بها اثنان من الأشرار، كانا مستترين في عتمة الشرفة، وقاما بإسكاته بفاعلية كبيرة، إذ تمّت سرقته في الفترة بين قرعه للجرس وردِّ الخادم عليه. وكانت الآنسة بول متأكدة من أنه سوف يتضح أن هذه السرقة ارتكبها «رجالها»، وذهبت في اليوم الذي سمعت الخبر فيه، لفحص أسنانها، ولكي تستعلم من السيد هوغينز، ثم جاءت إلينا فيما بعد. وهكذا سمعنا ما سمعته هي، من المصدر نفسه بشكل مباشر، أمّا نحن فكنا ما نزال في حالة من الإثارة والهياج بسبب الاضطراب الذي سببته المعلومات الأولى، ذلك أن الحدث كان قد وقع في الليلة السابقة.

«حسناً!» قالت الآنسة بول ذلك وهي تجلس بعزم شخص اتخذ قراراً بشأن طبيعة الحياة والعالم (ومثل هؤلاء الأشخاص لا يسيرون باستخفاف، ولا يجلسون دون صدمة قوية)، «حسناً يا آنسة ماتي! الرجال سوف يظلون رجالاً. كلّ واحدٍ منهم يتمنى أن يُعتبَر شمشون وسليمان مجتمعَيْن في شخص واحد - أقوى من أن يُضرَب أو يُدحَر - ويتمتع بحكمة كبيرة فلا يمكن خداعه مطلقاً. وإذا لحظت، فقد كانوا يتوقعون الأحداث دائماً على الرغم من أنهم لا يُنذِرون أحداً بالخطر الداهم قبل وقوعِ الأحداث. لقد كان والدي رجلاً، لذا فأنا أعرف هذا الجنس جيداً».

تكلّمتْ حتى انقطع نفسها، ولا بد أننا كنا مسرورين جداً بملء التوقف الضروري مثل جوقة، لكننا لم نكن نعرف بالضبط ماذا نقول، أو من هو الرجل الذي اقترح هذا النقد اللاذع ضد ذلك الجنس. لذا فقد شاركنا بشكل عام فحسب، بهزة جدّية بالرأس، وبهمسة رقيقة فقلنا، «من المؤكد أنهم غامضون جداً!»

قالت، «فكِّرنَ فقط بأنني تعرضت هناك لخطر خلع أحد أضراسي المتبقية (فالمرء يكون تحت رحمة أي جرّاح - طبيب أسنان بشكل فظيع، وأنا أحدثهم دائماً بكلام معسول إلى أن أخرج فمي من قبضتهم)، وكذلك، على الرغم من كل شيء، فإن السيد هوغينز لديه من الرجولة ما لا يسمح له بالاعتراف بأنه تعرض للسرقة في الليلة السابقة».

صرخنا في جوقة، «لم يُسرَق!»

«لا تقلنَ ذلك!» صاحت الآنسة بول بذلك، غاضبة للسهولة التي يُمكن أن نُخدَع بها، وتابعت، «أعتقد أنه تعرض للسرقة، بالضبط كما أخبرتني بيتي، وهو يخجل من الاعتراف بذلك. ومن المؤكد أيضاً أن تعرضه للسرقة عند باب منزله بالضبط يدلّ على حمق منه. وأظن أنه يشعر بأنّ أمراً كهذا لن يرفعه في أعين مجتمع كرانفورد، وهو حريص على إخفائه - ولكنه لم يكن بحاجة إلى أن يحاول خِداعي بقوله إنني لا بدّ أن سمعت رواية مبالغاً فيها بسرقة تافهة لرقبة لحم ضأن، وهي التي يبدو أنها سُرِقت من صندوق في فناء منزله الأسبوعَ الماضي. وقد بلغ من الوقاحة أن أضاف إنه يعتقد أن قطاً هو الذي أخذها. ليس لدي أدنى شك، إذا تمكنتُ من فهم

الأمر فهماً كاملاً، في أنه كان ذلك الرجل الإيرلندي الذي كان يرتدي لباس امرأة وجاء يتجسس على منزلي بقصة الأطفال الذين كانوا يتضورون جوعاً».

بعد أن أدنّا على النحو الواجب ما أبداه السيد هوغينز من افتقاره إلى الصدق، وشتمْنا الرجالَ بشكل عام، على افتراض أنه ممثل لجنسه ونموذج له، فقد رجعنا إلى الموضوع الذي كنا نتحدث به عند دخول الآنسة بول. وعلى وجه التحديد، إلى أي مدى يمكننا، في حالة البلاد الحالية المضطربة، المجازفة بقبول دعوة كانت الآنسة ماتي قد استلمتها توّاً من السيدة فوريستر للحضور كالمعتاد في السّاعة الخامسة، للاحتفال بالذكرى السنوية لزواجها بشرب الشاي معها، وبلعب الورق في هدوء بعد ذلك. قالت السيدة فوريستر إنها طلبت منا ذلك على استحياء، لأنها كانت تخشى أن تكون الطرق خطرة جداً. ولكنها أشارت إلى أنه ربما لن تعترض واحدة منا على استئجار كرسيّ حمّال، وأن الأخريات قد يستطعن مواكبة خطوات حامِلَي الكرسيّ الطويلة من خلال المشي بهمة، فيمكننا هكذا الوصول جميعنا بأمان إلى «أوفر بليس»، وهي إحدى ضواحي البلدة. (لا. ذلك تعبير فضفاض جداً: مجموعة صغيرة من المنازل يفصلها عن كرانفورد ممرّ غير مطروق طولُه مائتا ياردة). لم يكن هناك أدنى شك في أن هناك إشعاراً مماثلاً كان في انتظار الآنسة بول في المنزل، لذا فقد كانت زيارتها القصيرة أمراً موفقاً جداً، حيث مكّنتنا من التشاور معاً. كنا نُفضل جميعنا رفض هذه الدعوة، لكننا شعرنا أن ذلك لن يكون أمراً لطيفاً للسيدة فوريستر التي كان هذا الرفض سيجعلها وحيدة تتأمل في ماضي حياتها غير السعيدة أو غير الموفقة. لقد كانت

الآنسة ماتي والآنسة بول زائرتين في هذه المناسبة سنوات عديدة، وقررتا الآن بشجاعة ألّا تستسلما مهما كلف الأمر، وأن تذهبا خلال الممرّ المظلم بدلاً من التقصير في إخلاصهما لصديقتهما.

اخترنا بالتصويت الآنسة ماتي للركوب في الكرسيّ، لأنها مصابة بنزلة برد. ولكن عندما جاء المساء، وقبل أن تُحجَز في الكرسيّ الحمّال، مِثل «جاك» في الصندوق، ناشدت الآنسة ماتي حامِلَي الكرسيّ ألا يهربا مهما حدث ويتركاها مربوطة في الكرسي لتلقى حتفها. وحتى بعد أن وعدا بذلك، رأيتها تشد ملامحها بالعزيمة الصارمة لمن يضحي بنفسه، وهزت لي برأسها من خلال الزجاج هزة تنم عن كآبة وشؤم، ومع ذلك وصلنا إلى هناك بأمان، لكننا كنا نلهث إلى حد ما، فقد هرولنا بسرعة كبيرة خلال الممرّ المظلم، وأخشى أن تكون الآنسة ماتي المسكينة قد تعرضت للارتجاج بشكل مؤسف.

كانت السيدة فوريستر قد أجرت ترتيبات إضافية، تقديراً منها لما بذلناه من جهد في حضورنا لزيارتها خلال مثل هذه المخاطر. وقد تم الالتزام بكافة الأنماط المعتادة لتقليد الجهل الأرستقراطي فيما يتعلق بما يمكن أن يُرسله خدمها. ساد الوئام وبدا أن لعبة بريفيرنس كانت هي برنامج الأمسية، لولا محادثة مثيرة للاهتمام لا أعرف كيف بدأت، لكن بلا ريب لها علاقة باللصوص الذين غزوا حيّ كرانفورد.

بعد أن واجهنا مخاطر ممرّ الظلام، وبالتالي كان لدينا مخزون قليل من سمعة تمتُّعنا بالشجاعة لكي نلجأ إليه، ولدينا كذلك، على ما أعتقد، رغبة في إثبات أننا متفوقات على الرجال (أي السيد

هوغينز) في بند الصراحة، بدأنا نتحدث بمخاوفنا الشخصية وبالاحتياطات الخاصة التي اتخذتها كل واحدة منا. اعترفتُ أن العينين هما أخشى ما أخشاه - عينان تنظران إليّ وتراقبانني، تلمعان من سطح خشبيّ مستوٍ جامد. واعترفتُ أيضاً أنني إذا تجرأت ونظرت في مرآتي عندما أكون مصابة بالذعر، فينبغي لي أن أديرها ليُصبح ظهرها مواجهاً لي، خشية رؤية عينين ورائي تنظران نحوي من الظلام. رأيت الآنسة ماتي تُشجع نفسها على تقديم اعتراف. وفي نهاية المطاف خرج الاعتراف. لقد اعترفت بأنها، منذ أن كانت فتاة صغيرة، كانت تخاف من أن يُمْسك بها من ساقها الخلفية، في اللحظة التي تدخل فيها إلى فراشها، شخصٌ مختبئٌ تحت الفراش. قالت إنها عندما كانت أصغر ونشيطة أكثر، كانت معتادة على القفز قفزة طيران من مسافة بعيدة، وهكذا كانت ترفع ساقيها كلتيهما معاً على السرير بأمان. إلا أن ذلك كان دائماً يُزعج ديبورا، التي كانت تتباهى بأنها كانت تدخل في فراشها بلطافة. وعليه، فقد توقفت عن فعل ذلك. ولكن الآن ينتابها الخوف القديم في أحيان كثيرة، على الأخص منذ السطو الذي تعرض له منزل الآنسة بول (تعيّن علينا تصديق وقوع عملية السطو تصديقاً تاماً)، ومع ذلك فكان من المزعج جداً التفكير في النظر تحت سرير ما ورؤية رجل مختبئ، له وجه ضخم قاسٍ يُحدِّق بك. لذا ذكّرَت نفسها بشيء - ربما لحظتُ أنها طلبت من مارثا أن تشتري لها كرة بنسات، كتلك التي يلعب بها الأطفال - والآن تُدحرج هذه الكرة تحت السرير كل ليلة: فإذا خرجت من الجهة الأخرى، فكل شيء جيد وعلى ما يرام، وإن لم تخرج، فقد كانت تحرص دائماً على أن تكون يدها على حبل الجرس،

وكان ما تقصده هو استدعاء جون وهاري، كما لو كانت تتوقع أن يرد على جرسها خدم من الرجال.

أثنينا جميعنا على الاختراع الذكي، واضطجعت الآنسة ماتي مسترخية في ارتياح صامت، مع نظرة نحو السيدة فوريستر كما لو كانت تطلب منها التحدّث بموطن ضعفها الخاص.

نظرت السيدة فوريستر شزراً نحو الآنسة بول، وحاولت أن تغير الموضوع قليلاً من خلال إخبارنا بأنها استعارت صبياً من الأكواخ المجاورة ووعدت والديه بقنطار من الفحم في عيد الميلاد، وبتقديم عشاء له في كل مساء، مقابل استعارته منهما في أوقات المساء. وكانت قد زودته، عندما جاءَ أوّل مرّة، بتعليمات بشأن واجباته المحتملة. وعندما وجدته لبيباً، منحته سيف الرائد (الرائد هو زوجها الراحل)، وطلبت منه أن يضعه بحرص تحت وسادته في الليل، وتوجيه نصله نحو مقدمة الوسادة. لقد كانت متأكدة من أنه كان صبياً فطناً، ذلك أنه قال لها عندما لحظ القبعة ذات القرنين، الخاصة بالرائد، «إذا كان بإمكانه أن يرتدي تلك القبعة، فهو متأكد من أن بإمكانه إخافة رجلين إنجليزيين، أو أربعة رجال فرنسيين في أي يوم. ولكنها وضّحت له مجدداً أنه ينبغي له ألّا يهدر وقتاً في ارتداء قبعات أو أيّ شيء آخر، ولكن إذا سمع أي صوت، فعليه أن يركض نحوه بهذا السيف مُستلّاً. وبشأن إشارتي بأنه من الممكن أن ينجم عن مثل هذه التوجيهات الفتّاكة والعشوائية وقوع بعض الحوادث، وأنه من الممكن أن يندفع هاجماً على «جيني» عندما تنهض لغسل الملابس، وأن يضربها قبل أن يكتشف أنها ليست الرجل الفرنسي، قالت السيدة فوريستر إنها لم تكن تعتقد أن ذلك كان أمراً محتملاً حيث إن

نومه كان عميقاً جداً، وغالباً ما يكون من الضروري هزّه بعنف أو رشّ الماء البارد عليه في الصباح قبل أن يتمكنوا من إيقاظه. واعتقدتْ في بعض الأحيان أن مثل هذا النوم العميق جداً لا بد أن يكون ناجماً عن وجبات العشاء الكبيرة التي كان يأكلها بنهم الصبيُّ المسكين، فقد كان يوشك أن يموت جوعاً في منزله، وطلبتْ من جيني أن تفعل ما يلزم لكي يتناول وجبة جيدة في الليل.

إلا أن ذلك لم يكن اعترافاً بخوف السيدة فوريستر المميز، وقد قمنا بحثّها على إخبارنا بما كانت تعتقد أنه يمكن أن يخيفها أكثر من أي شيء آخر. توقفتْ قليلاً، وحركت الجمر، وأزالت الأجزاء المحترقة من فتيل الشمعات، ثم قالت، في همس رنان :

«الأشباح!»

نظرتْ إلى الآنسة بول، كما لو أرادت أن تقول إنها صرحت بالأمر وسوف تلتزم به. كانت تلك النظرة تشكّل تحدّياً في حدّ ذاتها، فعاقبتْها الآنسة بول بالتحدث بالتخمة والأوهام الطيفية والأوهام البصرية، إضافة إلى الكثير جداً من كلام الدكتور فيريير والدكتور هيبرت. وقد كان لدى الآنسة ماتي ميل إلى الأشباح إلى حدّ ما، كما ذكرتُ سابقاً، وكان القليل الذي قالته كله في صالح السيدة فوريستر، التي احتجت، مستمدة الجرأة من التعاطف، قائلة إن الأشباح جزء من الدين، وأنها تعرف بالتأكيد ما يُفترض أن تخاف منه وما لا ينبغي لها أن تخاف، نظراً إلى أنها أرملة رائد في الجيش. باختصار، لم أرَ السيدة فوريستر غاضبة إلى هذه الدرجة قطُّ، لا قبل ذلك ولا بعده، ذلك أنها كانت سيدة مسنّة حليمة ولطيفة ووديعة في معظم

الأمور. لم يستطع كل نبيذ البيلسان المُحلّى والمتبّل أن يمحوَ في هذه الليلة ذكرى هذا الاختلاف بين الآنسة بول ومُضيفتها. وفي الواقع إنه عندما أُحضِرَ نبيذ البيلسان، فقد أدى ذلك إلى اندلاع هَبّة جديدة من النقاش. حيث إنه تعين على جيني، وهي الخادمة الصغيرة التي كانت تترنح تحت الصينية، أن تقدِّم دليلاً على رؤيتها شبحاً بأم عينيها، منذ ليالٍ معدودة، في ممرّ الظلام، ذلك الممر ذاته الذي ينبغي لنا أن نمرّ خلاله في طريقنا إلى المنزل.

على الرغم من الشعور المزعج الذي سببته لي تلك الفكرة الأخيرة، فلم يكن في وسعي منع نفسي من الابتسام على وضع «جيني»، التي كانت مثل شاهد يقوم باستجوابه وإعادة استجوابه محاميان لا يتورعان على الإطلاق عن طرح أسئلة مُصوغة بطريقة توحي بالجواب. والنتيجة التي توصلتُ إليها هي أن «جيني» كانت بالتأكيد قد رأت شيئاً ما يتجاوز ما يمكن أن تكون قد سببته نوبة عسر هضم. فكانت الإفادة التي أدلت بها هي أنها رأت امرأة دون رأس متوشحة بملابس بيضاء، وتمسكت بتلك الإفادة التي دعمتها سيدتُها بشعور من التعاطف المستتر، تحت تأثير الاستخفاف المُخجل الذي قابلتها به الآنسة بول. وليس هي فحسب، بل كثير غيرها شاهدوا هذه المرأة التي بلا رأس، والتي كانت تجلس على جانب الطريق تفرك يديها كما لو كانت محزونة بشدة. كانت السيدة فوريستر تنظر إلينا بين الفينة والأخرى نظرات تنم عن شعور بالنصر. ولكنّها لم تكن لتمرّ خلال ممرّ الظلام قبل أن تتمكن من دس نفسها تحت أغطية فراشها المألوفة.

حافظنا على صمت حذر فيما يتعلق بالمرأة التي بلا رأس في أثناء ارتدائنا معاطفنا للذهاب إلى المنزل، ذلك أننا لم نكن نعرف إلى أيّ مدى يمكن أن يكون رأس الشبح وأذناه قريبين، أو ما هي الصلة الروحية التي يمكن أن يكون محتفظاً بها مع الجسد الحزين في ممر الظلام. ولذلك، حتى الآنسة بول شعرت أيضاً أنه ليس من المستحسن التحدث باستخفاف بمواضيع كهذه، خشية إغضاب ذلك الجذع المكروب أو إهانته. على الأقل كان ذلك هو تقديري، فبدلاً من الثرثرة المتواصلة المعتادة في أثناء هذه العملية، فقد ربطنا معاطفنا على نحو حزين كما لو أننا كنا في جنازة، وسحبت الآنسة ماتي الستائر حول نوافذ الكرسيّ الحمّال من أجل حجب المشاهد البشعة، وانطلق الرجلان بوتيرة نشطة ومرحة (إما لأن معنوياتهما كانت مرتفعة لأن خدمتهما كانت توشك أن تنتهي، وإما لأنهما كانا يسيران في منحدر)، إلى درجة أنني بذلتُ والآنسة بول كل ما في وسعنا لمجاراتهما. ولم تكن لديها أنفاس تمكّنها من فعل أي شيء آخر سوى المناشدة، «لا تتركيني!» نطقتها في أثناء تشبثها بذراعي بإحكام إلى درجة أنه لم يكن في إمكاني التحرر منها سواء كان هناك شبح أم لا. ويا له من ارتياح عندما توقف الرجلان، المرهقان بحمولتهما وهرولتهما السريعة، في المكان الذي يتفرع فيه ممرّ هيدينغلي كوزوي الممهّد من ممرّ الظلام! حلّت الآنسة بول قبضتها عن ذراعي وأمسكت بأحد الرجلين:

«ألا تستطيعان - ألا تستطيعان حمل الآنسة ماتي في ممرّ هيدينغلي كوزوي؟ - إن البلاط في ممرّ الظلام يُخضخض كثيراً، وهي ليست قوية جداً».

سُمِع صوت مخنوق من داخل الكرسي الحمّال:

«أوه! أرجوكما واصلا المسير! ما الأمر؟ ما الأمر؟ سوف أعطيكما ستة بنسات أخرى لكي تمضيا بسرعة كبيرة. أرجوكما لا تتوقفا هنا».

«وأنا سوف أعطيكما شلنين إذا ذهبتما خلال ممر هيدينغلي كوزوي». قالت الآنسة بول ذلك بوقار وهي ترتعش.

رضخ الرجلان بتذمر وحملا الكرسي، ومضيا في الممر الممهد، ما مثَّل بالتأكيد استجابة لغرض الآنسة بول اللطيف في عدم إيذاء عظام الآنسة ماتي، ذلك أن الممرّ الممهد كان مُغطى بطين طريّ سميك، وحتى السقوط هناك كان من الممكن أن يكون سهلاً إلى أن جاء الصعود، حيث كان من الممكن أن يكون هناك بعض الصعوبة في التخلص من خطر.

* * *

11

صموئيل براون

في اليوم التالي، قابلتُ الليدي غلينهاير والآنسة بول وهما تشرعان في الذهاب مشياً لمسافة طويلة من أجل العثور على امرأة مسنّة في الحي، مشهورة بمهارتها في حياكة الجوارب الصوفية. وقالت لي الآنسة بول، وفي محياها ابتسامة نصف لطيفة ونصف ساخرة، «كنتُ توّاً أحدِّث الليدي غلينهاير بأمر صديقتنا السيدة فوريستر ورعبها من الأشباح. إنه ناجم عن عيشها وحدَها فترة طويلة، وعن الاستماع إلى قصص الرعب الخيالية من جيني». كانت هي نفسها هادئة جداً وأسمى جداً من المخاوف الخرافية إلى درجة أنني شعرتُ ببعض الخجل من أن أقول إنني كنت مسرورة جداً باقتراحها من أجل ممرّ هيدينغلي كوزوي في الليلة الماضية، وحوّلت المحادثة إلى شيء آخر.

في فترة ما بعد الظهر، جاءت الآنسة بول في زيارة قصيرة إلى الآنسة ماتي لكي تُحدثها بالمغامرة - المغامرة الحقيقية التي واجهتاها في مسيرتهما الصباحية. لقد كانتا محتارتين بشأن المسار الصحيح الذي عليهما أن تختارا السير فيه، من أجل العثور على السيدة العجوز التي تعمل بالحياكة، وكانتا قد توقفتا للاستفسار عند نُزُل صغير على

جانب الطريق، قائم على الطريق السريع إلى لندن، ويبعد مسافة ثلاثة أميال عن كرانفورد. طلبتْ منهما المرأة الطيبة أن تجلسا وتريحا نفسيهما في أثناء إحضارها لزوجها، الذي يستطيع توجيههما أفضل مما تستطيع هي. وعندما كانتا جالستين في ردهة مغطاة بالرمل، دخلت فتاة صغيرة وظنتا أنها ذات صلة بصاحبة النُزُّل، وبدأتا بالحديث معها حديثاً عابثاً. ولكن، عند عودة السيدة روبرتس، أخبرتهما أن تلك الفتاة الصغيرة كانت الطفلة الوحيدة لزوجين يقيمان في النُزُّل. ثم أخذت تروي قصة طويلة لم تستطع الليدي غلينماير والآنسة بول أن تستشفا منها سوى بضع حقائق واضحة، وهي أنه منذ ستة أسابيع، تقريباً، تعطلت عربة خفيفة ذات نوابض أمام باب منزلهم بالضبط، وكان في العربة رجلان وامرأة وهذه الطفلة. أصيبُ أحد الرجلين بجروح خطيرة - لا كسورَ في العظام - لقد «ترجرجت» فحسب، هكذا وصفتها صاحبة النُزُّل. ولكنه ربما كان قد أُصيب إصابة داخلية شديدة، ذلك أنه يعاني في نُزُلهم من هزال، منذ ذلك الحين وتعتني به زوجته، أم الفتاة الصغيرة. سألت الآنسة بول ماذا كان يعمل وكيف كان يبدو. وأجابت السيدة روبرتس قائلة إنه لم يكن مثل رجل محترم، ومع ذلك لم يكن مثل شخص عادي. ولولا حقيقة أنه لم يكن هو وزوجته شخصين مهذبين وهادئين جداً، لكان من الممكن أن تفكر فوراً أنه كان دجالاً، أو شيئاً من هذا القبيل، ذلك أن لديهما صندوقاً ضخماً في العربة، مليئاً بأشياء لا تعرف ما هي. لقد ساعدتْ في تفريغه، وإخراج بياضاتهم وملابسهم، عندما غادر الرجل الآخر - أخوه التوأم حسب ظنها - بالحصان والعربة.

بدأت شكوك الآنسة بول تُثور في هذه المرحلة، وعبّرت عن فكرتها في أن اختفاء الصندوق والعربة والحصان وكل شيء يعدّ أمراً غريباً إلى حد ما. ولكن بدا أن السيدة روبرتس أصبحت ساخطة تماماً على ما أشارت إليه الآنسة بول ضمنياً. في الواقع، قالت الآنسة بول إنها كانت غاضبة كما لو كانت الآنسة بول قد قالت لها إنها محتالة هي نفسها. وكأفضل طريقة لإقناع السيدتين، فكرتْ في مناشدتها مقابلة الزوجة. وكما قالت الآنسة بول، لم يكن هناك أدنى شك في وجه المرأة المُسمَرّ المُنهك الصادق، فقد أجهشت بالبكاء مع أول كلمة رقيقة من الليدي غلينماير، وهو ما لم تقوَ على كبحه إلى أن جعلتها بضع كلمات من صاحبة النُّزُل تكتم نشيجها لكي تشهد الكرم المسيحي الذي أظهره السيد والسيدة روبرتس. تحولت الآنسة بول بسرعة كبيرة إلى إيمان متحمس في القصة الحزينة بقدر ما كانت متشككة من قبل. ودليلاً على ذلك، فإن نشاطها في سبيل الرجل المسكين المُصاب لم يتأثر على الإطلاق، عندما اكتشفت أنه لم يكن سوى السينيور برونيوني، الذي كان جميع سكان كرانفورد ينسبون إليه كل أشكال الشر في هذه الأسابيع الستة الماضية! نعم، قالت زوجته إن اسمه الصحيح هو صموئيل براون - أسمته «سام» - لكنّنا فضلنا تسميته «السينيور» حتى آخر لحظة، فقد بدا ذلك أفضل كثيراً.

كانت نهاية حديثهما مع السينيورة برونيوني الاتفاق على أنه من الأفضل أن يخضع لمشورة طبية، وبالنسبة إلى أيّة تكلفة يتم تكبدها في توفير هذه المشورة الطبية، فقد وعدت الليدي غلينماير بأن تتحمل مسؤوليتها هي بنفسها. ومن أجل ذلك، ذهبتْ إلى السيد هوغينز لتناشده أن يذهب إلى نُزُل «رايزينغ صن» بعد ظهر ذلك

اليوم، وأن يفحص حالة السينيور، وكذلك، كما قالت الآنسة بول، أن يُنقَل إلى كرانفورد ليكون تحت إشراف السيد هوغينز المباشر، إذا كان ذلك ضرورياً، وسوف تتعهد بالقيام بما يلزم لترتيب أمر الإيجار. وكانت السيدة روبرتس لطيفة إلى أقصى درجة طوال الوقت، إلا أنه كان من الواضح أن إقامتهما الطويلة هناك كانت مزعجة إلى حد ما.

قبل أن تتركنا الآنسة بول، كنتُ والآنسة ماتي متوتّرتين من المغامرة الصباحية بقدر ما كانت هي متوتّرة. تحدثنا بكلّ ما وقع فيها في المساء، ونظرنا إليها من كل جانب ممكن، وذهبنا إلى الفراش ونحن توّاقتان إلى الصباح، حيث كان يُفترَض أن نسمع من أحدهم ما الذي فكر فيه السيد هوغينز وفيمَ أوصى، فكما لحظت الآنسة ماتي، على الرغم من أن السيد هوغينز قال «رفع للأعلى بالرافعة»، و«تين لكعبيه»، وسمى بريفيرنس «بريف»، إلا أنها تعتقد أن الرجل فاضل جداً وجرّاح ذكيّ جداً. في الواقع إننا كنا فخورين إلى حد ما بطبيبنا في كرانفورد، بوصفه طبيباً، وكثيراً ما تمنينا، عندما سمعنا بإصابة الملكة أديلايد أو دوق ويلينغتون بمرض، أن يُرسِلا في طلب السيد هوغينز. ولكننا، عند التفكير في الأمر، كنا سعداء إلى حدّ ما بأنهما لم يفعلا ذلك، فماذا عسانا أن نفعل إذا مرضنا وكان السيد هوغينز قد تم تعيينه طبيباً بوظيفة ثابتة لدى الأسرة المالكة؟ كنا فخورين به جرّاحاً، ولكن بوصفه رجلاً - أو بالأحرى، يُفترض أن أقول، بوصفه رجلاً محترماً - كان بإمكاننا أن نهزّ رؤوسنا على اسمه وعليه هو نفسه فحسب، وتمنينا لو أنه كان قد قرأ رسائل اللورد تشيترفيلد في الوقت الذي كان سلوكه قابلاً للتحسن. ومع ذلك، فقد اعتبرنا جميعنا قوله الفصل في حالة السينيور ومنزّهاً عن الخطأ،

وعندما قال إنه من الممكن أن يستردّ عافيته مع الرعاية والاهتمام، لم يعد لدينا خوف عليه.

ولكن، على الرغم من أنه لم يعد لدينا خوف عليه، فقد تصرف الجميع كما لو كانت هناك علّة خطيرة تدعو إلى القلق - كما كان الحال فعلياً قبل أن يتولى السيد هوغينز مسؤولية الإشراف عليه. وقد اختارت الآنسة بول مسكناً نظيفاً ومريحاً وإن كان بسيطاً. وأرسلت الآنسة ماتي الكرسيّ الحمّال من أجله، وقبل أن يُنقَل الكرسيّ من كرانفورد، قمتُ ومارثا بتهويته جيداً من خلال حمل وعاء تدفئة مليء بالجمر، ثم إغلاقه جيداً، مع الدخان وكل شيء، إلى أن يأتي الوقت الذي يُفترض أن يجلس فيه عند نُزُل «رايزينغ صن». أخذت الليدي غلينماير على عاتقها الأمور الطبية بتوجيه من السيد هوغينز، وبعثرتْ جميع الأقداح والملاعق ومناضد الأسرَّة الطبية الخاصة بالسيدة جاميسون بكل أريحية وبلا رسميات، ما جعل الآنسة ماتي تشعر ببعض القلق فيما يتعلق بما يمكن للسيدة والسيد مولينر قوله، إن عرفا بالأمر. وأعدّت السيدة فوريستر بعضاً من خبز الهلام، الذي كانت تشتهر به كثيراً، لكي يكون جاهزاً بوصفه وجبة طعام خفيفة في المسكن عند وصوله. وتعدّ الهدية من خبز الهلام هذه علامة على أكبر معروف يمكن أن تجود به السيدة فوريستر العزيزة. وطلبت منها الآنسة بول ذات مرة الوصفة، لكنها قابلتها بصدّ حازم جداً، وقالت لها تلك السيدة إنه لا يمكنها التنازل عنها لأي شخص في حياتها، وأنها كانت ستورَّث بعد مماتها إلى الآنسة ماتي، كما سيكتشف منفذو الوصية. وهي لا تعرف ما قد تختار عمله الآنسة ماتي، أو الآنسة ماتيلدا جينكينز، كما أسمتها السيدة فوريستر

(متذكرة البند في وصيتها وهَيْبَة المناسبة)، بالوصفة عندما ستنتقل ملكيتها إليها -سواء بجعلها عامة، أم بتوريثها كتركة- ولن تملي عليها ما ينبغي أن تفعله بها. وقد أرسلت السيدة فوريستر قالباً من خبز الهلام الفريد وسهل الهضم والرائع إلى مشعوذنا المسكين المريض. من ذا الذي يقول إن الأرستقراطيين متعجرفون؟ فها هي سيدة من أسرة تيريل نسباً، وتحدرت من السير والتر العظيم الذي أطلق النار على الملك روفوس، والذي جرت في عروقه دماء ذلك الذي قتل الأمراء الصغار في البرج، ها هي تذهب كل يوم لترى ما هي الأطباق الشهية التي تستطيع أن تعدّها لصموئيل براون، وهو مشعوذ! ولكن، في الواقع، كان من الرائع رؤية المشاعر الرقيقة التي استدعاها مجيء هذا الرجل المسكين بيننا. ومن الرائع أيضاً رؤية كيف أن ذعر كرانفورد الكبير، الذي نجم عن قدومه أول مرة في ثوبه التركي، قد تلاشى فجأة عند مجيئة الثاني - شاحباً وواهناً، وبعينيه الرقيقتين الثقيلتين، اللتين كانتا تتألقان قليلاً جداً فحسب عندما تقعان على ملامح وجه زوجته المخلصة، أو على فتاتهما الصغيرة الشاحبة والحزينة.

بطريقة ما، نسينا جميعنا أن نشعر بالخوف. لقد اكتشفنا أن الرجل الذي أثار ولعَنا بالأشياء الخارقة في البداية بواسطة فنونه الفريدة، كان يفتقر إلى ما يكفي من مهارات الحياة اليومية لتدبر أمر حصان جَفول. ويمكنني القول إن ذلك الاكتشاف هو ما جعلنا نشعر كما لو أننا استعدنا أنفسنا مرة أخرى. كانت الآنسة بول تأتي وهي تحمل سلتها الصغيرة في كل ساعات المساء، كما لو أن منزلها المنعزل والطريق غير المطروق إليه لم يتعرضا قطُّ للغزو المستمرّ من «عصابة القتلة». وقالت السيدة فوريستر إنها تعتقد أنه ما من داعٍ إلى

أن تكترث هي أو «جيني» بالمرأة التي بلا رأس، والتي كانت تبكي وتندب في ممرّ الظلام، ذلك أنه من المؤكد أن تلك الكائنات لم تُمنَح قطُّ القدرة على إيذاء أولئك الأشخاص الذين يسعون إلى محاولة القيام بالقليل من الخير الذي كان في مقدورهم فعله، ووافقت جيني على ذلك وهي ترتجف. إلا أنه لم يكن لنظرية سيدتها أثر يُذكر في ممارسات الخادمة إلى أن قامت بخياطة قطعتين من الفلانيلا الحمراء بشكل صليب على ردائها الداخلي.

وجدتُ الآنسة ماتي تُغطي كرة البنسات - الكرة التي كانت تدحرجها تحت سريرها - بنسيج صوفي ذي ألوان زاهية مخططٍ بقوس قزح.

قالت، «يا عزيزتي، إن قلبي حزين على «فويب» تلك الطفلة الصغيرة المهمومة. على الرغم من أن والدها مشعوذ، إلا أنها تبدو كما لو أنه لم يسبق لها قطُّ أن حصلت على لعبة جيدة في حياتها. كنتُ أصنع كرات جميلة جداً بهذه الطريقة عندما كنت فتاة صغيرة، وفكرتُ في محاولة تغطية هذه الكرة بطريقة أنيقة وفي أخذِها إلى فويب بعد ظهر هذا اليوم. أعتقد أنه لا بد أن تكون 'العصابة' قد غادرت الحي، ذلك أن المرء لم يعد يسمع الآن بعنفهم وسرقاتهم».

كنا جميعنا منشغلات جداً بحالة السينيور المتزعزعة إلى درجة تمنعنا من التحدث بشأن اللصوص أو الأشباح. وفي الواقع إن الليدي غلينماير قالت إنها لم تسمع قطُّ بأيّ سرقات حقيقية، باستثناء ذلكما الصبيّين الصغيرين اللذين سرقا بعض التفاحات من بستان فارمر بينسون، وأن بعض البيض قد فُقِد من كشك «ويدو هايوارد»

في يوم السوق. ولكن ذلك كان يعني توقع الكثير جداً منا، فلا يمكننا الاعتراف بأن كل مخاوفنا كانت قائمة على هذا القدر الضئيل من الأساس فحسب. رفعت الآنسة بول نفسها رداً على هذا التعليق الذي أبدته الليدي غلينماير، وقالت «إنها كانت تتمنى أن تتفق معها بخصوص الدافع الضئيل جداً إلى ذعرنا، ولكن مع تذكّر الرجل المتنكر على هيئة امرأة، حاول الدخول عنوة إلى منزلها في أثناء انتظار شركائه في الخارج، إضافة إلى المعرفة التي حصلت عليها السيدة غلينماير نفسها من آثار الأقدام التي شوهدت على حوافّ أزهار السيدة جاميسون، ومع الحقيقة الماثلة أمامها، وهي السرقة الجريئة التي تعرض لها السيد هوغينز أمام باب منزله» - ولكن هنا قاطعت الليدي غلينماير في تعبير قوي جداً عن الشك بشأن ما إذا لم تكن هذه القصة الأخيرة كلّها سوى قصة ملفقة وقائمة على سرقة نفذتها هِرَّة، واحمرّ وجهها كثيراً في أثناء قولها كل هذا إلى درجة أنني لم تفاجئني الطريقةُ التي شعرتْ فيها الآنسة بول بالإساءة، وأنا متاكدة من أنه لو لم تكن الليدي غلينماير «السيدة النبيلة»، لكان من الممكن أن تكون هناك مواقف حاسمة متباينة أكثر من «حسناً، من غير ريب!» وغيرها من الأقوال المجزأة المفاجئة المماثلة التي كانت هي كل ما تجرأت عليه في حضور الليدي. ولكن عندما كانت قد غادرت، بدأت الآنسة بول بتهنئة الآنسة ماتي تهنئة طويلة لأنهما نجتا حتى الآن من الزواج الذي لحظت أنه يجعل الناس دائماً ساذجين إلى أقصى درجة. وفي الواقع إنها اعتقدت أن المرأة إذا لم تستطع منع نفسها من الزواج، فذلك دليل على سذاجة طبيعية كبيرة. ولدينا فيما قالته الليدي غلينماير في السرقة التي تعرض لها السيد هوغينز نموذج لما

يُصبح عليه الناس عندما يستسلمون لنقطة الضعف هذه. ومن الواضح أن الليدي غلينماير يمكن أن تُصدق أي شيء إذا كانت قادرة على تصديق القصة البائسة الملفقة في رقبة الضأن والهرة، تلك التي حاول السيد هوغينز أن يخدع الآنسة بول بها، ولكنها كانت دائماً حذرة من تصديق أكثر مما ينبغي مما يقوله الرجال.

كنا نشعر بالامتنان، كما أرادت الآنسة بول أن نكون، لأننا لم نتزوج. ولكنني أعتقد أننا كنا نشعر أيضاً بالامتنان أكثر لأن اللصوص كانوا قد غادروا كرانفورد. وقد قدَّرتُ ذلك على الأقل من كلام قالته الآنسة ماتي في ذلك المساء في أثناء جلوسنا قرب النار، ذكرتْ فيه أنها تنظر إلى الزوج بوصفه حامياً من اللصوص ومن الذين يسطون على المنازل ليلاً ومن الأشباح. وقالت إنها لم تكن تفكر أن عليها تحذير الشباب دائماً من الزواج، كما كانت الآنسة بول تفعل باستمرار، فمن المؤكد أن الزواج ينطوي على مخاطرة، كما ترى هي الآن بعد أن أصبحت لديها بعض الخبرة. ولكنها كانت تتذكر الوقت الذي كانت تتطلع فيه إلى أن تكون متزوجة بقدر تطلّع أي شخص آخر.

«لم يكن هناك أي شخص معين يا عزيزتي». قالت ذلك بسرعة مُراجِعة نفسها كما لو كانت خائفة من أن تكون قد اعترفت بما هو أكثر من اللازم. وتابعت، «القصة القديمة فحسب، كما تعلمين، في قول النساء دائماً، 'عندما أتزوج'، وقول الرجال المحترمين، 'إذا تزوجتُ'». لقد كانت طرفة قيلت بنبرة حزينة إلى حد ما، وأشك أن تكون أي منا قد ابتسمت. ولكن لم يكن بإمكاني رؤية وجه الآنسة ماتي من خلال ضوء النار الوامض. وتابعتْ بعد قليل :

«ولكن، على الرغم من كل شيء، لم أخبرك بالحقيقة. لقد كان ذلك منذ أمد بعيد، ولم يعرف أحد قطُّ كم فكرت في الأمر في ذلك الوقت، إلا إذا خمنت والدتي العزيزة. ولكن يمكنني القول إنه كان هناك وقت لم أفكر فيه أنني ينبغي لي أبقى الآنسة ماتي جينكينز طوال حياتي. ذلك أنني حتى لو التقيتُ بأي شخص يرغب في الزواج بي الآن (وكذلك، على حد قول الآنسة بول، لا تكون المرأة آمنة جداً مطلقاً)، فما كنت سأتزوجه - آمل ألا يتأثر بذلك كثيراً، ولكن لا يمكنني أن أقبل به - أو بأي رجل آخر سوى الرجل الذي فكرتُ ذات مرة أنني ينبغي لي أن أكون زوجته. وقد توفي الآن ولم يعد عائشاً، وهو لم يعلم قطُّ ما الذي جرى فجعلني أقول 'لا'، بعد أن فكرت مرات ومرات عديدة - حسناً، لا يهم ما فكرت فيه، قَدَّرَ الرب كل شيء، وأنا سعيدة جداً يا عزيزتي. ليس لأحد صديقات لطيفات مثلي». قالت ذلك، وهي تأخذ يدي وتمسكها بيدها.

لو لم أتعرف قطُّ إلى السيد هولبروك، لكان بإمكاني أن أقول شيئاً في هذا التوقف الوجيز، ولكن نظراً إلى أنني تعرفتُ إليه، فلم أستطع أن أقول أيَّ شيء يمكن أن يُقال بطريقة طبيعية، لذا فقد التزمتْ كلتانا الصمت بعض الوقت.

قالت، «جعلنا والدي ذات مرة نحتفظ بدفتر مذكرات في عمودين. كان يتعين علينا أن ندون داخل أحد العمودين في الصباح ماذا نعتقد أنه ستكون عليه مجريات اليوم القادم وأحداثه. وفي الليل، كان علينا أن ندون في العمود الثاني ما الذي حدث فعلياً. بالنسبة إلى بعض الناس، قد تكون تلك طريقة محزنة لسرد أحداث حياتهم»، (سقطت دمعة على يدي عند نطق هذه الكلمات) - «لا أعني أن

حياتي كانت حزينة، لمجرد أنها كانت مختلفة جداً عما توقعت. أذكر أنني، في إحدى أمسيات الشتاء، كنت جالسة قرب نار غرفة نومنا مع ديبورا - أتذكّرها كما لو كانت بالأمس - وكنا نضع خطط حياتنا المستقبلية، كنا كلتانا نخطط، على الرغم من أنها هي مَن تحدثت بذلك فحسب. قالت إنها كانت ترغب في الزواج من رئيس شمامسة، وأن تكتب توجيهاته. وأنت تعرفين، يا عزيزتي، أنها لم تتزوج قطُّ، وعلى حد علمي، لم تتحدث قطُّ مع رئيس شمامسة غير متزوج طوال حياتها. لم أكن طموحاً قطُّ، ولم يكن في إمكاني كتابة توجيهات، ولكن أعتقد أنني كنت قادرة على تدبير أمور منزل (كانت أمي تطلق عليّ لقب يدها اليمنى)، وكنت دائماً مغرمة جداً بالأطفال الصغار - كان الأطفال الأكثر خجلاً يمدون أذرعهم الصغيرة لكي يأتوا إليّ. وعندما كنت فتاة شابة، كنتُ أمكث نصف وقت فراغي في الرعاية في الأكواخ المجاورة. ولكنني لا أعرف كيف كان الأمر، عندما أصبحت حزينة وعابسة -وهو ما فعلته بعد سنة أو سنتين من هذا الوقت- ابتعدت الأمور الصغيرة عني، وأخشى أنني فقدت المهارة، على الرغم من أنني مغرمة بالأطفال تماماً كما كنت دائماً، وأشعر بتوق غريب في أعماق نفسي كلما رأيت أمّاً مع طفلها بين ذراعيها. كلا يا عزيزتي» (ورأيت، من خلال لهيب مفاجئ شبّ بفعل سقوط قطع جمر غير محرَّكة، أن عينيها كانتا مغرورقتين بالدموع - تحدّقان باهتمام شديد إلى تخيّل ما كان من الممكن أن يكون)، «هل تعلمين أنني أحلم في بعض الأحيان أنّ لديّ طفلة -دائماً نفسها- طفلة صغيرة عمرها حوالى سنتين، وأنها لا تكبر مطلقاً، على الرغم من أنني حلمتُ بها على مدى سنوات عديدة. لا أعتقد أنني حلمت قطُّ

بأي كلمات أو أصوات تُصدرها. إنها هادئة جداً وصامتة، لكنها تأتي إليّ عندما تكون حزينة جداً أو مسرورة جداً، وكنتُ أستيقظ من التفاف ذراعيها الصغيرتين الغاليتين حول عنقي. الليلة الماضية - ربما لأنني ذهبت للنوم وأنا أفكر في هذه الكرة من أجل «فويب» - جاءتني صغيرتي الغالية في حلمي، وأعدّت فمها لكي أقبّلها، تماماً كما رأيت الأطفال الحقيقيين يفعلون لأمهات حقيقيات قبل الذهاب إلى الفراش. ولكن كل هذا هو مجرد هراء، يا عزيزتي! المهمّ: لا تكوني خائفة من الزواج بسبب الآنسة بول. يمكنني أن أتخيّل أنه من الممكن أن يكون وضعاً سعيداً جداً، وقليل من السذاجة، يساعد المرء على الحياة بسلاسة كبيرة، أفضل دائماً من الشك والشك ورؤية الصعوبات ورفض كل شيء».

إذا كان لديّ مَيْل إلى أن أكون خائفة من الزواج، فليست الآنسة بول هي من تسببت به. بل لا بد أن يكون قد تسبب به مصير المسكين سينيور برونيوني وزوجته. ومع ذلك، لقد كان مُشجعاً رؤية كيف كان أحدهما يفكر في قرينه وليس في نفسيهما، على الرغم من كل معاناتهما وأحزانهما. وكم كان فرحهما شديداً لمجرد أن تصادفا أو مرّا بالصغيرة فويب.

أخبرتني السينيورة ذات يوم بالكثير من حياتهما حتى تلك الفترة. وبدأ الأمر بسؤالها عما إذا كانت قصة الآنسة بول في الأخوين التوأمين صحيحة. لقد بدا الشبه عجيباً جداً، إلى درجة أنه كان من الممكن أن تكون لديّ شكوكي لو لم تكن الآنسة بول غير متزوجة. ولكن السينيورة، أو السيدة براون (كما اكتشفنا أنها تُفضل أن تُدعى) قالت إنه كان صحيحاً تماماً، إلى درجة أن الكثيرين كانوا

يظنون أن أخا زوجها هو زوجها، وهو أمر ساعدهم كثيراً في مهنتهم. وتابعت، «لا يمكنني تصور كيف يمكن للناس أن يحسبوا أن توماس هو السينيور برونيوني الحقيقي. إلا أنه يقول إنهم يفعلون ذلك، لذا أعتقد أنني ينبغي لي أن أصدقه. إنه بالتاكيد رجل طيب جداً. إنني متاكدة من أننا لا نعرف كيف كنا سنسدد فاتورتنا في نُزُل 'رايزينغ صن' لولا النقود التي يُرسلها. ولكن لا بد أن تكون معرفة الناس من حقائق الفن وخفاياه قليلة جداً إذا كانوا يحسبون أنه زوجي. آه، يا آنسة، في لعبة الكرة، حيث يبسط زوجي أصابعه بسطاً كاملاً، ويمد إصبعه الصغيرة في رونق وبهاء كبيرين، أمّا توماس فيقوم بجمع يده مثل قبضة فحسب، ومن الممكن أن يكون مخبّأً فيها عددٌ كبير من الكرات. إضافة إلى ذلك، فهو لم يذهب إلى الهند قطُّ، ولا يعرف أي شيء من الوضع المناسب للعمامة».

قلتُ وأنا مندهشة إلى حدّ ما، «هل سبق لكِ أن أقمتِ في الهند؟»

«أوه، نعم! سنوات عديدة يا سيدتي. كان سام رقيباً في الكتيبة الواحدة والثلاثين. وعندما أُمِرَت الكتيبة بالذهاب إلى الهند، خططتُ كثيراً لكي أذهب، وكنت ممتنة أكثر مما يمكنني أن أعبر عنه. ذلك أنه بدا لي أن مفارقة زوجي لم تكن سوى موت بطيء بالنسبة إليّ. ولكن، في الواقع، يا سيدتي، لو كنتُ أعرف كل شيء، فلا أعرف ما إذا كنت قد فضَّلتُ أن أموت هناك، وفي ذلك الوقت كان عليّ القيام بكل ما قمتُ به منذ ذلك الحين. لقد كنت قادرة على مواساة سام، وأن أكون معه. ولكن، يا سيدتي، فقدتُ هناك ستة أطفال». قالت ذلك وهي تنظر إليّ بتلك العيون الغريبة التي لم ألحظها سوى في

عيون أمهات لهنّ أطفال ماتوا - وفيهما نظرة مستسلمة للحزن، كما لو أنهما تبحثان عما لا يمكنهما العثور عليه مطلقاً. «نعم! ستة أطفال ماتوا، مثل براعم صغيرة قُطِفت قبل أوانها، في تلك الهند القاسية. اعتقدتُ أنني، كلما مات واحد منهم، لن أستطيع أن أحب طفلاً مرة أخرى مطلقاً، ولن أُقدِم على ذلك. وعندما كان يأتي الطفل التالي، لم يكن يحصل على محبته الخاصة فحسب، بل على المحبة الأعمق التي أتت من التفكير في إخوته وأخواته الصغار الموتى. وعندما كانت «فويب» ستولَد، قلتُ لزوجي، 'بعد ولادة الطفلة يا سام، إذا كنت قوية، فسوف أتركك. إن ذلك سوف يُحطم قلبي بقسوة. ولكن إذا توفيت هذه الطفلة أيضاً، فسوف أجن. إن الجنون في داخلي الآن. ولكن إذا سمحتَ لي بالذهاب إلى كلكتا وأنا أحمل طفلتي خطوة خطوة، فربما ستعود الأمور إلى طبيعتها تلقائياً. وسوف أوفر وسوف أدخر وسوف أتوسل - وسوف أتحرق شوقاً لكي أعود إلى الوطن، إلى إنجلترا، حيث يمكن لطفلتي أن تعيش؟' بارك الرب فيه! فقد سمح لي بالذهاب، ووفر راتبه، ووفرتُ أنا كل «بايس» استطعت الحصول عليه من الغسيل، أو من أية طريقة أخرى. وعندما وُلِدت فويب، واستعدتُ قوتي من جديد، انطلقت في رحلتي. لقد كانت رحلة موحشة جداً خلال الغابات الكثيفة المظلمة بأشجارها الضخمة الكثيفة - على طول جانب النهر (إلا أنني نشأت قرب نهر أفون في مقاطعة يوركشاير، لذا فقد كان ذلك الضجيج المتدفق يبدو صوتاً مألوفاً يشعرني بالراحة التي كنتُ أشعر بها في الوطن) - مضيتُ قُدُماً وأنا أحمل طفلتي من محطة إلى محطة أخرى، ومن قرية هندية إلى قرية هندية أخرى. لقد رأيت زوجة أحد الضباط مع صورة صغيرة، يا

سيدتي، رسمها أجنبي كاثوليكي، يا سيدتي - صورة للعذراء والمخلِّص الصغير، يا سيدتي. كانت تحمله على ذراعها، وكان جسدها ملتفاً حوله برقة، وكانت وجنتاهما متلامستين. حسناً، عندما ذهبت لكي أودع هذه المرأة، التي كنت أغسل لها، بكت باغتمام لأنها كانت قد فقدت أطفالها هي أيضاً، ولكن لم يكن لديها طفل آخر لتنقذه مثلي. وكنت جريئة بما فيه الكفاية لكي أطلب منها أن تعطيني تلك الصورة، فبكت أكثر وقالت إن أطفالها كانوا مع ذلك اليسوع الصغير المبارك، ومنحتني إياها، وأخبرتني أنها سمعت بأنه قد تم رسمها في قعر برميل خشبي، ما جعلها تتخذ ذلك الشكل الدائري. ثم عندما كان جسدي متعباً جداً، وقلبي عليلاً (ذلك أنه كانت هناك أوقات كنت أرتاب فيها إذا كان بإمكاني الوصول إلى وطني، وكانت هناك أوقات كنت أُفكر فيها بزوجي، واعتقدتُ ذات مرة أن طفلتي كانت تحتضر)، كنتُ أُخرِجُ الصورة وأنظر فيها حتى كنت أستطيع أن أتخيل أن أمّ المسيح (عليهما السلام) كانت تحدثني وتواسيني. وكان أهل البلاد لطفاء جداً. لم نتمكن من التّفاهم معهم، لكنهم رأوا رضيعتي على صدري، فجاءوا إلي وجلبوا الأرزّ والحليب، والزهور أحياناً - لديّ بعض تلك الزهور مجففة. ثم في صباح اليوم التالي، كنت مرهقة جداً، وأرادوا مني أن أبقى معهم - كان بإمكاني أن أعرف ذلك - وحاولوا إخافتي من الذهاب إلى أعماق الغابة التي، في الواقع، بدت غريبة ومظلمة جداً. ولكن بدا لي كما لو أن الموت يلاحقني ليأخذ طفلتي بعيداً عني، وكما لو أنه كان يتعين عليّ أن أمضي قدماً بشكل مستمر - وفكرت كيف أن الرب قد اعتنى بالأمهات منذ بداية الخلق، وسوف يعتني بي. لذا قمتُ بتوديعهم، وانطلقتُ من جديد.

وذات مرة عندما كانت طفلتي مريضة، وكنا كلتانا، أنا وهي، بحاجة إلى الراحة، فقد أرشدني ربي وهداني إلى مكان حيث وجدتُ رجلاً إنجليزياً لطيفاً كان يعيش في وسط أهل البلاد».

«وهل وصلتِ في نهاية المطاف إلى كلكتا بسلامة؟»

«نعم، بسلامة! أوه! عندما علمت أن أمامي رحلة يومين فحسب، لم يكن في وسعي ألّا أفعل يا سيدتي - قد يكون ذلك من الوثنية، لا أعرف - ولكنني كنت قريبة من أحد معابد أهل البلاد الأصليين، فدخلت إليه مع طفلتي لكي أشكر الرب على رحمته العظيمة، ذلك أنه بدا لي أن المكان الذي صلى فيه آخرون لربهم من قبل، في مسرّاتهم أو في كربهم، كان بحدّ ذاته مكاناً مقدساً. وركبت على متن سفينة بصفتي خادمة لامرأة عاجزة أصبحتْ مغرمة جداً بطفلتي. وبعد مرور سنتين، حصل «سام» على صرفه من الخدمة، وعاد إلى الوطن ليعيش معي ومع طفلتنا. ثمّ كان عليه اختيار حرفة ثابتة، لكنه لم يكن يعرف أية حرفة، وكان في السابق، قبل وقت طويل جداً، قد تعلم ألعاباً سحرية من مشعوذ هنديّ، لذا فقد بدأ بالعمل في الشعوذة، وكان العمل مُرضياً إلى درجة أنه أحضر توماس لكي يساعده - بوصفه تابعاً له، وليس بوصفه مشعوذاً آخر، إلا أن توماس قد بدأ بالعمل بشكل مستقل. ولكن الشبه بين التوأمين كان مفيداً جداً لنا، وجعل الكثير جداً من الألعاب السحرية التي كانا ينفذانها معاً تسير بشكل جيد. وتوماس هو أخ طيب، إلا أنه لا يتمتع بهيئة زوجي الجذابة، لذا لا أستطيع تصور كيف يمكن أن يحسبه الناس السيد برونيوني ذاته، كما يقول إن ذلك هو ما يحدث».

«المسكينة فويب الصغيرة!» قلتُ ذلك، ورجعتْ أفكاري إلى الطفلة التي حَمَلَتْها خلال مئات كثيرة من الأميال.

«آه! يمكنك أن تقولي ذلك! لم أفكر قطُّ أنني كنتُ سأتمكن من تنشئتها. ولكن، عندما أُصيبت بمرض هناك في شوندرآباد، فلولا ذلك الشخص الكريم الطيب، آغا جينكينز، لما توفر لنا مأوى، وأعتقد أنه أنقذها بذلك».

قلتُ، «جينكينز!»

«نعم، جينكينز. إنني أعتقد أن كل الأشخاص الذين يحملون هذا الاسم لطفاء، والدليل هذه المرأة المُسِنّة التي تأتي كل يوم لتأخذ فويب في نزهة!»

ولكن خطرت في بالي فكرة. هل يمكن أن يكون الآغا جينكينز هو بيتر المفقود؟ صحيح أن الكثيرين ذكروا أنه قضى نحبه. ولكن صحيح أيضاً أن البعض قالوا إنه وصل إلى مقام لاما التيبت العظيم. الآنسة ماتي تعتقد أنه كان ما يزال على قيد الحياة. سوف أستفسر أكثر.



12

مخطوبة للزواج

هل كان «المسكين بيتر» من كرانفورد هو الآغا جينكينز من شوندرأباد، أم لا؟ كما قال أحدهم، ذلك هو السؤال.

في موطني، عندما لم يكن لدى الناس ما يفعلونه، كانوا يلومونني على افتقاري إلى التعقل. لقد كان عدم التعقل هو عيبي الأكبر. كل شخص لديه عيبه الأكبر، شيء مثل سمة مميزة - السمة الأبرز على الإطلاق ليطعنهم أصدقاؤهم فيه. وفي العادة يطعنون ويعاودون الطعن مرة أخرى. لقد سئمت من وصفي بالتهور وبعدم الحذر وقررت أن أثبت مرّة واحدة أنني أنموذج للتعقل والحكمة. ما كنت لألمِّح بشكوكي فيما يتعلق بالآغا. كنتُ سأجمع أدلة وأحملها إلى المنزل لكي أضعها بين يدي والدي، بصفته صديق عائلةٍ للآنستين جينكينز.

في بحثي عن الحقائق، تذكرتُ مرات كثيرة وصفاً ذكره والدي ذات مرة للجنة من النساء تعين عليه أن يترأسها. قال إنه لم يكن في وسعه عدم التفكير في فقرة «لديكنز» تحدثتْ بشأن جوقة كان كل شخص فيها يردد النغمة التي يعرفها أكثر، ويغنيها على النحو الذي يُرضيه. لذا، في هذه اللجنة الخيرية، تناولت كل امرأة

الموضوع الأهم في ذهنها، وتحدثت به كما يحلو لها، لكن دون أية فائدة تذكر، لتعزيز الموضوع الذي التقوا من أجل مناقشته. ولكن حتى تلك اللجنة لم تكن شيئاً يُذكر مقارنة بنساء كرانفورد عندما حاولن الحصول على بعض المعلومات الواضحة والمحددة فيما يتعلق بطول بيتر ومظهره ومتى وأين شوهد وسُمع آخر مرة. على سبيل المثال، أتذكر أنني سألت الآنسة بول (واعتقدتُ أن السؤال كان مناسباً جداً، ذلك أنني طرحته عندما كنت في زيارة قصيرة في منزل السيدة فوريستر، وكانت المرأتان كلتاهما قد عرفتا بيتر، وتصورتُ أنهما من الممكن أن تنعشا معاً ذكرياتهما) - سألت الآنسة بول ماذا كان آخر شيء سمعته بشأنه. ثم ذكرت هي الخبر السخيف الذي أشرتُ إليه باختياره ليكون لاما التيبت العظيم. وكان هذا إشارة لكي تمضي كل امرأة منهما في التحدث بفكرتها المنفصلة. كانت بداية السيدة فوريستر بالنبي المتخفي في رواية الإله رخ - ما إذا كنت أظن أنه كان يُقصَد به اللاما العظيم، على الرغم من أن بيتر لم يكن بشعاً، بل كان وسيماً إلى حد ما، لو لم يكن أنمش. لقد كنت ممتنة لرؤيتها متذبذبة بشأن بيتر. ولكن، بعد لحظات، أخذت المرأة الخادعة تتحدث بمنتجات رونالد كاليدور، ومزايا مستحضرات التجميل وزيوت الشعر بصورة عامة، واستمرت بالحديث بطلاقة إلى درجة أنني التفتُّ إلى الآنسة بول، التي (خلال الرهبان البوذيين، اللاما - دواب التحميل) كانت قد وصلت إلى سندات البيرو، وسوق الأسهم، ورأيها السيئ في المصارف المساهمة بصورة عامة، وبصورة خاصة ذلك المصرف اللّعين الذي استثمرت فيه الآنسة ماتي أموالها. عبثاً طرحت السؤال «متى كان ذلك - في أي سنة سمعتها أن السيد بيتر أصبح اللاما العظيم؟» أخذتا في النقاش فحسب بخصوص ما إذا

كان حيوان اللاما من أكلة اللحوم أم لا. وهو نقاش لم تكونا فيه على أسس متكافئة، فقد اعترفت السيدة فوريستر (بعد أن كانتا قد احتدتا ثم هدأتا مرة أخرى) بأنها تخلط دائماً بين كلمتي آكلي اللحوم وآكلي الحشائش، تماماً كما كانت تخلط بين كلمتي أفقي وعمودي. ثمّ اعتذرت عن ذلك بطريقة جميلة جداً، من خلال قولها إن الناس في أيامها كانوا يستخدمون الكلمات المكونة من أربعة مقاطع من أجل تعليم كيفية تهجئتها فحسب.

كانت الحقيقة الوحيدة التي حصلتُ عليها هي أنه من المؤكد أن آخر شيء سُمِع بشأن بيتر هو أنه كان في الهند، «أو في المناطق المجاورة لها». وأن هذه المعلومة البسيطة بمكانه كانت قد وصلت إلى كرانفورد في السنة التي أحْضَرَت فيها الآنسة بول ثوبها الموسلين الهندي، الذي أصبح بالياً منذ فترة طويلة (لقد غسلناه وأصلحناه، وتتبعنا عملية تلفه وتفسخه ليصبح ستارة نافذة قبل أن نتمكن من المتابعة). وفي غضون سنة عندما جاء ومبل إلى كرانفورد، لأن الآنسة ماتي أرادت رؤية فيلٍ، فلربما تمكنت من تخيل بيتر راكباً على أحد الفيلة بصورة أفضل، ورأت أيضاً أصلة عاصرة (نوع من الثعابين) كانت أكثر مما تمنّتْ تصوره في صورها المتخيَّلة لموقع بيتر. وفي غضون سنة، عندما كانت الآنسة ماتي قد تعلمت قطعة من الموسيقى عن ظهر قلب، واعتادت أن تقول، في جميع حفلات كرانفورد، كيف كان بيتر «يُعاين الجنس البشري من الصين إلى بيرو»، ما اعتبره الجميع أمراً عظيماً جداً وملائماً إلى حد ما، لأن الهند كانت بين الصين وبيرو، إذا كنتَ قُمتَ بتحويل دوران الكرة الأرضية نحو اليسار بدلاً من اليمين.

أعتقد أن جميع هذه الاستسفارات مني، والفضول الذي أثارته في عقول صديقاتي، جعلتنا لا نرى ولا نسمع ما كان يجري حولنا. لقد بدا لي كما لو أن الشمس قد بزغت وأشرقت، وكما لو أن المطر هطل في كرانفورد، تماماً كالمعتاد، ولم ألحظ أي علامة على الأوقات التي كان يمكن أن تُعتبر تنبؤية بأي حدث غير عادي. وعلى حد علمي، ليست الآنسة ماتي والسيدة فوريستر فحسب، بل حتى الآنسة بول نفسها، التي كنا ننظر إليها بوصفها متنبئة إلى حد ما، لما تتمتع به من البراعة في التنبؤ بالأمور قبل وقوعها وتحققها -على الرغم من أنها لم تكن تحب أن تزعج صديقاتها بإخبارهم بمعرفتها المسبقة- حتى الآنسة بول نفسها كانت تلهث باندهاش عندما جاءت لكي تُخبرنا بخبر مذهل. ولكن ينبغي لي أن أسترد سيطرتي على نفسي. فالتفكير في الأمر، حتى بعد كل هذا الوقت، قد حبس أنفاسي وتلاشت معرفتي بالقواعد، وما لم ألجِم عاطفتي، فإن معرفتي في الإملاء سوف تتلاشى أيضاً.

كنا جالستين -أنا والآنسة ماتي- كما هو معتاد، هي في مقعد الشيت الأزرق المريح وظهرها نحو الضوء، وأشغال حياكتها في يدها، وأنا أقرأ بصوت مرتفع صحيفة سانت جيمس كرونيكل. بعد بضع دقائق، كان يُفترض أن نكون قد ذهبنا لإجراء التعديلات الطفيفة المعتادة في الثياب قبل حلول موعد الزيارات القصيرة (عند الساعة الثانية عشرة) في كرانفورد. أتذكر المشهد والتاريخ بشكل جيد. كنا نتحدث بتعافي السينيور السريع منذ بداية حلول الطقس الأكثر دفئاً، ونُثني على مهارة السيد هوغينز، ونتحسر على افتقاره إلى الدماثة والكياسة (تبدو مصادفة غريبة أن هذا كان هو موضوعنا،

ولكن هكذا كان)، عندما سمعنا طرقاً على الباب - طرق زائرة - ثلاث نقرات منفصلة - وذهبنا بسرعة البرق (ليس تماماً، فالآنسة ماتي لا تستطيع المشي بسرعة كبيرة لأنها تعاني من روماتيزم خفيف) إلى غرفتينا، لكي نبدل القبعة والياقات، فأوقفتنا الآنسة بول بمناداتنا في أثناء صعودها على الدرج، «لا تذهبا - لا أستطيع الانتظار - ليست الثانية عشرة، أعرف ذلك - ولكن لا عليكما من ملابسكما - ينبغي لي أن أتحدث إليكما». بذلنا ما في وسعنا لكي نبدو كما لو لم نكن نحن من قام بالحركة المتعجلة التي سمعتْ جَلَبَتَها، ذلك أننا، بطبيعة الحال، لم نرغب في أن يُعتقد أن لدينا أي ملابس قديمة كان من المناسب جعلها تبلى في «حرم المنزل»، الذي أسمته الآنسة جينكينز ذات مرة، بشكل جميل، «الردهة الخلفية»، حيث كانت تُحزَم الأغذية المحفوظة. لذا أقحمنا أرستقراطيتنا بقوة مضاعفة في دماثة أخلاقنا، فكنا لطيفتين جداً مدة دقيقتين أمّا الآنسة بول فقد استعادت أنفاسها، وأثارت فضولنا بقوة من خلال رفع يديها في دهشة، وإنزالهما في صمت، كما لو كان ما يتعين عليها قوله أهم من أن يُقال في كلمات، ولا يمكن أن يُعبَّر عنه إلا من خلال تمثيلية إيمائية.

«ما رأيك يا آنسة ماتي؟ ما رأيك؟ الليدي غلينماير سوف تتزوج - سوف تكون متزوجة - أعني - الليدي غلينماير - السيد هوغينز - السيد هوغينز سوف يتزوج الليدي غلينماير!»

قُلنا، «تتزوج! تتزوج! جنون!»

«تتزوج!» قالت الآنسة بول ذلك بالصرامة التي هي جزء من شخصيتها. وتابعت، «قلتُ تتزوج! كما قلتما. وقلتُ أنا أيضاً،

'سوف تجعل من نفسها أضحوكة!' كان من الممكن أن أقول 'جنون!' لكنني تمالكت نفسي، فقد كنت في متجر عام عندما سمعت بذلك الأمر. أين ذهبت النعومة الأنثوية، لا أعرف! لا بد أننا كنا سنخجل، أنا وأنت يا آنسة ماتي، إذا عرفنا أنه يجري التحدّث بزواجنا في متجر، على مسمع من الباعة!»

تنهدت الآنسة ماتي كما لو أنها كانت تستردّ رشدها من ضربة وقالت، «ربما كان ذلك غير صحيح. ربما أننا نظلمها».

قالت الآنسة بول، «لا. لقد حرصتُ على التأكد من ذلك، فقد ذهبت مباشرة إلى السيدة فيتز آدم، لكي أستعير كتاباً في الطهي كنت أعرف أنها تملكه. وقدمتُ تهنئتي في الوقت المناسب، وتحدثتُ بالصعوبة التي لا بد أن يواجهها الرجل المحترم في تدبير أمور المنزل، فشمخت السيدة فيتز آدم بأنفها وقالت إنها تعتقد أن ذلك كان صحيحاً، على الرغم من أنها لم تعرف من أين أو كيف عرفتُ أنا بالأمر، وقالت إن أخاها والليدي غلينماير توصلا إلى تفاهم أخيراً. 'تفاهم!' يا لها من كلمة فظة! ولكن يتعين على الليدي أن تتراجع في مستواها نظراً إلى افتقاره كثيراً إلى الكياسة. لديّ ما يدفعني إلى الاعتقاد أن السيد هوغينز يتناول كل ليلة في وجبة العشاء خبزاً وجبناً وجَعَة».

قالت الآنسة ماتي، مرة أخرى، «تتزوج! حسناً! لم أفكر في ذلك قطُّ. شخصان نعرفهما سوف يتزوجان. إن ذلك آتٍ قريباً جداً!»

قالت الآنسة بول، «قريباً جداً إلى درجة أن قلبي توقف عن النبض عندما سمعت بذلك، أمّا أنتِ فتكونين قد عَدَدْتِ حتى اثني عشر».

قالت الآنسة ماتي بشفقة لطيفة في نبراتها، «لا تعرف إحدانا من التي سيكون دورها تالياً. هنا في كرانفورد، ربما تكون الليدي غلينماير المسكينة قد ظنت أنها في أمان».

قالت الآنسة بول وهي تهزّ رأسها، «بواه! ألا تتذكرين أغنية النقيب براون العزيز المسكين 'تيبي فاولر' والمقطع :

'دُلّها على حانة تينتوك،
وستحمل الريح رجلاً إليها'».
«ذلك لأن 'تيبي فاولر' كان ثرياً، على ما أعتقد».

«حسناً! تتمتع الليدي غلينماير بنوع من الجاذبية كنت، شخصياً، سأشعر بالخجل لو تمتعت به».

حوَّلتُ استغرابي إلى سؤال، «كيف يمكن أن يكون السيد هوغينز قد استهواها؟ أنا لا أستغرب إعجاب السيد هوغينز بها».

قالت الآنسة ماتي، «أوه! أنا لا أعرف. السيد هوغينز ثري، ومظهره جميل جداً، وهو طيب الخلق وطيب القلب».

«لقد تزوجتْ من أجل وضع مستقرّ، ذلك كل شيء. أعتقد أنها تأخذ الجراحة مع ذلك الوضع». قالت الآنسة بول ذلك مع ضحكة خفيفة جافة على طُرفتها. ولكن مثل كثير من الناس الذين يعتقدون أنهم تكلموا كلاماً قاسياً ولاذعاً، ومع ذلك بارعاً وفريداً من نوعه، فقد بدأت تخفف من تجهمها من اللحظة التي أشارت فيها إلى الجراحة. وتحولنا إلى التكهن بالطريقة التي كانت السيدة جاميسون ستتلقى بها الخبر. فالمرأة التي تركتْها مسؤولة عن منزلها

لإبعاد المُعجبين عن خادماتها اتخذتْ مُعجَباً لنفسها! وذلك المعجب هو رجل اعتبرت التعامل معه محرَّماً بوصفه سوقيّاً، ولا يقبله مجتمعُ كرانفورد، ليس بسبب اسمه فحسب، بل بسبب صوته وبشرته وجزمته ورائحة الإصطبل، وهو نفسه، ورائحة العقاقير. هل كان من الممكن أن يرى الليدي غلينماير في منزل السيدة جاميسون في أي وقت؟ ما كان كلوريد الجير سيطهر المنزل وفق تقدير صاحبته لو حدث أن رآها فيه. أم أن مقابلاتهما كانت محصورة في اللقاءات العرَضية في غرفة المشعوذ المسكين المريض، الذي لم يكن في وسعنا ألّا نسمح بأن يكون كلاهما لطيفين إلى أقصى درجة نحوه، على الرغم من شعورنا العميق بأن زواجهما غير متكافئ؟ وقد اتضح الآن أن إحدى خادمات السيدة جاميسون كانت مريضة، وكان السيد هوغينز يعتني بها منذ عدة أسابيع. وهكذا دخل الذئب إلى الحظيرة، وهو الآن قد سرق راعية الغنم. ما الذي ستقوله السيدة جاميسون؟ نظرنا إلى ظلام المستقبل كما يحدق طفل وراء صاروخ ينطلق في السماء، غارق في توقعات متسائلة عن القعقعة، والانبعاثات، والوابل المتلألئ من الشرر المتطاير والضوء. ثم عدنا بأنفسنا إلى الحقائق الواقعية وإلى الوقت الحاضر من خلال استجواب بعضِنا بعضاً (كوننا جميعنا جاهلات وفي الدرجة ذاتها، وجميعنا نفتقر بالمثل إلى أقل البيانات لكي نبني عليها أية استنتاجات) بشأن موعد الزواج؟ وأين؟ وكم سنة يبلغ عمر السيد هوغينز؟ وما إذا كانت ستتخلى عن لقبها؟ وكيف سيتم إرغام مارثا وغيرها من الخدم المتفقين مع العرف والتقاليد في كرانفورد على الإعلان عن زواج زوجين بوصفهما الليدي غلينماير والسيد هوغينز؟ ولكن هل ستتم زيارتهما؟ هل

ستسمح لنا السيدة جاميسون بذلك؟ أم ينبغي أن نختار بين فخامة السيدة جاميسون وبين الليدي غلينماير المجردة من اللقب؟ لقد أحببنا جميعنا الليدي غلينماير أكثر، فقد كانت ذكية ولطيفة واجتماعية ومُحِبَّة، وكانت السيدة جاميسون بليدة وخاملة ومغرورة ومُضجِرة. إلا أننا قبلنا بسيطرة الأخيرة فترة طويلة جداً إلى درجة أن مجرد التفكير الآن في عصيان المنع، الذي كنا نتوقعه، بدا كأنه نوع من الغدر.

فاجأتنا السيدة فوريستر ونحن بقبعاتنا المرتقة وياقاتنا المرقعة، وقد نسينا أمر ذلك تماماً في أثناء توقنا إلى معرفة كيف ستتقبل النبأ الذي تركنا نزاهة مسؤولية نقله إلى الآنسة بول، على الرغم من أننا لو كنا نميل إلى استغلال الوضع بشكل غير منصف، لكنا قد اندفعنا بأنفسنا إلى نقله، ذلك أنها أصيبت بنوبة سعال في غير محلها إلى حد كبير استمرت خمس دقائق بعد دخول السيدة فوريستر إلى الغرفة. لن أنسى قطُّ تعبير التضرع في عينيها، عندما نظرت إلينا من فوق منديلها. كانت عيناها تقولان، بوضوح بقدر ما تستطيع الكلمات أن تعبّر عنه، «لا تدعا الطبيعة تحرمني من الكنز الذي هو ملكي، على الرغم من أنني لا أستطيع الاستفادة منه بعض الوقت». ولم نستفد نحن منه.

كان تفاجُؤ السيدة فوريستر مماثلاً لتفاجُئِنا. بل كان إحساسها بالمصيبة أعظم، لأنه تعين عليها أن تشعر بالإهانة لمكانتها، ورأت بشكل أشمل مما كان في إمكاننا أن نرى إلى أي مدى جلب هذا السلوك العار على الطبقة الأرستقراطية.

عندما تركتنا هي والآنسة بول، حاولنا اللجوء إلى الهدوء. ولكن الآنسة ماتي كانت منزعجة إلى حد كبير بسبب الخبر الذي

سمعته. قدَّرتْ هي الأمر، وكان قد مرَّ أكثر من خمس عشرة سنة منذ أن سمعت بإقبال أيٍّ من معارفها على الزواج، مع الاستثناء الوحيد للآنسة جيسي براون. وكما قالت، لقد صدمها ذلك كثيراً، وجعلها تشعر كما لو أنها لا تستطيع التفكير فيما سيحدث بعد ذلك.

لا أعرف ما إذا كان هذا من نسج خيالي أم حقيقة واقعية، لكنني لحظت أنه بالضبط بعد الإعلان عن خطوبة في أي مجموعة، فإن النساء غير المتزوجات في تلك المجموعة يتمايلن في ابتهاج غير عادي وفي ملابس جديدة، كما لو أنهن يقلن، بطريقة لاشعورية وصامتة، «نحن أيضاً عوانس». وخلال الأسبوعين التاليين لهذه الزيارة، تحدثت الآنسة ماتي والآنسة بول بشأن القلنسوات والأثواب والقبعات والشالات، وفكرتا فيها بقدر أكبر مما عرفتُ أنهما فعلتاه من قبل خلال سنوات. ولكن قد يكون السبب هو الطقس الربيعي، فقد كان شهر آذار/ مارس دافئاً ولطيفاً، وكانت أصواف غنم المرينوس وفرو القندس، وكل أنواع المواد الصوفية مستقبلات كريهة لأشعة الشمس الساطعة غير المباشرة. لم تكن ثياب الليدي غلينماير هي التي استحوذت على قلب السيد هوغينز، فقد كانت تقوم بمهام الإحسان التي اضطلعت بها بملابس رثة أكثر من السابق. وعلى الرغم من أنه في اللمحات السريعة التي لمحتُها أنا فيها في الكنيسة أو في أماكن أخرى بدا أنها كانت تتجنب لقاء أي من صديقاتها إلى حد ما، فقد بدا وجهها يتمتع بشيء من تورّد الشباب، وبدت شفتاها أكثر حمرة وأكثر ارتعاشاً مما كانتا عليه في حالتهما المضغوطة السابقة، وكانت عيناها تطيلان النظر إلى كل شيء في تريث، كما لو أنها كانت تتعلم أن تُحب كرانفورد وتوابعها. وبدا السيد هوغينز عريضاً

ومتألقاً، ومشى في ممرّ الكنيسة الأوسط بحذاء فاخر جديد تماماً يصدر صوت صرير - علامة مسموعة، إضافة إلى كونها مرئية، تشير إلى غايته في تغيير وضعه. ذلك أن التقليد الذي اعتاد عليه هو أن الحذاء التي ارتداه حتى الآن كان هو الحذاء عينه الذي بدأ فيه جولاته في كرانفورد منذ خمس وعشرين سنة. إلا أنه كان قد جُدِّد، مرتفعاً ومنخفضاً، من الأعلى ومن الأسفل، الكعب والنعل، الجلد الأسود والجلد البني، جُدِّد مرات أكثر مما يستطيع أي شخص أن يعرف.

لم تؤيد أي من نساء كرانفورد الزواج من خلال تهنئة أيّ من الطرفين. كنا نرغب في تجاهل الأمر برمته حتى تعود السيدة جاميسون، وهي المرأة التي نرتبط بالولاء لها. وحتى تعود وتعطينا إشارة البدء، كنا نشعر أنه من الأفضل التفكير في الخطوبة بالطريقة ذاتها التي نفكر فيها بسيقان ملكة إسبانيا - حقائق قائمة بالتأكيد، لكن كلما كان الحديث بها أقل، كان ذلك أفضل. وكان هذا التقييد على ألسنتنا - فكما ترى إذا لم نتكلم بها مع أي من الطرفين المعنيين، فكيف سيتسنى لنا الحصول على إجابات عن الأسئلة التي نتوق إلى طرحها؟ - قد بدأ يُصبح مزعجاً، وكانت فكرتنا في سموّ الصمت تُصبح ضعيفة أمام فضولنا، عندما اتخذت أفكارنا منحىً آخر من خلال إعلان من جهة صاحب المتجر الرئيسي في كرانفورد، الذي كانت حرفه تمتد من بائع بقالة وبائع جبن إلى صانع قبعات للرجال، حسب الاقتضاء. وجاء في الإعلان أن أزياء الربيع كانت قد وصلت، وسوف يتم عرضها في يوم الثلاثاء المقبل في صالاته في شارع هاي ستريت. وكانت الآنسة ماتي الآن في انتظار هذا من أجل شراء رداء حريري جديد لنفسها. صحيح أنني عرضتُ أن أرسل إلى درمبل

في طلب الباترونات، إلا أنها كانت قد رفضت عرضي، مشيرة بلطف وبصورة ضمنية إلى أنها لم تنسَ خيبة أملها بشأن قبعة التربان ذات اللون الأخضر الضارب إلى الزرقة. كنت ممتنة أنني متواجدة في الموقع الآن، للتصدي إلى أي افتتان مُبهِر بأي حرير أصفر أو قرمزي.

ينبغي لي أن أقول هنا بضع كلمات في نفسي. لقد تحدثتُ بصداقة والدي مع أسرة جينكينز، وفي الواقع، أنا لا أعرف إذا كانت هناك صلة بعيدة. لقد سُمح لي مع طيب خاطر بالبقاء في كرانفورد طوال فصل الشتاء بسبب رسالة كتبتها له الآنسة ماتي حول وقت الذعر، التي أشك أنها بالغت فيها بشأن قدراتي وشجاعتي بصفتي مدافعة عن المنزل. ولكن الآن بعد أن أصبح النهار أطول وأكثر بهجة، بدأ يحثّ على ضرورة عودتي. ولم أتلكأ إلا بسبب نوع غريب من الأمل بعيد المنال بأنه إذا تمكنتُ من الحصول على أي معلومات واضحة، فقد أستطيع جعل الوصف الذي قدمته السينيورة بشأن الآغا جينكينز يتطابق مع وصف «بيتر المسكين»، وظهوره واختفائه، والذي كنت قد استبعدته من المحادثة التي أجريتها مع الآنسة بول والسيدة فوريستر.



13

توقف الدفع

في صباح يوم الثلاثاء ذاته الذي كان السيد جونسون سيعرض فيه الأزياء، أَحْضَرَتْ ساعية البريد رسالتين إلى المنزل. قلتُ ساعية البريد، لكن كان ينبغي لي أن أقول زوجة ساعي البريد. لقد كان صانع أحذية أعرج، وهو رجل صادق ومهذب جداً، ويحظى باحترام شديد في البلدة، لكنه لم يكن يُحضِر الرسائل قطّ إلا في مناسبات استثنائية، مثل عيد الميلاد أو الجمعة العظيمة. وفي تلك الأيام، كانت الرسائل، التي يُفترض أن تُسلَّم عند الساعة الثامنة صباحاً، لا تظهر حتى الساعة الثانية بعد الظهر أو الساعة الثالثة، ذلك أن الجميع كانوا يحبون المسكين توماس، وكانوا يرحبون به بحفاوة في هذه المناسبات الاحتفالية. وقد اعتاد أن يقول، «إنه كان ثملاً من الأكل، ذلك أن ثلاثة منازل أو أربعة، ما كانوا ليقبلوا خدمته ما لم يشاركهم فطورهم». وبحلول الوقت الذي يكون قد أنهى فطوره فيه، كان يصل إلى منزل صديق آخر يكون قد بدأ بتناول غدائه. ولكن توماس كان دائماً مقتصداً في الأكل والشرب، ومهذباً ومبتسماً، أياً كانت الإغراءات. وكما اعتادت الآنسة جينكينز أن تقول، إن ذلك كان درساً في الصبر، وأنها كانت لا تشك في أنه كان يستدعي

تلك السمة الثمينة في عقول بعض الناس حيث تقبع كامنة غير مكتشفة، إلا عند توماس. كان الصبر بالتأكيد كامناً في عقل الآنسة جينكينز، فقد كانت تتوقع دائماً وصول رسائل، وكانت دائماً تطبّل على المنضدة إلى أن تصل ساعية البريد في زيارة قصيرة أو تكون قد مرّت بمنزلها. في عيد الميلاد أو في الجمعة العظيمة، كانت تُطبّل من وقت الفطور حتى موعد الكنيسة، ومن وقت العودة من الكنيسة حتى الساعة الثانية - إلا إذا كان هناك حاجة إلى تحريك الجمر، وعندئذ كانت دائماً تُسقِط المكاوي، وتوبخ الآنسة ماتي على ذلك. ولكن كان مؤكداً بالدرجة ذاتها الترحيب الحارّ بتوماس والغداء الطيب له، وكانت الآنسة جينكينز تقف فوقه مثل فارس جريء وتستفسر عن أطفاله - ماذا كانوا يفعلون - وإلى أي مدرسة كانوا يذهبون. وتؤنبه إذا كان من المحتمل أن يولد له طفل آخر. إلا أنها كانت تُرسل الشلن وفطيرة اللحم المفروم لجميع أطفاله حتى للرضّع منهم حيث كانت تلك هي هديتها لجميع الأطفال، إضافة إلى نصف كراون لكل من الأب والأم. وبالنسبة إلى الآنسة ماتي العزيزة، فلم يكن البريد يحظى بنصف تلك الأهمية. إلا أنها لم تكن تقلل قيد أنملة من الترحيب بتوماس ومن حصصه، على الرغم من أنه كان بإمكاني رؤية أنها كانت تشعر بالخجل إلى حدٍ ما خلال المراسم، التي كانت تعتبرها الآنسة جينكينز فرصة عظيمة لتقديم النصح وإفادة إخوانها البشر. كانت الآنسة ماتي تضع جميع النقود في يده دفعة واحدة بشكل مباغت، كما لو أنها كانت تشعر بالخجل من نفسها. في حين كانت الآنسة جينكينز تُعطيه كل قطعة نقود على حدة، مع قول، «ها هي! تلك من أجلك. وهذه من أجل جيني»،

إلخ. وكانت الآنسة ماتي تومئ أيضاً إلى مارثا لكي تأتي إليها من المطبخ في أثناء تناوله لطعامه: وذات مرة، على حد علمي، تغاضت عن اختفاء الطعام السريع داخل منديل جيب قطني أزرق. كانت الآنسة جينكينز تنهره قليلاً إذا لم يترك صحنه نظيفاً، بصرف النظر عن أيّ مدى كان من الممكن أن يكون الصحن ممتلئاً، وتعطي أمراً زجرياً مع كل لقمة.

لقد شردتُ مسافة طويلة عن الرسالتين اللتين كانتا في انتظارنا على مائدة الفطور في صباح يوم الثلاثاء ذاك. كانت رسالتي من والدي، وكانت رسالة الآنسة ماتي مطبوعة. كانت رسالة والدي مجرد رسالة رَجل. أقصد أنها كانت مملة جداً، ولم تعط أية معلومات تتجاوز كونه بحالة جيدة، وأن المطر هطل عندهم بكميات كبيرة، وأن التجارة كانت راكدة جداً، وأنه كانت هناك إشاعات كثيرة مُتداولة. ثم سألني عما إذا كنت أعرف إنْ كانت الآنسة ماتي ما زالت تحتفظ بأسهمها في مصرف تاون آند كاونتي بانك، حيث كانت هناك تقارير بغيضة جداً بشأنه على الرغم من أنه لم يكن هناك أكثر مما كان يتوقعه هو دائماً، ويبلغه للآنسة جينكينز منذ سنوات عندما استثمرت ممتلكاتها الصغيرة فيه - الخطوة الوحيدة غير الحكيمة على الإطلاق التي أقدمت عليها تلك المرأة الذكية، على حد علمه (المرة الوحيدة على الإطلاق التي تصرفت فيها بما يخالف نصيحته، كنت أعرف ذلك). من ناحية أخرى، إذا سارت الأمور على غير ما يرام، فمن غير ريب، فما كنت لأفكر في ترك الآنسة ماتي إذا كان بمقدوري عمل أيّ شيء مفيد، إلخ.

«ممّن رسالتك يا عزيزتي؟ رسالتي هي دعوة مهذبة جداً، موقعة من 'إدوين ويلسون' يطلب مني حضور اجتماع مهمّ لمساهمي مصرف تاون آند كاونتي بانك، والذي سيعقد في درمبل، في يوم الخميس، في الحادي والعشرين. أنا متأكدة، إنه اهتمام كبير منهم أن يتذكروني».

لم يُعجبني سماع مقطع «اجتماع مهم» هذا، فعلى الرغم من أنني لا أعرف الكثير من الأنشطة التجارية، إلا أنني خشيت أنه يؤكد ما قاله والدي: ولكن، فكرتُ في نفسي، الأخبار السيئة تصل دائماً بسرعة كافية، لذا فقد قررت ألا أقول شيئاً حول شعوري بالخوف، وقلت لها فحسب إن والدي بخير، وأنه يرسل إليها تحياته الطيبة. استمرت في تقليب رسالتها والنظر إليها بإعجاب. وفي نهاية المطاف تكلمتْ:

«أتذكر إرسالهم رسالة مماثلة تماماً لهذه إلى ديبورا. لكنني لم أندهش من تلك الرسالة، إذ إن الجميع يعلمون أنها كانت ذكية. أخشى أنه لا يمكنني مساعدتهم كثيراً. في الواقع، إذا وصلوا إلى الحسابات، فسوف أكون عقبة كبيرة أمامهم، ذلك أنني لم أستطع قطّ إجراء عمليات جمع في عقلي. أعرف أن ديبورا كانت ترغب في الذهاب، بل إنها اشترت قلنسوة من أجل المناسبة: ولكن عندما حان الوقت، كانت مصابة بنزلة برد حادة. لذا فقد أرسلوا إليها وصفاً مهذباً جداً لما قاموا بفعله. لقد اختاروا مديراً، كان ذلك هو الإجراء حسب ما أعتقد. هل تعتقدين أنهم يريدون مني مساعدتهم في اختيار مدير؟ أنا متأكدة من أنني سأختار والدك في الحال!»

قلتُ، «والدي لا يملك أسهماً في المصرف».

«أوه، لا! تذكرتْ. لقد اعترض كثيراً على شراء ديبورا لأي منها، على ما أعتقد. لكنها كانت مثالاً لسيدة أعمال مميزة، وكانت دائماً تبت في الأمور بنفسها. وهنا، كما ترين، قاموا بدفع ثمانية بالمائة في كل سنة. طوال تلك السنوات».

لقد كان موضوعاً مزعجاً جداً بالنسبة إليّ، نظراً إلى معرفتي الجزئية، لذا فقد فكرت أن أغيّر موضوع الحديث، وسألتُ ما هو الوقت الذي كانت تعتقد أنه الأفضل لنذهب ونشاهد الأزياء. قالت، «حسناً يا عزيزتي، الأمر هو كما يلي: ليس من آداب السلوك الذهاب إلا بعد الساعة الثانية عشرة. ولكن عندئذ سوف يكون كل أهل كرانفورد هناك، ولا يريد المرء أن يكون فضولياً جداً بشأن الثياب والزركشات والقبعات بحضور كل أولئك الناس ينظرون إليه. ليس من الأرستقراطية في شيء أن يكون المرء فضولياً بشكل مفرط في هذه المناسبات. كانت ديبورا تتمتع بقدرة خاصة على الظهور دائماً، كما لو أن آخر زيّ دارج ليس أمراً جديداً على الإطلاق بالنسبة إليها. وهو سلوك تعلمته كما تعلمين من الليدي آرلي، التي كانت تشاهد جميع الأزياء الجديدة في لندن. لذا فكرتُ في أن نتسلّ - ذلك أنني أريد، في هذا الصباح، نصف رطل من الشاي بعد الفطور فوراً - ويمكننا بعدئذ الذهاب وفحص جميع الأشياء على راحتنا، ونرى بالضبط كيف ينبغي أن يُصنَع ردائي الحريري الجديد. وبعدئذ، بعد الساعة الثانية عشرة، يمكننا الذهاب بأذهان غير منشغلة، ومتحررة من التفكير في الثياب».

بدأنا الحديث برداء الآنسة ماتي الحريري الجديد. واكتشفتُ أنها ستكون فعلياً أول مرة في حياتها يتعين عليها فيها اختيار شيء

مهم لنفسها: ذلك أن الآنسة جينكينز كانت دائماً الشخصية الأكثر حزماً، مهما كان ذوقها. ومن المذهل كيف يتمكن مثل هؤلاء الناس، بمجرد قوة الإرادة، من شق طريقهم أمام الآخرين بنجاح تام. توقّعت الآنسةُ ماتي مسبقاً منظر الطيّات البراقة بقدر كبير من الحبور كما لو أن السفرونات الخمسة، المخصصة للشراء، يمكنها أن تشتري كل الحرير المعروض في المتجر. (لقد تذكرت إهداري ساعتين في متجر للألعاب قبل أن أتمكن من معرفة الأعجوبة التي عليّ شراؤها بالثلاثة بنسات الفضية) وكنتُ مسرورة جداً بذهابنا في وقت مبكر لكي يكون لدى الآنسة ماتي العزيزة الوقتُ الكافي لتسعد بمسرّات التردد.

إذا كان من الممكن التوفيق في العثور على اللون الأخضر الضارب إلى الزرقة، فسوف يكون الرداء باللون الأخضر الضارب إلى الزرقة: خلافاً لذلك، فإنها تميل إلى لون الذرة الصفراء، وأنا أميل إلى اللون الرمادي الضارب إلى الفضي. وناقشنا عدد القطع المطلوبة من عروض مختلفة حتى وصلنا إلى باب المتجر. كان علينا شراء الشاي، واختيار الحرير، ثم ارتقاء الدرج الحديدي اللولبي الذي يُفضي إلى ما كان في السابق غرفة علوية، إلا أنه الآن صالة عرض أزياء.

كان الشباب في متجر جونسون في أفضل مظهر لهم، يرتدون أفضل ربطات عنق لديهم، وتمركزوا عند الكاونتر بنشاط مدهش. لقد أرادوا إرشادنا إلى الطابق العلوي في الحال. ولكن على أساس مبدأ «العمل أولاً والترفيه فيما بعد»، فقد بقينا لشراء الشاي. وهنا حدث أنَّ شتات عقل الآنسة ماتي أظهر نفسه. وكانت إذا انتبهتْ إلى أنها شربت الشاي الأخضر في أي وقت، فإنها كانت دائماً تعتقد أن من واجبها أن تظلّ مستيقظة خلال نصف الليل بعد ذلك

(عرفتُ أنها تتناول الشاي جهلاً مرات عديدة دون مثل هذه التأثيرات)، وكان الشاي الأخضر محظوراً في المنزل بسبب ذلك. ولكن اليوم طلبتْ هي نفسها المادة المؤذية، ظناً أنها كانت تتحدث بشأن الحرير. ولكن سرعان ما صُحّح الخطأ. ثم بُسِطت ملابس الحرير فعلياً. وبحلول هذا الوقت كان المتجر ممتلئاً إلى حد كبير، ذلك أنه كان يوم عمل في سوق كرانفورد، ودخل الكثير من المزارعين والناس الريفّيين من المناطق المجاورة، يمسّدون شعورهم، وينظرون بخجل حولهم، من تحت جفونهم، تواقين بالدرجة نفسها إلى العودة ببعض أفكار المباهج الاستثنائية إلى سيداتهم أو فتياتهم في منازلهم، ومع ذلك كانوا يشعرون بأنهم في مكان غير مناسب إليهم بين الباعة الأنيقين والشالات المبهجة والتصاميم الصيفية. إلا أن رجلاً ذا مظهر ينم عن الأمانة شق طريقه إلى الكاونتر حيث كنا نقف، وطلب بجرأة النظر إلى بضع شالات. كان الريفيون الآخرون قد قصَروا أنفسهم على جانب البقالة. ولكن الرجل القريب منّا كان من الواضح أنه يفيض بمُرادٍ ما تجاه سيدة أو زوجة أو ابنة إلى درجة أكبر من أن تجعله خجولاً. وسرعان ما أصبح سؤال يدور في خلدي عما إذا كان هو أم الآنسة ماتي سيُبقيان البائعين منشغلين فترة أطول. كان يعتقد أن كل شال كان أجمل من الشال الذي قبله. أما بالنسبة إلى الآنسة ماتي، فقد كانت تبتسم وتتنهد على كل رزمة جديدة يتم إخراجها، حيث إن لوناً يُبرِز بالمغايرة لوناً آخر، وكانت الكومة معاً، كما قالت، تجعل قوس قزح نفسه يبدو بائساً.

قالت في تردد، «أخشى إذا اخترت أياً منها فإنني سأتمنى لو أنني أخذت واحداً آخر. انظري إلى هذا القرمزي الجميل! سوف

يكون دافئاً جداً في الشتاء. ولكن الربيع قادم، كما تعلمين. أتمنى أن يكون لي رداء لكل فصل». قالت ذلك مُخفضة صوتها - كما نفعل جميعنا في كرانفورد كلما تحدثنا بأي شيء نتمنى الحصول عليه، لكننا لا نستطيع تحمل كلفته. وتابعتْ في نبرة أعلى وأكثر مرحاً، «إن كانت عندي فسوف تتطلب مني قدراً كبيراً من المتاعب للاعتناء بها. لذا، أعتقد أنني سوف آخذ واحداً فحسب. ولكن أيها يُفترض أن أختار يا عزيزتي؟»

وحامت الآن حول قماش أرجواني فاتح مع بقع صفراء، أما أنا فسحبتُ قماشاً أخضر هادئاً بلون الميرمية كان قد أُهمِلَ تحت الألوان الزاهية أكثر، لكنه كان، على الرغم من ذلك، حريراً جيداً في بساطته. واسترعى انتباهنا الرجلُ القريبُ منا الذي كان قد اختار شالاً يبلغ ثمنه حوالى ثلاثين شلناً، وبدا وجهه سعيداً بوضوح، متوقعاً، بلا ريب، المفاجأة السارة التي سوف يقدمها إلى «مولي» ما أو «جيني» ما في المنزل. أخرج محفظة جلدية من جيب سرواله القصير، وقدم ورقة نقدية مصرفية من فئة الخمسة جنيهات تسديداً لثمن الشال، إضافة إلى ثمن بعض الرزم التي أُحضِرت إليه من كاونتر البقالة. وفي هذه اللحظة بالذات لَفَت انتباهنا، فقد كان البائع يتفحص الورقة النقدية المصرفية في شك وحيرة.

«تاون آند كاونتي بانك! لست متاكداً يا سيدي، لكنني أعتقد أننا تلقينا تحذيراً من الأوراق النقدية الصادرة عن هذا المصرف في صباح هذا اليوم. سوف أذهب وأسأل السيد جونسون يا سيدي. ولكنني أخشى أنني سوف أزعجك بضرورة الدفع نقداً، أو بواسطة ورقة نقدية من مصرف مختلف».

لم يسبق لي قطُّ أن رأيت ملامح رجل تتدهور بشكل مفاجئ إلى هذه الدرجة من الفزع والحيرة. لقد كانت رؤية هذا التغيير المفاجئ أمراً مثيراً للشفقة.

ضرب بقبضته على المنضدة، كما لو كان يحاول أن يختبر أيهما أصلب، قائلاً، «اللعنة! يتكلم الفتى كما لو أن من الضروري حمل الأوراق النقدية والذهب من أجل الشراء».

نسيت الآنسة ماتي رداءها الحريري في غمرة اهتمامها بالرجل. ولا أعتقد أنها انتبهت لاسم المصرف، وفي خوفي العصبي، كنت أتوق إلى ألّا تنتبه له. وهكذا، بدأتُ أبدي إعجابي بالثوب الأرجواني الفاتح المبقّع بالأصفر، الذي كنت قد اعتبرت منذ دقائق معدودة أنه غير مناسب مطلقاً، لكن كان ذلك دون جدوى.

«أي مصرف كان؟ أعني، عن أي مصرف صدرت أوراقك النقدية المصرفية؟»

«تاون آند كاونتي بانك».

قالت بهدوء محدثة البائع، «دعني أراها». وأخذتها برفق من يده عندما أعادها ليردّها إلى المزارع.

كان السيد جونسون آسفاً جداً. ولكن المعلومات التي تلقاها تفيد بأن الأوراق النقدية الصادرة عن هذا المصرف ليست أفضل من أوراق النفايات بأي قدر يُذكر.

قالت لي الآنسة ماتي بصوت خفيض، «أنا لا أفهم. ذلك هو مصرفنا، أليس كذلك؟ - تاون آند كاونتي بانك؟»

قلتُ، «أجل!» ثم تابعتُ، «أعتقد أن هذا الأرجواني الفاتح سوف يتلاءم تماماً مع الأشرطة في قبعتك الجديدة». قلت ذلك وأنا أمسك بالطيات كما لو كنت أريد أن التقط الضوء، وأنا أتمنى أن يُسرع الرجل ويختفي، ومع ذلك كان يدور في خلدي سؤال جديد ظهر توّاً، إلى أي مدى كان من الحكمة أو الصواب السماح للآنسة ماتي أن تُقدِم على عملية الشراء المكلفة جداً هذه، إذا كانت أمور المصرف سيئة فعلياً إلى الدرجة التي أشار إليها ضمناً رفضُ الورقة النقدية المصرفية؟

ولكن الآنسة ماتي انتحلت الهيئة المهيبة الرقيقة الخاصة بها، والمستخدَمَة نادراً، فأصبحت على الرغم من ذلك خاصة بها إلى حد كبير، فقالت وهي تضع يدها على يدي:

«دعينا من أمر الحرير بضع دقائق يا عزيزتي». ثم استدارت نحو البائع الذي كان مهتماً بالمُزارع وقالت، «أنا لا أفهم يا سيدي. هل هذه الورقة النقدية المصرفية مزورة؟»

«أوه، لا يا سيدتي، إنها ورقة نقدية مصرفية حقيقية من نوعها. ولكن، يا سيدتي، إنه مصرف مساهم، وقد صدرت تقارير تشير إلى أنه من المرجح أن يُفلس. السيد جونسون يقوم بواجبه فحسب، يا سيدتي، وأنا متأكد من أن السيد دوبسون يُدرك ذلك».

ولكن السيد دوبسون لم يستطع أن يرد على الانحناءة المناشِدة بأي ابتسامة استجابة. كان يُقلِّب الورقة النقدية المصرفية في أصابعه بذهن شارد، وينظر بحزن كبير إلى الرزمة التي تحتوي على الشال الذي اختاره منذ قليل.

قال، «إنه أمر صعب على رجل فقير يكسب كل فلس بعرق جبينه. إلا أنه لا جدوى من ذلك. ينبغي لك أن تستردّ شالك يا صديقي. ولا بد من أن ترتدي ليزل معطفها فترة من الوقت. وهناك التين للصغار - وعدتهم به - سوف آخذه. ولكن التبغ والأشياء الأخرى» -

قالت الآنسة ماتي، «سوف أعطيك أيها الرجل الطيب خمسة سفرونات مقابل ورقتك النقدية المصرفية، ذلك أنني واحدة من المساهمين، وأنا متأكدة من أنهم كانوا سيُعلِمونني لو أن الأمور لم تكن على ما يرام».

همس البائع ببضع كلمات خلال المنضدة إلى الآنسة ماتي، فنظرت إليه بارتياب.

قالت، «ربما كان الأمر كذلك». ثم تابعت، «ولكنني لا أتظاهر بأنني أفهم العمل التجاري. أعرف إذا كان البنك سيفلسف حسب، وإذا كان هناك أشخاص شرفاء سوف يفقدون أموالهم لأنهم أخذوا أوراقنا النقدية - لا يمكنني أن أوضح ما في نفسي». قالت ذلك، ثم أصبحت فجأة مدركة أنها قالت جملة طويلة أمام جمهور من أربعة أشخاص. وتابعت، «سوف أقوم باستبدال قطعي الذهبية مقابل الورقة النقدية المصرفية، لو سمحت». ثم استدارت نحو المزارع وقالت، «وهكذا تستطيع أخذ الشال لزوجتك». ثم وجهت الكلام نحوي، «سوف يقتضي الأمر بضعة أيام إضافية قبل أن أحصل على ردائي. بعدئذ، بلا ريب، سوف يتضح كل شيء».

قلتُ، «ولكن إذا اتضح بطريقة غير مواتية؟»

«آه، عندئذ سيكون الأمر مسألة أمانة عادية مني، بوصفي مساهمة، أن قمت بإعطاء المال إلى هذا الرجل الطيب. إن الأمر واضح تماماً في ذهني. ولكن، كما تعلمين، أنا لا أستطيع التكلّم بشكل مفهوم مثل الآخرين، عليك لو سمحت يا سيد دوبسون أن تعطيني ورقتك النقدية فحسب، وأكمِل أنتَ عملية الشراء بهذه السفرونات».

نظر الرجل إليها في امتنان صامت - كان محرجاً كثيراً إلى درجة لم تمكّنه من التعبيرعن امتنانه بالكلمات. ولكنه تردد قليلاً دقيقة أو دقيقتين وهو يتحسس ورقته النقدية.

«أكره أن أجعل شخصاً آخر يخسر بدلاً مني، إن كانت خسارة. ولكن، كما ترين، خمسة جنيهات مبلغ كبير بالنسبة إلى رجل لديه أسرة. وكما تقولين، من المؤكد أن الورقة النقدية المصرفية سوف تكون جيدة مثل الذهب مرة أخرى بعد أيام قليلة».

قال البائع، «ليس هناك أمل في ذلك يا صديقي».

قالت الآنسة ماتي بهدوء، «وذلك يجعل أخذي لها من باب أولى». ودفعتْ سفروناتها نحو الرجل الذي وضع ببطء ورقته النقدية مقابلها، وقالت، «شكراً لك. سوف أنتظر بضعة أيام قبل شراء أي من هذه الأقمشة الحريرية. ربما سيكون لديك عندئذ خيارات أكثر. هلّا رافقتني إلى الطابق العلوي يا عزيزتي؟»

تفحصنا الأزياء باهتمام تفصيلي وفضولي كما لو أن الرداء الذي سيصنع على شاكلتها قد تم شراؤه. لم أستطع أن ألحظ أن الحدث البسيط الذي جرى في المتجر قد أَخْمَدَ بأية درجة فضول الآنسة ماتي فيما يتعلق بصنع الأكمام أو موقع التنانير. وقد تبادلت التهنئة معي

عدة مرات على معاينتنا المنعزلة والمتروية للقلنسوات والشالات. ولكنني كنت طوال الوقت غير متأكدة من أن تفحصنا كان منعزلاً تماماً، ذلك أنني لمحت شكلاً بشرياً يراوغ وراء المعاطف والعباءات. وفي حركة بارعة، أصبحتُ وجهاً لوجه مع الآنسة بول، التي كانت ترتدي ملابس الصباح أيضاً (كانت السمة البارزة فيها هي أنها بلا أسنان، وترتدي نقاباً لتخفي ذلك النقص)، وقد جاءت لنفس الغرض الذي جئنا من أجله. ولكنها غادرت بسرعة لأنها، على حد قولها، كانت تعاني من ألم في الرأس، ولم تشعر بأنها كانت قادرة على التحدث.

عندما نزلنا إلى المتجر في الأسفل، كان السيد جونسون المهذب في انتظارنا. وكان قد أُبلِغَ بعملية استبدال الورقة النقدية المصرفية بالذهب، ورغب في أن يواسي الآنسة ماتي وأن يوضح لها حقيقة الأمر بمشاعر طيبة وبلطف حقيقي، ولكن بافتقار قليل للباقة. كان بإمكاني أن أتمنى أن يكون قد سمع فحسب إشاعةً مبالغاً فيها، ذلك أنه قال إن أسهمها كانت بلا قيمة، وأن المصرف غير قادر على دفع شلن مقابل كل جنيه. كنت مسرورة لأن الآنسة ماتي كانت ما تزال تبدو متشككة قليلاً. ولكنني لم أكن قادرة على معرفة كم من هذا كان حقيقياً أو متكلفاً، نظراً إلى أن ضبط النفس الذي بدا أنه أمر عادي متوقع من امرأة في مكانة الآنسة ماتي في كرانفورد، ومن النساء اللواتي كنّ يعتقدن أن أقل تعبير عن المفاجأة أو الخوف أو أي شعور مشابه أمام شخص أدنى في محطة أو في متجر عام، سيعرِّض مكانتهن للخطر. ولكننا مشينا إلى المنزل في صمت شديد. إنني أشعر بالخجل وأنا أقول، أعتقد أنني كنت مستاءة ومنزعجة من تصرف الآنسة ماتي في أخذ الورقة النقدية المصرفية لنفسها بلا تردد.

لقد كنت مصممة على حصولها على رداء حريري جديد، وهو ما كانت ترغب فيه بشدة. في أغلب الأحيان، كانت مترددة جداً إلى درجة أن أي شخص كان من الممكن أن يحملها على تغيير رأيها. ولكن في هذه الحالة، شعرتُ أنه لا فائدة تُرجى من محاولة ذلك، إلا أنني على الرغم من ذلك، كنت منزعجة من النتيجة.

بطريقة ما، بعد الساعة الثانية عشرة، اعترفنا كلتانا بإشباع فضولنا بشأن الأزياء، وبإرهاق أكيد للجسم (الذي كان في الواقع اكتئاباً عقلياً) ما جعلنا ننفر من الخروج مرة أخرى. ولكننا مع ذلك لم نتحدث قطُّ بالورقة النقدية المصرفية حتى سيطر عليّ فجأة أمر ما دفعني إلى سؤال الآنسة ماتي عما إذا كانت تعتقد أن من واجبها أن تُقَدِّم سفرونات مقابل جميع أوراق مصرف تاون آند كاونتي بانك النقدية التي تصادفها؟ يا ليتني تمكنتُ من أن أمسك لساني في اللحظة التي قلت فيها ذلك. نظرتْ إليَّ بحزن إلى حد ما، كما لو أنني أدخلتُ مصدر حيرة جديد إلى عقلها المكتئب أصلاً. ولم تتكلم بضعَ دقائق. ثم قالت - عزيزتي الآنسة ماتي - دون أثر لعتاب في صوتها -

«عزيزتي، أنا لا أشعر مطلقاً بأن عقلي ما يمكن أن يسميه الناس قوياً جداً، ففي كثير من الأحيان يكون البتّ فيما عليّ أن أفعله في الحالة الحاضرة بين يدي أمراً صعباً بما فيه الكفاية بالنسبة إليّ. كنت ممتنة اليوم لـ.. لقد كنت ممتنة جداً لأنني عرفت واجبي في هذا الصباح، نحو الرجل المسكين الذي كان واقفاً بجانبي. ولكن الاستمرار بالتفكير والتفكير فيما ينبغي أن أفعل إذا حدث هذا الأمر أو ذاك يعدّ جهداً مُجهِداً لي إلى حدّ ما، وأعتقد أنه من الأفضل أن أنتظر وأرى ما الذي سيحدث فعلياً. وأنا لا أشك في أنني سوف

أُوَقّق عندئذ إذا لم أتململ فأصبح قلقة جداً سلفاً. أنت تعرفين، يا حبيبتي، أنني لست مثل ديبورا. لو كانت ديبورا على قيد الحياة، فليس لديّ شك في أنها كانت ستعتني بهم قبل أن يقحموا أنفسهم في هذا الوضع».

لم تكن لأي منا شهية كبيرة لتناول الغداء، على الرغم من أننا حاولنا التحدث بابتهاج بأمور مختلفة. وعندما رجعنا إلى غرفة الاستقبال، فتحت الآنسة ماتي مكتبها وأخذت تنظر في دفاتر حساباتها. كنت نادمة جداً لما قلته في الصباح إلى درجة أنني لم أرغب في أن أكلف نفسي افتراض أنه كان بإمكاني مساعدتها، وفضّلتُ أن أتركها وشأنها حيث كانت عيناها، مع تعابير وجهها الحائرة، تتبعان قلمها صعوداً وهبوطاً في الصفحة المسطّرة. وبعد وقت غير طويل، أغلقت الكتاب، وأقفلت المكتب ثم جاءت وسحبت كرسياً إلى جواري، حيث كنتُ أجلسُ في حزن وكآبة قرب النار. دسست يدي في يدها بلطف، فأمسكتْ بها، لكنها لم تقل كلمة واحدة. وأخيراً قالت، بثبات متكلف في صوتها، «إذا أخفق ذلك المصرف، فسوف أخسر، في كل سنة، مائة وتسعة وأربعين جنيهاً إسترلينياً وثلاثة عشر شلناً وأربعة بنسات. سوف يتبقى لي ثلاثة عشر جنيهاً إسترلينياً في كل سنة». ضغطتُ على يدها بقوة وإحكام. لم أعرف ماذا أقول. كان الظلام أشد من أن أرى وجهها. وسرعان ما شعرتُ بأصابعها تتحرك بتشنج في قبضتي، فعرفت أنها كانت ستتكلم مرة أخرى. سمعت تنهدات نشيج في صوتها عندما قالت، «آمل ألا يكون ظلماً – ولا خبثاً – ولكن، أوه! أنا مسرورة جداً أن ديبورا نجت من هذا الأمر. ما كان باستطاعتها تحمُّل انحطاط مكانتها – لقد كانت تتمتع بروح نبيلة أبيّة».

كان ذلك كل ما قالته في أختها التي أصرّت على استثمار أموالها القليلة في هذا المصرف العاثر. تأخرنا في إشعال الشمعات أكثر من العادة في تلك الليلة، وقد جلسنا معاً في صمت وحزن شديدين إلى أن دَفَعَنا ذلك الضوءُ إلى الحديث دفعاً.

إلا أننا أقبلنا على أشغالنا بعد الشاي بنوع من البهجة المتكلفة (التي سرعان ما أصبحت حقيقية إلى حد ما)، وأخذنا نتحدث بذلك الأمر العجيب الذي لا ينتهي أبداً، خطوبة الليدي غلينماير. وكانت الآنسة ماتي قد غيرت رأيها تقريباً فأخذت تفكر في أنه أمر جيد.

«لا أقصد إنكار أن الرجال مزعجون في المنزل. أنا لا أحكم من خبرتي، ذلك أن والدي كان مرتباً إلى أقصى درجة، وكان يمسح حذاءَه عند الدخول بعناية كبيرة مثل أي امرأة. ومع ذلك، يعرف الرجل ما ينبغي له القيام بفعله في الشدِّة، إلى درجة أنه من الرائع جداً أن يكون بجوارك رجل تعتمدين عليه. والآن، بالنسبة إلى ليدي غلينماير، بدلاً من أن تتجاذبها الأطراف وتتساءل أين يمكنها أن تستقر، فسوف تكون متأكدة من الاستقرار في منزل بين أشخاص لطفاء مثل الآنسة بول الطيبة والسيدة فوريستر. والسيد هوغينز رجل وسيم جداً. أما بالنسبة إلى تصرفاته، آه، إذا لم تكن مهذبة جداً، فقد عرفتُ أشخاصاً أصحاب قلوب طيبة جداً وأذكياء جداً أيضاً، ولم يكونوا في عداد المهذّبين لدى بعض الناس، ولكنهم كانوا صادقين ولطفاء على حد سواء».

وانسحبتْ في حلم يقظة شاعري بالسيد هولبروك، ولم أقاطعها، كنت منشغلة بدراسة خطة تجول في خاطري منذ عدة أيام،

ولكن هذا الإفلاس المحدق بالمصرف كان قد وضعها في مأزق. في تلك الليلة، بعد أن ذهبت الآنسة ماتي إلى الفراش، أشعلتُ الشمعة مرة أخرى وأنا أشعر بالذنب، وجلستُ في غرفة الاستقبال لكتابة رسالة إلى الآغا جينكينز، رسالة من المفترض أن تؤثر فيه إن كان هو بيتر، ومع ذلك تبدو مجرد بيان يحتوي على حقائق جافة إذا كان غريباً. دقت ساعة الكنيسة دقتين قبل أن أكون قد انتهيت.

في صباح اليوم التالي وصل خبر، بطريقة رسمية وغير رسمية على حد سواء، يفيد بأن مصرف «تاون آند كاونتي بانك» قد أوقف التسديد. كانت الآنسة ماتي مُدمَّرة.

حاولتْ أن تتحدث معي بهدوء، لكنها عندما وصلت إلى الحقيقة الراهنة بأنه لن يكون لديها سوى خمسة شلنات في الأسبوع لتعيش بها، فلم تستطع كبح بعض الدموع.

«أنا لا أبكي من أجل نفسي يا عزيزتي». قالت ذلك وهي تمسح دموعها. ثم أضافت، «أعتقد أنني أبكي من أجل الفكرة السخيفة جداً، وهي: كيف كانت أمي ستحزن لو كان بإمكانها أن تعرف. لقد اعتنت بنا دائماً أكثر كثيراً من اعتنائها بنفسها. ولكن كثيراً من الناس الفقراء لديهم ما هو أقل، وأنا لستُ مُسرفة جداً، ويشكرون الرب. عندما أُسَدِّد قيمة رقبة الضأن، وأدفع أجور مارثا وأجرة المنزل، فلن يتبقى لدي فلس واحد. مارثا المسكينة! أعتقد أنها ستكون آسفة جداً عندما تتركني».

ابتسمت لي الآنسة ماتي من خلال دموعها، وكان سيسرّها لو أنها جعلتني أرى الابتسامة وليس الدموع فحسب.

14

الصديق وقت الضيق

لقد كان مثالاً يُحتذى بالنسبة إليَّ، وأتصور أنه من الممكن أن يكون كذلك بالنسبة إلى كثير من الآخرين، وهو أن أرى كيف شرعت الآنسة ماتي فوراً بتخفيض النفقات، الذي عَرَفَتْ أنه هو الصواب في ظل ظروفها التي تبدلت. وعندما نزلتْ لتتحدث مع مارثا، وتبلغها بالمعلومة، تسللتُ ومعي رسالتي الموجهة إلى الآغا جينكينز، وذهبت إلى مسكن السينيور للحصول على العنوان الدقيق. طلبت من السينيورة التزام السرية، وفي الواقع فقد كان في أخلاقها العسكرية درجة من الإيجاز والتحفظ ما جعلها دائماً تقول أقل ما يمكن، إلا عندما تكون تحت ضغط إثارة شديدة. علاوة على ذلك (ما جعل سرّي مضموناً بشكل مضاعف)، هو أن السينيور قد تعافى كثيراً الآن إلى درجة أنهم كانوا يتطلعون إلى السفر وممارسة الشعوذة مرة أخرى في غضون أيام قليلة، وكان سيغادر كرانفورد، هو وزوجته وفويب الصغيرة. وفي الواقع، وجدته ينظر إلى يافطة كبيرة سوداء وحمراء، ذُكِرَ فيها براعات السينيور برونيوني، وكان ينقصها اسم البلدة التي سوف يعرضها فيها فحسب. كان وزوجته مستغرقين كثيراً في تحديد المكان الذي يمكن أن يكون تأثير الأحرف الحمراء

فيه أكبر (وربما كان هو الموضوع الأساسي لهذا الأمر)، إلى درجة أنه مرَّ بعض الوقت قبل أن أتمكن من طرح سؤالي على انفراد، وليس قبل أن أكون قد قدمتُ عدة قرارات ارْتَبْتُ فيها فيما بعد بالقدر ذاته من تعقل الصراحة حالما ألقى السينيور بشكوكه وحيثياته على الموضوع المهم. وفي نهاية المطاف حصلتُ على العنوان، الذي تمت تهجئته لفظياً، وبدا غريباً جداً. أسقطت الرسالة في البريد وأنا في طريقي إلى المنزل، ثمّ وقفتُ دقيقة أنظر إلى اللوح الخشبي ذي الشق الطولي المفتوح، والذي يفصلني عن الرسالة التي كانت منذ دقيقة واحدة بين يديّ. لقد ابتعدتْ عني مثل الحياة، ولن تُستَرَدّ مطلقاً. سوف يتقاذفها البحر، وربما تتلطخ بموجات البحر، وتُحمَل بين أشجار النخيل، وتُعطَّر بروائح استوائية كثيرة. قطعة الورق الصغيرة، التي كانت عادية ومألوفة جداً منذ ساعة واحدة، قد بدت رحلتُها إلى البلاد الغريبة المتوحشة أبعدَ من نهر الغانغ! ولكن لم يكن في استطاعتي تحمّل خسارة الكثير من الوقت من أجل هذه التكهنات، فهُرِعت إلى المنزل بحيث لا تفتقدني الآنسة ماتي. فتحتْ مارثا لي الباب، وكان وجهها متورماً من البكاء، ثم انفجرت باكيةً من جديد بمجرد أن رأتني، وأمسكت بذراعي وسحبتني إلى الداخل، وأغلقت الباب بعنف، لكي تسألني ما إذا كان كل ما قالته الآنسة ماتي صحيحاً بالفعل.

«لن أتركها أبداً! لا، لن أفعل». قلتُ لسيّدتي ذلك، وقلتُ لها أيضاً «إنه لا يمكنني التفكير كيف استطاعت أن تعطيني إخطاراً. ما كنتُ لأجرؤ على فعل ذلك لو كنت مكانها. كان من الممكن أن أكون عديمة الفائدة مثل روزي خادمة السيدة فيتز آدم، التي قاتلت

من أجل الأجور بعد العيش سبع سنوات ونصف في مكان واحد. قلتُ إنني لست تلك التي ستذهب وتخدم شيطان الجشع في تلك الظروف، فأنا أعرف حينما أعمل لدى سيدة طيبة، إذا كانت هي لا تعرف حينما تكون لديها خادمة جيدة» -

قاطعتُها وهي تمسح عينيها، وقلتُ، «ولكن يا مارثا».

ردتْ على نبرة استهجاني، «لا تقولي 'ولكن يا مارثا'».

«أذعني للمنطق».

قالت الآن وقد استردّت صوتها بشكل كامل، والذي كان مخنوقاً إلى حد ما بتنهدات نشيج، «لن أذعن للمنطق. المنطق دائماً يعني ما لدى شخص آخر من قول. الآن أنا أعتقد أنّ ما لديّ من قول هو منطق جيد بما يكفي. ولكن سواء أكان منطقاً أم لا، فسوف أقوله، وسوف أتمسك به. لديّ مال في مصرف «سيفينغز بانك»، وعندي مخزون جيد من الملابس، ولن أترك الآنسة ماتي. لا، حتى لو قدمتْ لي إخطاراً في كل ساعة من اليوم!»

وقفت ويداها على وركيها ومِرفَقاها موجهان نحو الخارج، كأنها تتحداني. وفي الواقع، كنتُ غير قادرة على معرفة كيف أبدأ بالاعتراض عليها، فقد كنت أشعر أن الآنسة ماتي، في ضعفها المتزايد، بحاجة شديدة إلى خدمة هذه المرأة اللطيفة والمخلصة.

قلت أخيراً، «حسناً».

«أنا ممتنّة أنك بدأت بـ 'حسناً!' ولو كنتِ قد بدأت بـ 'لكن'، كما فعلتِ من قبل، لما استمعتُ إليك. يمكنك متابعة الكلام الآن».

«أعرف أنك ستكونين خسارة كبيرة للآنسة ماتي يا مارثا».

قالت مارثا بانتصار، «قلتُ لها ذلك. خسارة لن تتوقف مطلقاً عن التأسف عليها».

«ومع ذلك، فسيكون لديها القليل جداً - قليل جداً جداً - لكي تعيش به، إلى درجة أنني لا أرى الآن كيف ستتمكن من الحصول على طعامك - بل إنها سوف تكون في ضيق من أجل طعامها هي نفسها. أقول لك هذا يا مارثا لأنني أشعر أنك مثل صديقة للآنسة ماتي العزيزة، ولكنك تعرفين أنها قد لا تُحِبُّ أن تُحَدِّثُكِ به».

يبدو أن هذا كان مشهداً أكثر سواداً للموضوع ممّا كانت الآنسة ماتي قد قدمته إليها، ذلك أن مارثا جلست على أقرب كرسي كان في المتناول، وبكت بصوت مرتفع (كنا واقفتين في المطبخ).

أخيراً، وضعت مئزرها على الأرض، ثم سألت وهي تنظر في وجهي بجدية، «هل كان هذا هو السبب في أن الآنسة ماتي لم تطلب حلوى البودينغ اليوم؟ لقد قالت إنه ليس لديها ميل كبير إلى تناول أي نوع من الحلويات، وأنكما، أنتِ وهي، سوف تكتفيان بتناول قطعة من لحم الضأن. ولكنني سوف أكون مسؤولة عنها. لا تخبريها مطلقاً، ولكنني سوف أصنع حلوى البودينغ، وحلوى بودينغ سوف تُحبها، أيضاً، وسوف أدفع ثمنها بنفسي. احرصي على أن تأكلها. فكثير من الناس يجدون سلوى في أحزانهم من خلال رؤية طبق طيب يوضع على مائدتهم».

كنت مسرورة إلى حد ما لأن طاقة مارثا قد اتجهت فوراً إلى صنع حلوى البودينغ، ذلك أنها تجنبت المناقشة المماحِكة المتعلقة بما

إذا كان ينبغي لها أن تترك خدمة الآنسة ماتي أم لا. وبدأت تربط مئزراً نظيفاً، وتحضّر نفسها من نواح أخرى لكي تذهب إلى المتجر لإحضار الزبدة والبيض وما قد تحتاج إليه. لن تستخدم كسرة خبز من المواد المحفوظة أصلاً في المنزل من أجل عملية طهيها، بل ذهبت إلى إبريق شاي قديم كان يحتوي على مخزونها الخاص من المال، وأخذت منه ما تريد.

وجدتُ الآنسة ماتي هادئة جداً، وغير حزينة نهائياً. بعد برهة، حاولتْ أن تبتسم من أجلي. اتفقنا على ان أكتب رسالة إلى والدي، وأن أطلب منه أن يأتي ويقدم المشورة، وبمجرد إرسال هذه الرسالة، بدأنا نتحدث بالخطط المستقبلية. كانت فكرة الآنسة ماتي هي استئجار غرفة واحدة، والاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من قطع الأثاث الضرورية لتجهيزها، وبيع الباقي، وأن تعيش هناك بهدوء بما سيتبقى بعد تسديد الإيجار. من ناحيتي، فقد كنت أكثر طُموحاً وقَنوعاً بشكل أقل حيث إنني فكرتُ في كل الأشياء التي من الممكن لامرأة تجاوزت سن الخمسين، ومزودة بالتعليم الدارج بالنسبة إلى النساء منذ خمسين عاماً، أن تكسب بها رزقها، أو أن تُضيف إليه دون أن تخسر مركزها الاجتماعي مادياً. ولكنني، بعد مرور بعض الوقت، وضعت أيضاً هذه الجملة الأخيرة جانباً وتساءلت ما الذي يمكن أن تفعله الآنسة ماتي.

كان التدريس، من غير ريب، أول شئ عرض نفسه. إذا كانت الآنسة ماتي قادرة على تعليم الأطفال أي شيء، فسوف تُلقى بها بين العفاريت الصغار الذين كانت روحها تَسعَد بهم. تصفحتُ مؤهلاتها، وسمعتها ذات مرة تقول إنها تستطيع عزف أغنية «آه!

هل أقول لكِ يا أمي؟» على البيانو، ولكن كان ذلك قبل وقت طويل جداً. إن ذلك الطيف الباهت للمؤهلات الموسيقية كان قد تلاشى منذ سنوات. وكانت أيضاً قادرة على نسخ باترونات تطريز الموسلين بشكل رائع جداً، وذلك بواسطة وضع قطعة من الورق الشفاف فوق الرسم المُراد نسخه، وإمساكهما معاً مستندين إلى لوح النافذة الزجاجي في أثناء تحديدها لحافة المطرزات والفتحات والثقوب. ولكن كان ذلك أيسر نهج لإنجاز الرسومات، ولا أعتقد أنه كان يمكن أن يكون ملائماً كثيراً لما هو مطلوب. ومرة أخرى، فيما يتعلق بفروع التعليم الإنجليزي الممتاز - عمل مُتقَن للأجرام السماوية واستخدامها بطريقة ممتازة - مثل التي تَعِدُ بتعليمها مديرة مدرسة «ليديز سيميناري»، وهي المدرسة التي يُرسِل جميعُ أصحاب الحرف في كرانفورد بناتهم إليها. كانت عينا الآنسة ماتي تخذلانها، وكانت لديّ شكوك في شأن ما إذا كانت قادرة على اكتشاف عدد الخيوط في باترون غزل صوفي، أو أن تقدِّر بشكل صحيح درجات اللون المختلفة اللازمة لوجه الملكة أديلايد في أشغال صوف الولاء الرائجة الآن في كرانفورد. أما بالنسبة إلى استخدام الأجرام السماوية، فلم أستطع قطُّ اكتشافها أنا نفسي، لذا فربما أنا لست حكَماً جيداً على قدرة الآنسة ماتي على التعليم في هذا الفرع من المعرفة. ولكن صدمني أن خطوط الاستواء والمناطق المدارية، وغيرها من الدوائر المبهمة، كانت فعلياً خطوطاً وهمية جداً بالنسبة إليها، وأنها كانت تنظر إلى دائرة البروج بوصفها مُخَلَّفات الفن الأسود.

ما كانت تفتخر به، بوصفه فنوناً برعت فيها، كان صنع ولاعات الشموع، أو «اللفافات» (كما كانت تُفضّل أن تسميها)،

من الورق الملون المقصوص بحيث يُشبه الريش، وحياكة أربطة الجوارب بمجموعة متنوعة من الغرز الجميلة. قلتُ ذات مرة، عندما تلقيتُ هدية صغيرة هي «زوج أربطة مُتقن»، إنه ينبغي لي أن أشعر بإغراء شديد لرميه في الشارع لكي يُبدي المارة إعجابهم به. ولكنني وجدت أن هذه الطرفة الصغيرة (وهي طرفة صغيرة جداً) كانت مصدر كرب لإحساسها بحدود اللباقة، وقد أُخِذَت بقلق وبخوف جديّ، خشية أن يكون الإغراء يوماً ما قوياً أكثر من اللازم بالنسبة إليّ، إلى درجة أنني ندمت كثيراً على مخاطرتي بقولها. لقد كانت هدية من هذه الأربطة المشغولة بنعومة، أو مجموعة من «اللفافات»، أو مجموعة من ورق شدَّة ملفوف عليها خياطة حريرية بطريقة مُلغزة، هي التذكارات الرمزية المعروفة جيداً لهدايا الآنسة ماتي. ولكن هل من الممكن لأحد أن يدفع مقابل تعليم أطفاله مثل هذه الفنون؟ أو هل من الممكن فعلياً أن تبيع الآنسة ماتي، بمال قذر، البراعةَ والمهارة اللتين تصنع بهما أشياء بسيطة ذات قيمة لأولئك الذين تحبهم؟

كان عليَّ أن أتراجع إلى القراءة والكتابة والحساب. وفي أثناء قراءة الفصل في كل صباح، كانت دائماً تسعل قبل الوصول إلى كلمات طويلة. وقد تشككتُ في قدرتها على إكمال فصل من الأنساب، بأي عدد من مرات السعال. وبالنسبة إلى الكتابة، فقد كانت تكتب بشكل جيد ومرهف - ولكن الإملاء! على ما يبدو، فإنها كانت تعتقد أنه كلما تعمدت تجنبه أكثر، وكلما كلفها إزعاجاً أكبر، كانت مجاملتها لمراسلها أعظم. والكلمات التي كانت تكتبها بشكل صحيح تماماً في رسائلها إليّ أصبحت ألغازاً متقنة عندما كتبت إلى والدي.

لا! لم يكن هناك أي شيء تستطيع أن تعلمه للجيل الصاعد في كرانفورد، إلا إذا كانوا متعلمين سريعين ومقلدين متحفزين إلى صبرها وتواضعها وعذوبتها، وقناعتها بكل ما لا تستطيع عمله. تأملتُ وتأملتُ إلى أن أعلنتْ مارثا وقت العشاء، بوجهها المنتفخ والمتورم من البكاء.

كان لدى الآنسة ماتي بعض الصفات الغريبة التي كانت مارثا تميل إلى اعتبارها نزوات غير جديرة بأن تسترعي انتباه الآنسة ماتي، وبدا أنها تعتبرها أهواء صبيانية ينبغي لامرأة في سن الثامنة والخمسين أن تحاول وتعالج نفسها منها. ولكن اليوم كان كل شيء يُقدَّم بأقصى درجة من الاحترام، فقد تم تقطيع الخبز بنمط خيالي رائع كان حاضراً في ذهن الآنسة ماتي، كونه الطريقة التي كانت تُفضلها أمها، وكانت الستارة مسحوبة بحيث تحجب جدار الطوب الأصم لإصطبل أحد الجيران، ومع ذلك كانت قد تُرِكتْ بحيث تُظهِر كلَّ ورقة غضة من أوراق شجرة الحور التي كانت قد بدأت تبرز للعيان في جمال ربيعي. وكانت نبرة صوت مارثا نحو الآنسة ماتي تماماً كتلك النبرة التي كانت الخادمة الطيبة فظة الحديث تحتفظ بها كنبرة مقدسّة مخصصة للأطفال الصغار، والتي لم أسمعها قطُّ تستخدمها مع أي شخص كبير.

كنت قد نسيت أن أخبر الآنسة ماتي بحلوى البودينغ، وخشيت ألا تَقْدُرَها حقّ قدرها، ذلك أنه كان واضحاً أن شهيتها كانت شبه معدومة هذا اليوم. لذا، انتهزت الفرصة لإطلاعها على السر في أثناء أخذ مارثا اللحمَ بعيداً. اغرورقت عينا الآنسة ماتي بالدموع، ولم تستطع الكلام سواء للتعبير عن الدهشة أو السرور، عندما عادت

مارثا تحمل حلوى البودينغ عالياً، وكانت مصنوعة في أروع تمثيل تم تشكيله على الإطلاق لأسد رابض. أشرق وجه مارثا بالظفر في أثناء وضعها أمام الآنسة ماتي وهي تقول في نشوة، «ها هي ذي!» أرادت الآنسة ماتي أن تقدِّم شكرها في كلمات، ولكنها لم تستطع. لذا أخذتْ بيد مارثا وهزتها بحرارة، ما حمل مارثا على البكاء، وأنا نفسي كدت أفقد قدرتي على الاحتفاظ برزانتي. خرجت مارثا من الغرفة مندفعة، وتعين على الآنسة ماتي تنظيف حنجرتها بالتنحنح أكثر من مرة قبل أن تتمكن من الكلام. وأخيراً قالت، «أودّ يا عزيزتي أن أُبقي حلوى البودينغ هذه تحت حاجز زجاجي!» وفكرة الأسد الرابض، بعينيه المركبتين من الزبيب، مرفوعاً إلى منزلة الشرف على رفّ الموقد، دغدغتْ مخيلتي المحمومة، وبدأتُ بالضحك، الأمر الذي أدهش الآنسة ماتي.

قالت، «أنا متاكدة يا عزيزتي أنني رأيت أشياء أكثر بشاعة تحت حاجز زجاجي قبل الآن».

وكذلك أنا، مراراً وتكراراً. لذلك، هدأت ملامحي (والآن كدت أفقد قدرتي على منع نفسي من البكاء)، وهجمنا كلتانا على حلوى البودينغ، التي كانت بالفعل ممتازة - ولكن بدا أن كل لقمة كانت تخنقنا، لقد كان قلبانا مليئَيْن بالحزن والغمّ.

كان لدينا الكثير لنفكر فيه بدلاً من الحديث، عصرَ ذلك اليوم. لقد مرَّ بهدوء شديد. ولكن عندما أُحضِرَت غلاية الشاي الكبيرة، خطرت في رأسي فكرة. لماذا لا تقوم الآنسة ماتي ببيع الشاي - وأن تكون وكيلاً لشركة شاي الهند الشرقية التي كانت

قائمة آنذاك؟ لم أرَ أيّ اعتراضات على هذه الخطة، في حين كانت المزايا كثيرة – مع الافتراض دائماً أنّ الآنسة ماتي يمكنها تجاوز هوان التنازل بالانخفاض إلى مستوى أي شيء مثل التجارة. لم يكن الشاي زيتيَّ المظهر ولا لزجاً – كون المظهر الزيتي واللزوجة صفتين لم يكن باستطاعة الآنسة ماتي تحملهما. ولم تكن هناك ضرورة إلى واجهة عرض. صحيح أنه من الضروري إبراز إعلان صغير أنيق يُشير إلى أن لديها ترخيصاً لبيع الشاي، ولكن كان لديّ أمل في أن يكون من الممكن وضعه بحيث لا يستطيع أحد أن يراه. كما أن الشاي ليست مادة ثقيلة بحيث تُرهق قوة الآنسة ماتي الهشة. لقد كانت العقبةُ الوحيدةَ أمام خطتي هي عمليتا البيع والشراء اللازمتان.

عندما كنت أعطي إجابات في شرود ذهن عن الأسئلة التي كانت الآنسة ماتي تطرحها – بالدرجة نفسها من شرود الذهن تقريباً – سمعنا صوت وَطْءٍ ثقيل على الدرج، وهمساً خارج الباب الذي فُتِح وأُغلِق فعلياً كما لو كان بواسطة أداة غير مرئية. بعد فترة قصيرة دخلت مارثا مع شابّ ضخم طويل يسير وراءها، ووجهه قرمزي اللون من الخجل، ويجد راحته الوحيدة في تمسيد شعره بشكل مستمر.

قالت مارثا على سبيل التقديم، «أرجوك يا سيدتي، إنه جيم هيرن». وكانت أنفاسها محبوسة إلى درجة أنني تخيلت أنها كانت في عراك جسدي قبل أن تتمكن من التغلب على ممانعته لأن يُعرَض على مسرح المحكمة في غرفة استقبال الآنسة جينكينز.

«وأرجوك يا سيدتي، إنه يريد أن يتزوجني فوراً. وأرجوك يا سيدتي، نُريد أن نستأجر مسكناً – مجرد مسكن هادئ، لكي نوفر

ضرورات حياتنا. وسوف نستأجر أي منزل مريح. وكذلك، أوه يا آنسة ماتي العزيزة، وإن كنتُ جريئة جداً، هل لديك أي اعتراضات على السكن معنا؟ جيم يريد ذلك بقدر ما أريده أنا». [مُحدِّثةً جيمَ] - «أيها الأحمق! لماذا لا تساندني! - ولكنه يُريد ذلك مثلي تماماً، يريده بشدة، أليس كذلك يا جيم؟ - مجرد أنه، كما ترين، مبهور من كونه دُعي إلى التحدث أمام أفراد الطبقة الرفيعة».

قاطع جيم، «ليس الأمر كذلك. ولكن لأنك أخذتني على حين غرة، وأنا لم أفكر في الزواج بهذه السرعة - ومثل هذه الكلمات تجعل المرء مبهوتاً. ليس الأمر أنني ضد ذلك يا سيدتي» (موجهاً الكلام إلى الآنسة ماتي)، «مجرد أن مارثا تتعامل مع الأمور بتسرع عندما تتخذ قراراً مفاجئاً. والزواج يا سيدتي - الزواج يقيّد الرجل، إن جاز التعبير. أظن أنني لن أمانع بعد دراسة الأمور بسرعة».

قالت مارثا، التي أمسكت بكمّه وسحبته، ووكزته بمِرْفَق يدها، وكانت تحاول مقاطعته طوال الوقت الذي كان يتحدث فيه، «أرجوك يا سيدتي، لا تكترثي له، سوف يغير رأيه. في الليلة الماضية فقط كان يطلب مني، ويطلب مني، وكل ذلك لأنني قلت إنني لا أستطيع التفكير في الأمر مدة سنتين قادمتين، والآن هو مأخوذ من مفاجأة الفرحة فحسب. ولكن أنت تعرف يا جيم أنك مثلي مهتم إلى أقصى درجة بالحصول على مسكن (وكزة أخرى شديدة).

«آي! إذا كانت الآنسة ماتي ترغب في السكن معنا - خلافاً لذلك ليس لدي نية في أن أكون معوَّقاً بأشخاص غرباء في المنزل». قال جيم ذلك في افتقار إلى اللباقة، وكان في إمكاني رؤية أنه أثار

غضب مارثا التي كانت تحاول أن تصور المسكن بوصفه الشيء الرائع الذي كانا يرغبان في الحصول عليه، وأن الآنسة ماتي، في الواقع، سوف تُمهد طريقهما وتُقدم إليهما خدمة بمجرد قدومها والعيش معهما.

كانت الآنسة ماتي هي نفسها مذهولة من هذا الثنائي. لقد أذهلها قرارهما، أو بالأحرى قرار مارثا، المفاجئ لصالح الزواج، وحال بينها وبين التمعن في الخطة التي كانت في أعماق مارثا. بدأت الآنسة ماتي -

«الزواج أمر جدي جداً يا مارثا».

قال جيم، «إنه كذلك بالفعل يا سيدتي. ليس الأمر أنّ لديّ اعتراضات على مارثا».

«أنت لم تجعلني قطُّ أنزعج لأنك طلبت مني أن أحدد متى سنتزوج». قالت مارثا ذلك - وكان وجهها يتقد من الغيظ وتوشك أن تبكي من الامتعاض - وأضافت، «والآن أنت تجلب لي العار أمام سيدتي والجميع».

«كلا، الآن! لا تقولي يا مارثا! لا تقولي يا مارثا! لكن الرجل يحتاج إلى متنفس». قال جيم ذلك وهو يحاول أن يمسك بيدها، لكن دون جدوى. ثمّ بعد أن رأى أنها مجروحة بشكل جدي أكثر كثيراً مما كان قد تصور، فقد بدا أنه يحاول أن يستجمع مداركه المبعثرة، والتفت نحو الآنسة ماتي بقدر من الوقار الواضح أكبر مما كنت أعتقد أنه من الممكن أن يتظاهر به منذ عشر دقائق فحسب. وقال، «أرجو يا سيدتي أن تعرفي أنني مُلزم باحترام كل من كان

لطيفاً مع مارثا. لقد تطلعتُ دائماً إلى أن تكون زوجتي - في وقت ما. وفي كثير من الأحيان كانت تتحدث بشأنك بوصفك ألطف سيدة على الإطلاق. وعلى الرغم من أن الحقيقة الواضحة هي أنني لا أرغب في التعرض للإزعاج من سُكنى أُناس يشتركون معنا في حرية التنقل واستعمال المنزل، ومع ذلك، يا سيدتي، إذا قبلتِ تشريفنا بالعيش معنا، فأنا متأكد أن مارثا ستبذل قصارى جهدها لكي تكوني في وضع مريح. وبالنسبة إليّ، فسوف أبقى بعيداً عن ناظريك قدر استطاعتي ما أعتقد أنه سيكون أفضل معروف يمكن لفتى غير لبق مثلي أن يُقدمه».

كانت الآنسة ماتي منشغلة جداً بخلع نظارتها ومسحها وإعادة وضعها. ولكن كل ما قالته كان، «لا تدعا أي تفكير فيَّ يدفعكما إلى التسرع إلى الزواج: أرجو ألّا تفعلا، فالزواج أمر جدي جداً!»

«ولكن الآنسة ماتيلدا سوف تفكر في خطتك يا مارثا. وأنا متأكدة من أننا، أنا وهي، لن نستطيع أبداً نسيان معروفك. ولا معروفك أنت يا جيم». قلتُ ذلك وأنا مندهشة من المزايا التي قدمتها الخطة، وكنتُ غير راغبة في فقدان فرصة دراستها.

«آه، نعم يا سيدتي! أنا متأكد من أنني أريد ذلك بصدر رحب، على الرغم من أنني مرتبك قليلاً لكوني مدفوعاً إلى الزواج في الحال، إذا جاز القول، وربما أنني لا أعبر عن نفسي بشكل مناسب. ولكنني متأكد من أنني مستعد بما يكفي، وامنحيني وقتاً لكي أعتاد. إذن يا مارثا، أيتها الفتاة، ما فائدة البكاء هكذا، وما فائدة صفعي إن اقتربت؟»

هذه الجملة الأخيرة كانت همساً، وأدى إلى جعل مارثا تثب فجأة إلى خارج الغرفة، فتبعها حبيبها وطمأنها. وعندئذ جلست الآنسة ماتي وبكت بحرارة شديدة، وبررت ذلك بقولها إن فكرة زواج مارثا قريباً جداً صدمها صدمة كبيرة، وأنها لن تُسامح نفسها مطلقاً إذا اعتقدت أنها كانت تستعجل تلك الإنسانة المسكينة. أعتقد أنني كنت مشفقة على جيم أكثر من إشفاقي على مارثا. ولكن كلتينا، أنا والآنسة ماتي، قدّرنا إلى أقصى درجة كرم الزوجين الصادقين، على الرغم من أننا تحدثنا قليلاً بهذا، وبالكثير جداً من فرص الزواج ومخاطره.

في وقت مبكر جداً من صباح اليوم التالي، تلقيتُ رسالة من الآنسة بول، ملفوفة بطريقة غريبة جداً، وعليها عدد كبير جداً من الأختام لضمان السرية، إلى درجة أنني اضطررت إلى تمزيق الورقة قبل أن أتمكن من فتحها. وعندما وصلت إلى الكتابة، واجهت صعوبة كبيرة في فهم المعنى، لقد كانت معقدة كثيراً ومبهمة جداً. إلا أنني اكتشفت أن عليّ الذهاب إلى منزل الآنسة بول في الساعة الحادية عشرة، وكان الرقم مكتوباً بالكلمات وكذلك بالأرقام، إضافة إلى كلمتي قبل الظهر، وتحتَها سطران، كما لو كان من المحتمل جداً أن آتي في الساعة الحادية عشرة ليلاً، في حين أن أهالي كرانفورد كلهم يكونون عادة نياماً في فراشهم بحلول الساعة العاشرة. لم يكن هناك توقيع باستثناء الأحرف الأولى من اسم الآنسة بول معكوسة، بي. إي. ولكن نظراً لأن مارثا سلمتني الرسالة، «مع تحيات الآنسة بول»، فلم تكن هناك حاجة إلى عبقري لمعرفة من أرسلها. وإذا كان ينبغي أن يبقى اسم الكاتبة سراً، فمن الجيد جداً أنني كنت وحدي عندما سلمتها مارثا لي.

ذهبتُ إلى منزل الآنسة بول كما طُلِبَ مني. فتحتْ لي الباب خادمتها الصغيرة ليزي وهي بهندام يوم الأحد الأنيق كما لو كان هناك حدث عظيم وشيك في يوم العمل هذا. كانت غرفة الاستقبال في الطابق العلوي مرتبة وفقاً لهذه الفكرة، وكانت المنضدة مفروشة بأفضل غطاء «شَدَّةٍ» أخضر، وعليه مواد كتابة. وكان على الشيفونيرة الصغيرة صينية مع زجاجة نبيذ زهر الحقل مصفقة حديثاً، وبعض بسكويت أصابع الست. كانت الآنسة بول نفسها في ملابس وَقورٍ جداً، كما لو أنها ستستقبل ضيوفاً، على الرغم من أن الساعة كانت الحادية عشرة فحسب. وكانت السيدة فوريستر هناك، تبكي بهدوء وحزن، وبدا أن مجيئي قد أثار دموعاً جديدة. وقبل أن نكون قد انتهينا من تبادل تحياتنا، التي أدَّيناها بطقس جنائزي في التصرف، كان هناك طَرق آخر على الباب، وظهرت السيدة فيتز آدم، ووجهها قرمزي اللون من المشي والانفعال، وبدا كما لو أن كل شخص في المجموعة كان يتوقع مجيئها، حيث إن الآنسة بول قدَّمت مظاهر عديدة تشير إلى كونها توشك أن تفتتح أعمال الاجتماع، وذلك من خلال تحريك الجمر، وفتح الباب وإغلاقه، والسعال والتمخط. ثم نظمتنا جميعنا حول المنضدة، مع حرصها على جعل موقعي مقابلاً لموقعها. وفي نهاية المطاف، استفسرت مني عمّا إذا كان الخبر الحزين صحيحاً، كما كانت تخشى من أن الآنسة ماتي قد خسرت كل ثروتها؟

قطعاً، لم يكن لديّ سوى جواب واحد. ولم يسبق لي قطُّ أن رأيت قدراً من الحزن الحقيقي مرسوماً على أيّ وجوه أكثر مما رأيت في وجوه النساء الثلاث أمامي هناك.

قالت السيدة فوريستر أخيراً، «أتمنى لو أن السيدة جاميسون كانت هنا!» ولكن بالحكم من وجه السيدة فيتز آدم، فإنها لم تكن تؤيد تلك الأمنية.

قالت الآنسة بول، بنبرة تنم عن استحقاق مُهان في صوتها، «ولكن بلا السيدة جاميسون، نحن نساء كرانفورد، في غرفة الاستقبال الخاصة بي، فيمكننا أن نجد حلاً ما. أظن أنه ليس بيننا واحدة يمكن أن تُعَدَّ ثرية، على الرغم من أننا نمتلك أهلية أرستقراطية، كافيةٍ لأذواق أنيقة ومهذبة، ولن تكون، إن كان ذلك ممكناً، متفاخرة بشكل مبتذل». (هنا لحظتُ الآنسة بول تنظر إلى بطاقة صغيرة مخبأة في يدها، أظن أنها دوّنت فيها بضع ملاحظات).

«الآنسة سميث» تابعت كلامها موجِّهة الكلام إليَّ (بطريقة غير رسمية أُعرَف باسم «ماري» لجميع نساء المجموعة، ولكن كانت هذه مناسبة رسمية)، «لقد تحدثتُ على انفراد - لقد كان ذلك الأمر شغلي الشاغل بعد ظهر يومٍ أمس - مع هاتين السيدتين بخصوص المحنة التي حلت بصديقتنا، وقد اتفقنا جميعنا على أنه ما دام كان لدينا فائض عن الحاجة، فلن يكون واجبنا فحسب، ولكن من دواعي سرورنا - من دواعي سرورنا حقاً، يا ماري!» - كان صوتها مخنوقاً إلى حد ما هنا، وتعين عليها مسح نظارتها قبل أن تتمكن من الاستمرار - «أن نُعطي ما نستطيع لمساعدتها - الآنسة ماتيلدا جينكينز. في ضوء مشاعر الاستقلال المرهفة القائمة الآن فحسب في عقل كل أنثى راقية» - كنتُ متأكدة من أنها رجعت إلى البطاقة الآن - «إننا نتمنى أن نُسهِم بمبالغنا الضئيلة من المال بطريقة سرية ومستترة، بحيث لا نؤذي المشاعر التي أشرت إليها. وكانت غايتنا من مطالبتك

بمقابلتنا هذا الصباح هو، نظراً إلى أنك الابنة - ذلك أن والدك هو، في الواقع، مستشارها المؤتمن، في جميع شؤونها الخاصة، فقد اعتقدنا أنك، من خلال التشاور مع والدك، من الممكن أن تستنبطي طريقة يمكن بها لمُساعَدَاتنا أن تظهر كأنها المستحقات القانونية التي ينبغي لها أن تستلمها... من - ربما يستطيع والدك، الذي يعرف استثماراتها، أن يملأ الفراغ».

اختتمت الآنسة بول خطابها، ونظرت حولها من أجل التأييد والموافقة.

«لقد عبرتُ عن نواياكنّ، أيتها السيدات، أليس كذلك؟ وفي أثناء تفكير الآنسة سميث في الرد الذي تريد أن تقدمه، اسمحن لي بأن أقدِّم إليكنّ بعض الطعام والشراب».

لم يكن لديّ ردّ مهم أقدمه: لقد كنت أشعر في أعماقي بامتنان لأفكارهن اللطيفة أكثر من اهتمامي بالتعبير عنه بالكلمات. ولذلك همست بما معناه «سوف أذكر ما قالته الآنسة بول لوالدي، وما إذا كان هناك أيّ شيء من الممكن ترتيبه من أجل الآنسة ماتي»، - وفي هذه اللحظة كنت قد انهرت تماماً، وكان لا بد من إنعاشي بكأس من نبيذ زهور الحقل قبل أن أتمكن من كبح البكاء الذي كنتُ أكبته خلال الأيام القليلة الماضية. وكان الأسوأ هو أن جميع النسوة بَكين معاً بتناغم. وحتى الآنسة بول بكت، وهي التي كانت قد قالت مائة مرة إن في إظهار العاطفة أمام أي شخص علامة ضعف وإشارة إلى افتقارٍ إلى ضبط النفس. استعادت حالتها الطبيعية وتحولت إلى درجة خفيفة من الغضب الانفعالي موجّه ضدي، وذلك لأنني حملتهن على

البكاء. وعلاوة على ذلك، أعتقد أنها كانت ممتعضة لأنني لم أستطع إلقاء خطاب مقابل خطابها. ولو أنني كنت أعرف مسبقاً ما كان سيقال، أو لو كان لديّ بطاقة أُعبر فيها عن المشاعر المحتمل أن تُثور في نفسي، لكنت حاولت إرضاءها. وبسبب الوضع القائم، فكانت السيدة فوريستر هي الشخص الذي تحدث عندما استعدنا رباطة جأشنا.

«لا أمانع من أن أقول، بين صديقاتي، إنني - لا! أنا لست فقيرة تماماً، لكنني لا أعتقد أنني ممن يمكن أن تعتبرنهنّ ثريات. أتمنى لو أنني كنت ثرية من أجل الآنسة ماتي العزيزة - ولكن، لو تفضلتن، فسوف أكتب في مغلّف مغلق بإحكام ما أستطيع تقديمه. أتمنى لو كان أكثر فحسب. إنني أتمنى ذلك فعلياً يا عزيزتي ماري».

عرفتُ الآن لماذا تم توفير الورق والأقلام والحبر، إذ كتبت كل امرأة المبلغ الذي تستطيع أن تقدمه سنوياً، ووقعتْ على الورقة، وأغلقتها بإحكام في سرية. إذا تمت الموافقة على اقتراحهن، فسيُسمح لوالدي بفتح الأوراق، بشرط ضمان السرية. وإلا، فينبغي إعادتها إلى من قمن بكتابتها.

عندما انتهى الاجتماع الرسمي، نهضتُ لكي أغادر. ولكن بدا أن كل امرأة كانت ترغب في الاجتماع معي على انفراد. أبقتني الآنسة بول في غرفة الاستقبال لكي تشرح لماذا أخذتْ، في غياب السيدة جاميسون، بزمام المبادرة في هذه «الحركة» كما طاب لها أن تسميها، وأيضاً لكي تُخبرني بأنها كانت قد سمعت من مصادر موثوقة أن السيدة جاميسون كانت قادمة إلى المنزل مباشرة في حالة من الاستياء الشديد من سلفتها، التي يتعين عليها مغادرة منزلها فوراً،

وكانت، حسب اعتقادها، ستعود إلى إدنبره بعد ظهر اليوم ذاته. من غير شك فلا يمكن توصيل هذه المعلومة أمام السيدة فيتز آدم، بصورة خاصة أكثر لأن الآنسة بول كانت تميل إلى التفكير في أن خطوبة الليدي غلينماير إلى السيد هوغينز لا يمكن أن تصمد أمام سعير استياء السيدة جاميسون. واختُتِمت مقابلتي مع الآنسة بول ببعض الاستفسارات الودية عن صحة الآنسة ماتي.

عند نزولي إلى الطابق السفلي، وجدت السيدة فوريستر في انتظاري عند مدخل صالة الطعام. جذبتني إلى الداخل، وعندما أُغلِق الباب، حاولتْ بضع مرات أن تبدأ بالحديث بموضوعٍ ما بدا أنه كان متعذر المقاربة جداً إلى درجة أنني بدأت أشعر باليأس من إمكانية الوصول إلى فهم واضح. وأخيراً ظهر. كانت السيدة المسنة المسكينة ترتجف طوال الوقت، كما لو أنها كانت تقوم بالكشف عن جريمة كبرى، عندما أخبرتني كم هو قليل جداً جداً ما تعتاش عليه. وهو اعتراف كانت مُجبرة على تقديمه خشية أن نُفكر أن بإسهامها الصغير المذكور في الورقة يمثل بأي درجة حبها وتقديرها للآنسة ماتي. ومع ذلك، فإن المبلغ الذي تنازلت عنه بحرص كان، في الحقيقة، أكثر من جزء من عشرين مما كان يتعين عليها أن تعيش عليه، والحفاظ على المنزل بحالة جيدة، واستبقاء خادمة صغيرة في خدمتها، وكل ذلك كونها من أسرة تيريل. وعندما يكون إجمالي الدخل أقل من مائة جنيه، فإن التنازل عن جزء من عشرين منه سوف يستلزم العديد من عمليات التوفير المدروسة بعناية والكثير من إنكار الذات، هي أشياء صغيرة وغير مهمة في حساب الكون، لكنها تحمل قيمة مختلفة في دفتر حساباتٍ آخر سبق أن سمعتُ به. لقد كانت تتمنى أن

تكون ثرية، هكذا قالت، واستمرت بتكرار هذه الأمنية، دون أي تفكير في نفسها فيها، بل برغبة شديدة جداً في أن تكون قادرة على رفع مستوى راحة الآنسة ماتي.

لقد مرّ بعض الوقت قبل أن أتمكن من مواساتها بما يكفي لكي أتركها. وبعدئذ، عند مغادرتي المنزل، تعرضتُ لكمين أعدته السيدة فيتز آدم، التي كان لديها الثقة لتقديم الوصف المعاكس إلى حد كبير. لم ترغب في تسجيل كل ما تستطيع تحمله وكانت مستعدة لتقديمه. وقالت إنها اعتقدت أنها ما كانت لتتمكن من النظر في وجه الآنسة ماتي مرة أخرى مُطلقاً لو تجرأت على منحها كل ما ترغب في منحه لها. وتابعت، «الآنسة ماتي! تلك التي كنتُ أعتبرها شابة راقية جداً عندما لم أكن سوى فتاة ريفية تأتي إلى السوق بالبيض والزبدة وما شابه ذلك، حيث إن والدي، على الرغم من كونه ميسوراً، كان دائماً يجعلني أواصل عمل ما كانت أمي تقوم بعمله من قبلي، وكان يتعين عليّ الحضور إلى كرانفورد في كل يوم سبت، وأن أهتم بالبيع والأسعار، إلى غير ذلك. وذات يوم، أذكر أنني قابلت الآنسة ماتي في الممرّ المُفضي إلى كومبرهيرست. كانت تمشي على ممرّ المشاة، الذي، كما تعلمين، كان مرتفعاً ارتفاعاً كبيراً عن الطريق، وسار رجل محترم يمتطي جواده إلى جانبها وتحدث إليها، وكانت تنظر نحو الأسفل إلى بعض أزهار الربيع التي كانت قد جمعتها، وتقطّعها جميعها إلى قطع صغيرة، وأعتقد أنها كانت تبكي. ولكن بعد أن مرّت، استدارت وركضتْ في أعقابي لكي تسأل - أوه، بلطف شديد - عن أمي المسكينة، التي كانت مستلقية على فراش موتها. وعندما بكيت، أمسكت بيدي لكي تواسيني - وكان الرجل المحترم ينتظرها طوال

الوقت - وقلبها يغصّ بأمر ما، أنا متأكدة من ذلك. واعتبرتُ أنه شرف كبير أن تتحدث معي ابنة القسيس، الذي زار آرلي هول. لقد أحببتها منذ ذلك الوقت، على الرغم من أنني ربما لا أملك الحق بفعل ذلك. ولكن إذا كان بإمكانك التفكير في أية طريقة يكون مسموحاً لي بها تقديم أكثر قليلاً دون أن يعرف أحد، فسوف أكون مدينة لك يا عزيزتي. وسوف يكون من دواعي سرور أخي أن يقوم بتطبيبها دون مقابل - الأدوية والعلقات وكل شيء. أعرف أنه والسيدة النبيلة (يا عزيزتي، لم أفكر قطُّ في أنه سيأتي يوم كنت سأخبرك فيه أنني سوف أصبح أخت زوج سيدة نبيلة!) سوف يفعلان أي شيء من أجلها. بل إننا جميعنا سنفعل».

قلت لها إنني كنت متأكدة من ذلك تماماً، ووعدتها بأشياء كثيرة جداً في أثناء توقي للعودة إلى المنزل وإلى الآنسة ماتي، التي ربما كانت تتساءل عما يمكن أن يكون قد حدث لي - مرّت ساعتان على غيابي عنها دون أن يتوفّر لي القدرة على تبريره. إلا أنها لم تلحظ مرور الوقت بأي قدر يُذكر، فقد كانت منشغلة بعدد لا حصر له من الترتيبات الصغيرة، تمهيداً لأخذ الخطوة الكبيرة في الاستغناء عن منزلها. وبدا واضحاً أن اتخاذ إجراءات لتخفيض النفقات كان من دواعي ارتياحها. ذلك أنها، كما قالت، كلما كانت تتوقف للتفكير، فإنّ ذكرى ذلك الرجل المسكين، مع الورقة النقدية المصرفية بقيمة خمسة جنيهات استرلينية غير الصالحة، كانت تخطر في بالها وتؤثر فيها كثيراً، وكانت تشعر بعدم الأمانة إلى حد كبير. ولكن إذا كانت تلك الذكرى تجعلها تشعر بانزعاج شديد، فما الذي كانت ستفعله مع مديري المصرف الذين لا بد أنهم كانوا يعرفون أكثر كثيراً البؤسَ

الناجم عن هذا الإفلاس؟ كادت أن تُغضِبني بسبب توزيع تعاطفها بين هؤلاء المديرين (الذين تخيلتْ أنهم كانوا غارقين في تأنيب الذات على سوء إدارة شؤون أناس آخرين) وأولئك الذين كانوا يعانون مثلها. وفي الواقع إنها كانت تعتقد أن الفقر كان يُعدّ عبئاً أخفّ من تأنيب الذات. ولكنني شخصياً أشك في أن المديرين كانوا سيتفقون معها في ذلك.

تم إخراج كنوز قديمة وتفحُّصها بالنسبة إلى قيمتها النقدية التي كانت لحسن الحظّ قليلة، ولولا ذلك ما كنت لأعرف كيف كان من الممكن للآنسة ماتي أن تتغلب على نفسها للتخلي عن أشياء مثل خاتم زواج أمها، ودبوس الزينة الغريب الفجّ الذي شوّه والدُها هدبَ قميصه به، إلخ. من ناحية أخرى، فقد رتبنا الأشياء وفقاً لتقدير قيمتها المالية، وكنا جميعنا جاهزين لاستقبال والدي عندما وصل في صباح اليوم التالي.

لن أرهقك بتفاصيل كل المهمات التي أنجزناها. وأحد أسباب عدم التحدث بها هو أنني لم أفهم ماذا كنا نفعل في ذلك الوقت، ولا أستطيع تذكره الآن. جلستُ والانسة ماتي نوثّق بيانات حسابية ومخططات وتقارير ووثائق لا أعتقد أن أياً منا كانت تفهم كلمة منها، ذلك أن والدي كان صافي الذهن وجازماً، ورجل أعمال كبيراً، وإذا استفسرنا عن أمر ما أو عبرنا عن أدنى افتقار إلى الفهم، فقد كانت له طريقة حادة في قول، «إيه؟ إيه؟ إنه واضح مثل ضوء النهار. ما هو اعتراضك؟» وكما أننا لم نكن نفهم شيئاً مما كان يقترحه، فقد كنا نجد صعوبة إلى حد ما في تشكيل اعتراضاتنا. في الواقع، لم نكن متأكدتين مُطلقاً مما إذا كانت لدينا أية اعتراضات. وهكذا،

فسرعان ما كانت الآنسة ماتي تدخل في حالة مضطربة من الإذعان، وتقول «نعم»، وكذلك «بالتأكيد»، عند كل وقفة، سواء أكان ذلك ضرورياً أم لا. ولكن عندما انضممت مرّةً إليها وقلنا بصوت واحد كلمة «محدَّد»، التي كانت الآنسة ماتي قد نطقتها بنبرة مرتجفة مرتابة، شنّ والدي عليّ حملة كلامية عنيفة وسأل، «ماذا كان هناك لكي يُحَدَّد؟»، وأنا متاكدة من أنني لم أعرف قطُّ حتى هذا اليوم. ولكن، من باب الإنصاف له، لا بد أن أقول إنه كان قد جاء من درمبل لمساعدة الآنسة ماتي في فترةٍ، ما كان في إمكانه توفير الوقت فيها إلا بصعوبة، وفي فترة كانت شؤونه الخاصة في حالة مضطربة جداً.

عندما كانت الآنسة ماتي خارج الغرفة تُعطي أوامر لإعداد وجبة الغداء - ومحتارة بحزن بين رغبتها في تكريم والدي بوجبة طعام شهية وطيبة المذاق، وبين اعتقادها أنه ليس لديها الحق في مسايرة هذه الرغبة الآن بعد أن فقدت كل أموالها - أخبرتُه باجتماع نساء كرانفورد في منزل الآنسة بول في اليوم السابق. استمرّ بمسّ يده برفق أمام عينيه في أثناء حديثي - وعندما عُدتُ إلى عرض مارثا في المساء الذي سبق ذلك اليوم، بخصوص قبول الآنسة ماتي بصفة مقيمة، مشى مبتعداً عني بعض الشيء إلى النافذة، وبدأ ينقر بأصابعه عليها. ثم استدار فجأة وقال، «أترين يا ماري كيف تشكّل الحياة الجيدة البريئة أصدقاء في كل مكان. اللعنة! كان من الممكن أن أستخلص درساً منها لو كنت قِسّاً. ولكن، في هذا الواقع، حيث لا أستطيع فهم جملي - لكنني متأكد من أنك تشعرين بما أريد قوله. سوف نقوم، أنا وأنت، بنزهة على الأقدام بعد الغداء ونتحدث قليلاً بهذه الخطط».

أُحضِر الغداء الآن - رِيَش ضأن ساخنة شهية، وقليل من لحم الخاصرة البارد مقطعاً إلى شرائح ومقلياً. لقد أُكِلَت كل كسرة من هذا الطبق الأخير وأُفرِغ تماماً، ما أبهج مارثا كثيراً. ثم أبلغ والدي الآنسة ماتي بصراحة أنه يريد التحدث معي على انفراد، وأنه سوف يتجول في الخارج لرؤية بعض الأماكن القديمة، ثمّ يمكنني أن أبلغها ما هي الخطة التي نعتبرها مرغوبة. وفي اللحظة التي سبقت خروجنا مباشرة، نادتني وقالت، «تذكري أنني الوحيدة التي بقيت - أقصد أنه ليس هناك أي شخص سيتأذى بما أفعله. إنني على استعداد لفعل أي شيء يكون صائباً وشريفاً. ولا أظن أن ديبورا ستكترث كثيراً إذا عرفتْ، في مكانها، أنني غير أرستقراطية، لأنها، كما تعلمين يا عزيزتي، ستعرف كل شيء. اسمحي لي أن أعرف فحسب ماذا أستطيع أن أفعل، وأن أدفع إلى الفقراء من الناس ما دام ذلك في قدرتي».

قبّلتها بحرارة وركضتُ وراء والدي. وكانت نتيجة حديثنا هي ما يلي: إذا كانت جميع الأطراف مستعدة للموافقة، فعلى مارثا وجيم أن يتزوجا بأقلّ قدر ممكن من التأخير، وعليهما أن يسكنا في مسكن الآنسة ماتي الحالي. وإجمالي المبلغ الذي اتفقت نساء كرانفورد على التبرع به سنوياً يكون كافياً ليلبي الجزء الأكبر من الإيجار، ويُترك لمارثا الحرية في تخصيص ما يُفترض أن تسدده الآنسة ماتي، مقابل إقامتها، لأي قدر قليل من وسائل الراحة الإضافية الضرورية. وبالنسبة إلى بيع الأثاث، كان والدي متشككاً في البداية وقال إن أثاث منزل القسيس القديم، على الرغم من أنه استُعمِل بحرص وعومِل باحترام، فلن يجلب إلا القليل جداً. ولن يكون

ذلك القليل إلا نقطة في بحر من ديون مصرف تاون آند كاونتي بانك. ولكنه تراجع عندما شرحتُ له كيف أن ضمير الآنسة ماتي الرقيق سوف يهدأ من خلال الشعور بأنها قد فعلت ما باستطاعتها، لا سيما بعد أن أخبرته بمجازفة ورقة الجنيهات الخمس، وقد وبخني بشدة لسماحي بذلك. ثم ألمحتُ إلى فكرتي في أنها من الممكن أن تُضيف إلى دخلها القليلَ من خلال بيع الشاي. وقد اندهشتُ كثيراً (ذلك أنني كنت أوشك أن أتخلى عن الخطة) لأن والدي تشبث بها بكل طاقة رجل الأعمال. أعتقد أنه قد أحصى فراخه قبل أن تفقس، فقد حسبَ فوراً أرباح المبيعات التي يمكنها أن تجنيها في كرانفورد بما يزيد على عشرين جنيهاً إسترلينياً في السنة. وكان من المقرر تحويل غرفة الطعام الصغيرة إلى متجر دون أي إضرار بخصائصها حيث سيكون الكاونتر منضدة، وتبقى إحدى النافذتين دون تغيير، وتُحوَّل الأخرى إلى باب زجاجي. وبدا واضحاً أن تقديره لي ارتفع لتقديمي هذا الاقتراح الذكي. تمنيتُ ألّا نُصبح كلانا مسؤولين وحيدَيْن عن الآنسة ماتي.

ولكنها كانت صبوراً وراضية بكل ترتيباتنا، وقالت إنها تعرف أننا قد بذلنا قصارى جهدنا لمساعدتها. وكانت تأمل فحسب، واشترطت فحسب، وأنه ينبغي لها أن تدفع كل فلس يمكن أن يُقال إنها مدينة به، تقديراً لوالدها، الذي كان يحظى باحترام كبير في كرانفورد. اتفقنا، أنا ووالدي، أن نتحدث أقل ما يمكن بشأن المصرف، على ألا نذكره مرة أخرى مطلقاً، إن كان في وسعنا فعل ذلك. كان من الواضح أن بعض الخطط كانت محيرة قليلاً بالنسبة إليها. ولكنها رأتني في الصباح مزجورة بما فيه الكفاية لافتقاري إلى

الفهم حتى تغامر هي بالكثير من الاستفسارات الآن. ومرّ كل شيء على ما يرام مع أمل من جانبها ألّا يُستعجَل أيّ شخص إلى الزواج بسببها. وعندما وصلنا إلى الاقتراح بأنها من الممكن أن تبيع الشاي، كان بإمكاني رؤية أن ذلك كان صدمة كبيرة بالنسبة إليها. ليس بسبب أي خسارة شخصية في المكانة الأرستقراطية التي يقتضيها ذلك، ولكن لمجرد أنها لم تكن تثق بقدراتها على التصرف في خطّ سير جديد في الحياة، وكانت تُفضّل، بشيء من الخوف، قدراً أكبر قليلاً من الحرمان على أي عمل كانت تخشى ألا تكون مؤهلة له. إلا أنها عندما رأت أن والدي كان عاقداً العزم عليه، تنهدت وقالت إنها سوف تحاول، وإذا لم تبلِ بلاء حسناً، فسوف تتخلى عنه بلا ريب. لقد كان أحد الأمور الجيدة بشأنه هو أنها كانت تعتقد أن الرجال لا يشترون الشاي مُطلقاً. وكان الرجال هم من تخشاهم على وجه الخصوص. إنهم يتصرفون بطرق صاخبة حادّة. ويُجرون حساباتهم ويُحصون فكّتهم بسرعة كبيرة! ولذلك، لو كان بإمكانها بيع الفواكه المجففة للأطفال فحسب، فستكون متأكدة من أنها تستطيع إرضاءهم!

* * *

15

عودة سعيدة

قبل وداعي الآنسةَ ماتي في كرانفورد، كان قد تم من أجلها ترتيب كل شيء بشكل مريح. وحتى موافقة السيدة جاميسون على بيعها الشاي كان قد تم الحصول عليها. وقد استغرق الحصول على ذلك الجواب الحكيم الموثوق عدة أيام للنظر فيما إذا كانت الآنسة ماتي بفعل ذلك ستفقد حقها في امتيازات مجتمع كرانفورد. أعتقد أنه كانت لديها فكرة بسيطة في شأن إهانة الليدي غلينماير بالقرار الذي اتخذته أخيراً وكان بهذا المعنى: في حين أن المرأة المتزوجة تستمدّ مكانتها من طبقة زوجها وفقاً لقوانين الأفضلية الصارمة، فإن المرأة غير المتزوجة تحتفظ بالمنزلة الاجتماعية التي كان والدها يتمتع بها. لذا فقد كان مسموحاً لكرانفورد زيارة الآنسة ماتي. وسواء أكان مسموحاً بذلك أم لا، فقد كانت كرانفورد تعتزم زيارة الليدي غلينماير.

ولكننا تفاجأنا - فزعنا - عندما علمنا أن السيد والسيدة هوغينز كانا سيعودان في يوم الثلاثاء المقبل! السيدة هوغينز! لقد تخلت عن لقبها نهائياً، وهكذا، في تبجح بالشجاعة، شطبت الأرستقراطيةَ لتصبح من آل هوغينز! هي التي كان من الممكن أن

تُدعى الليدي غلينماير حتى آخر يوم في حياتها! كانت السيدة جاميسون سعيدة، وقالت إنها أكدت ما كانت تعرفه منذ البداية فحسب، وهو أن تلك المخلوقة تتمتع بذوق رديء. ولكن تلك «المخلوقة» بدت سعيدة جداً في يوم الأحد في الكنيسة. كما أننا لم نرَ أنه كان من الضروري أن نُبقي أوشحتنا منسدلة على ذلك الجانب من قلنسواتنا الذي كان السيد والسيدة هوغينز يجلسان فيه، كما فعلت السيدة جاميسون، إذ إننا بذلك نفوّت علينا كل الاعتزاز المبتسم في وجهه، وكل التورد الجذاب في وجهها. لست متأكدة ما إذا كانت مارثا وجيم قد ظهرا بصورة مشرقة أكثر بعد ظهر ذلك اليوم، عندما ظهرا، هما أيضاً، أول مرة. خففت السيدة جاميسون الاضطراب في نفسها من خلال جعل الستائر المعدنية لنوافذها منسدلة، كما لو كانت في حِداد، في اليوم الذي استقبل فيه السيد والسيدة هوغينز زواراً. وقد حملت نفسها بصعوبة على الاستمرار بقراءة صحيفة سانت جيمس كرونيكل، إذ إنها كانت ساخطة جداً لأن الصحيفة أدرجت إعلان الزواج.

انطلق عمل الآنسة ماتي في البيع بشكل ممتاز. وقد احتفظت بأثاث غرفة الجلوس وغرفة النوم. وتعين عليها شغل غرفة الجلوس إلى أن تكون مارثا قد تمكنت من مقابلة أحد قد يرغب في شراء الأثاث. واضطرت إلى حشر أشياء كثيرة متنوعة جداً في غرفة الجلوس هذه، التي كانت (كما أكد لها بائع المزاد) قد اشترتها صديقة مجهولة من أجلها. لقد اشتبهتُ دائماً بأن السيدة فيتز آدم هي من فعلت هذا. ولكن لا بد أنه كان لديها مساعد يعرف القطع التي كانت الآنسة ماتي متعلقة بها بشكل خاص بسبب ارتباطها بأيام حياتها

المبكرة، ولا شك أن باقي المنزل بدا خالياً إلى حدّ ما. كل غرف المنزل باستثناء غرفة نوم صغيرة جداً سمح لي والدي بشراء أثاثها لكي أستخدمها عند الاقتضاء في حالة مرض الآنسة ماتي.

كنت قد أنفقت مدخراتي القليلة في شراء أنواع كثيرة من الفاكهة المجففة المُسَكَّرَة وحلوى الكراميل، لكي أُغري الأطفال الصغار الذين كانت الآنسة ماتي تحب كثيراً أن يكونوا حولها. كان الشاي في عبوات خضراء زاهية، والفاكهة المجففة المُسَكَّرَة في أقداح - شعرنا، أنا والآنسة ماتي، بفخر شديد ونحن ننظر حولنا في مساء اليوم السابق لافتتاح المتجر. وكانت مارثا قد دعكت الأرضية الخشبية حتى أصبحت نظيفة جداً، وكانت مُزينة بقطعة قماش زاهية بلون زيتي، كان العملاء سيقفون عليها أمام المنضدة - الكاونتر. وسادت رائحة الجصّ والطلاء الأبيض المأمونة في الشقة. كان هناك لافتة مكتوب عليها بخط صغير جداً «ماتيلدا جينكينز مرخصة لبيع الشاي» مخبأة تحت عتبة الباب الجديد، وصندوقان من الشاي، مع كتابات مبهمة منقوشة في كل مكان عليهما، جاهزان لتفريغ محتوياتهما في العلب.

عانت الآنسة ماتي، كما كان ينبغي لي أن أذكر من قبل، من تأنيب الضمير بسبب بيع الشاي، في حين كان هناك أصلاً السيد جونسون في البلدة، الذي أدرج الشاي ضمن سلعه الكثيرة. وقبل أن تتمكن من ترويض نفسها تماماً على اعتماد عملها التجاري الجديد، كانت قد هرولت إلى متجره، دون أن أعلم، لكي تُخبره بالمشروع الذي فكرت فيه، ولكي تسأله عما إذا كان من المحتمل أن يضرّ بعمله. وصف والدي فكرتها هذه بـ» محض هراء» وكذلك

«تساءل كيف يمكن لرجال الأعمال أن يواصلوا عملهم لو كان يتعين عليهم أن يتشاوروا معاً باستمرار بشأن مصالحهم، الأمر الذي سيؤدي إلى وضع حدٍّ للمنافسة بشكل فوري». وربما ما كان هذا العمل لينجح في درمبل، لكنه حصل على استجابة ممتازة في كرانفورد. ذلك أن السيد جونسون لم يكتف بتهدئة وساوس الآنسة ماتي وخوفها من إلحاق الأذى بعمله بلطف فحسب، بل لديّ أسباب تجعلني أعرف أنه كان يرسل إليها عملاء بشكل متكرر قائلاً إن الشاي الذي لديه كان من الأنواع العادية، لكن لدى الآنسة ماتي تشكيلة كبيرة من أفخر الأنواع. ويُعد الشاي المرتفع الثمن رفاهية مفضلة كثيراً لدى زوجات رجال الأعمال الميسورين والمزارعين الأغنياء، اللواتي يشمخن بأنوفهن على شاي الكونغو وشاي السوتشونغ، السائدين على كثير من موائد الطبقة المتعلِّقة بمظاهر الحياة الأرستقراطية، ولا يطلبن لأنفسهن سوى شاي غنباودر وشاي بيكوي.

لكن لنعد إلى الآنسة ماتي. لقد كان أمراً ساراً جداً رؤية كيف أدى إيثارها وإحساسها البسيط بالعدالة إلى استدعاء هذه الصفات الجيدة ذاتها في الآخرين. بدا أنها لا تفكر مطلقاً في أنه من الممكن لأي شخص أن يستغلها، لأنها ستكون في غمّ شديد إن هي فعلت ذلك بهم. وسمعتها توقف توكيدات بقَسَم للرجل الذي أحضر لها الفحم بقولها، «أنا متاكدة بأنكَ ستكون نادماً لجلب كمية غير صحيحة من الفحم لي». وإذا كان مكيال الفحم ناقصاً في تلك المرة، فلا أعتقد أنه كان ناقصاً في أي مرة أخرى بعد ذلك. كان الناس يشعرون بالخجل من استغلال حسن نيتها بالقدر ذاته الذي كانوا سيشعرون به من استغلال طفل. ولكن والدي يقول، «إن مثل هذه

البساطة من الممكن أن تكون حسنة جداً في كرانفورد، لكنها لن تكون كذلك مطلقاً في العالم». وأنا أتصور أن العالم لا بد أن يكون سيئاً جداً، ذلك أنه مع كل شكوك والدي في كل من يتعامل معه، وعلى الرغم من احتياطاته الكثيرة، فقد خسر ما يزيد على ألف جنيه إسترليني فحسب من الاحتيال في السنة الماضية.

مكثتُ فترة طويلة بما يكفي لتوطيد الآنسة ماتي في أسلوب حياتها الجديد، ولترتيب المكتبة التي كان القسيس قد اشتراها. وكان قد كتب رسالة إلى الآنسة ماتي، يقول فيها، «كم سيكون مسروراً بالحصول على مكتبة، مُختارة بالعناية الكبيرة التي عرفَ أنه لا بد أن السيد جينكينز كان يتمتع بها، بأي تقييم يوضع لها». وعندما وافقتْ على هذا مع مسحة من السرور الحزين، لأن الكتب ستعود إلى منزل القسيس وسوف تكون مرتبة على الجدران المعتادة مرة أخرى، أرسَل رسالة يعبر فيها عن عدم وجود مكان لها جميعها، وربما من الممكن أن تتكرم الآنسة ماتي بالسماح له بترك بعض المجلدات على رفوفها. ولكن الآنسة ماتي قالت إن لديها الكتاب المقدس وكذلك «قاموس جونسون»، وتخشى أنه لن يكون لديها متسع من الوقت للقراءة. ومع ذلك، استبقيتُ بعض الكتب مراعاة للطف القسيس.

استُخدِم جزء من المال الذي دفعه، والذي نتج من البيع، في مخزون الشاي، واستُثمِر جزء منه ليوم عصيب - أي الشيخوخة أو المرض. لقد كان مجرد مبلغ صغير، هذا صحيح. وقد تسبب مرات عديدة في تجنب قول الحقيقة وفي أكاذيب بيضاء (أعتقد أنها جميعها كانت خاطئة جداً بالفعل - نظرياً - وكنت أُفضّل ألّا توضع موضع التنفيذ)، فقد كنا نعرف أن الآنسة ماتي كانت ستكون في حيرة من

أمرها لو كانت على دراية بأيّ احتياطيّ صغير أو ادّخار من أجلها في حين بقيت ديون المصرف غير مدفوعة. علاوة على ذلك، لم يتم إخبارها قطُّ بالطريقة التي كانت تُسهِم فيها صديقاتها في دفع الإيجار. كنت أرغب في إخبارها بهذا الأمر، ولكن سرية الأمر منحت إثارة إلى معروفهن، ولم تكن لدى النسوة رغبة في التخلي عنها. وفي البداية، كان على مارثا التملص من السؤال المربك عن هذا المنزل، عن أسلوب معيشتها فيه وسبل تلك المعيشة، ولكن مع مرور الوقت غرق قلق الآنسة ماتي المتعقل في رضوخ للترتيب القائم.

تركتُ الآنسة ماتي سعيدة ومتفائلة. وقد فاقت مبيعاتها من الشاي خلال أول يومين توقعاتي الأكثر تفاؤلاً. وبدا كما لو أن الشاي قد نفد من كل المناطق الريفية المحيطة دفعة واحدة. والتغيير الوحيد الذي كان بإمكاني أن أرغب فيه بالنسبة إلى أسلوب الآنسة ماتي في ممارسة العمل التجاري هو أنه ما كان ينبغي لها أن تناشد باكتئاب شديد بعض عملائها بعدم شراء الشاي الأخضر - تطعن فيه بوصفه سمّاً بطيئاً ويدمر الأعصاب بكل تأكيد ويتسبب في أنواع كثيرة من الشرور. وقد أحزنها إصرارهم على شرائه، على الرغم من تحذيراتها الكثيرة، إلى درجة أنني اعتقدت فعلياً أنها ينبغي لها أن تُحجم عن بيعه، فتفقد نصف عملائها بذلك. وكدت أفقد صوابي بسبب حالات لأشخاص معمَّرين تُعزى كلياً إلى الاستخدام المستمرّ للشاي الأخضر. ولكن الحجة الأخيرة، التي حسمت المسألة، كانت الإشارة الموفقة مني إلى دهن الحوت وشمعات الشحم الحيواني اللذين لا تستمتع بهما شعوب الإسكيمو فحسب، لكنهم يهضمونهما أيضاً. بعد ذلك أقرّت بأن «طعام زيد قد يكون سمّاً لعمرو»،

واكتفت منذ ذلك الحين بالاعتراض بين الفينة والأخرى عندما كانت تعتقد أن المُشتري صغير وساذج إلى درجة أنه لا يمكن أن يكون على دراية بالآثار الشريرة التي يسببها الشاي الأخضر إلى بعض الأجسام، وبتنهيدة عادية عندما يُفضله أشخاص كبار بما يكفي للاختيار بحكمة أكبر.

كنت أذهب إلى كرانفورد من درمبل مرة كل ثلاثة أشهر على الأقل لتسوية الحسابات والاهتمام برسائل العمل الضرورية. وبمناسبة الحديث بشأن الرسائل، بدأتُ أشعر بالخجل كثيراً من ذكرى رسالتي إلى الآغا جينكينز، وبالسرور الشديد بأنني لم أذكر قطُّ أمر هذه الرسالة لأي شخص. كنت آمل أن تكون الرسالة قد ضاعت فحسب. لم يأتِ أيّ ردّ، ولم ترِد أي إشارة.

بعد حوالى عام من إنشاء الآنسة ماتي لمتجرها، استلمتُ واحدة من رسائل مارثا الهيروغليفية تناشدني فيها المجيء إلى كرانفورد في الحال. خشيتُ أن تكون الآنسة ماتي مريضة، فذهبت بعد ظهر ذلك اليوم ذاته، وتفاجأت مارثا لرؤيتي عند فتحها الباب. ذهبنا إلى المطبخ كالمعتاد، لعقد اجتماعنا السري، وعندئذ أخبرتني مارثا أنها كانت تتوقع ولادتها في وقت قريب جداً - في غضون أسبوع أو أسبوعين. وهي لا تعتقد أن الآنسة ماتي على علم بذلك، وأرادت مني أن أنقل الخبر إليها، ثمّ أضافت مارثا وهي تبكي بشكل هستيري، «في الواقع يا آنسة إنني أخشى أنها لن توافق على ذلك، وأنا متأكدة من أنني لا أعرف من سيعتني بها كما ينبغي أن يُعتنى، عندما ألزم الفراش».

واسيت مارثا بقولي لها إنني سوف أبقى إلى أن تكون قادرة على العمل مرة أخرى، وأنني كنت أتمنى لو أنها أخبرتني فحسب بسبب هذا الاستدعاء المفاجئ، لكنتُ حينئذ سأُحضِر كمية الملابس اللازمة. ولكن مارثا كانت تبكي بشدة ومنقبضة الصدر، وليست على عادتها، إلى درجة أنني تحدثت أقل ما يمكن بشأن نفسي، وحاولت بدلاً من ذلك مواساة مارثا في ظل كل المصائب المحتملة والممكنة التي تزاحمت في مخيلتها.

ثم تسللتُ إلى الخارج من باب المنزل، ودخلتُ كما لو كنت واحدة من عملاء المتجر، لكي أُفاجئ الآنسة ماتي، وأحصل على فكرة تبيّن لي حالتها في وضعها الجديد. كان طقس شهر أيار/ مايو دافئاً، لذا كان نصف الباب الصغير مغلقاً. وكانت الآنسة ماتي جالسة خلف الكاونتر، تحوك زوج أربطة جوارب معقد. بدا معقداً بالنسبة إليّ، ولكن الغرزة الصعبة لم تكن تشكل عبئاً على عقلها، ذلك أنها كانت تغنّي لنفسها بصوت خفيض وصنّارتاها تدخلان وتخرجان بسرعة. أنا أسميه غناء، ولكن أظن أنه من غير المحتمل أن يَستخدم موسيقيٌّ تلك الكلمة لوصف الدَّندَنَة العذبة بلا نغم للصوت الخفيض المُجهَد. ميّزتُ من الكلمات، أكثر كثيراً من محاولة تمييز النغم، بأنها كانت تدندن لنفسها ترنيمة «أولد هندريدث». ولكن الصوت الهادئ المتواصل نقل المحتوى، ومنحني شعوراً ساراً، في أثناء وقوفي في الشارع مباشرة خارج الباب، بانسجام تام مع صباح أيار/ مايو ذاك، ثم دخلتُ. في البداية لم تُدرك من القادم، فوقفتْ كما لو كانت تريد تقديم الخدمة لي. ولكن بعد دقيقة أخرى كانت الهرة بوسي اليقظة قد أمسكت بحياكتها التي كانت قد أسقطتها في ابتهاج شديد لرؤيتي. واكتشفتُ بعد أن أجرينا محادثة

قصيرة، أن الأمر كان كما قالت مارثا، وأنه ليس لدى الآنسة ماتي أدنى فكرة في الحدث المنزلي الوشيك. لذا فكرتُ في أن أدع الأمور تأخذ مجراها، وأنا واثقة بأنني عندما أذهب إليها والرضيع بين ذراعيّ، فسوف أحصل على المغفرة لمارثا التي كانت تخيف نفسها بلا داع، معتقدة أن الآنسة ماتي كانت ستحبسها، بموجب فكرة أن صاحب الحق الجديد سيتطلب اهتماماً من أمه، بحيث تكون خيانة غادرة لو حصلت الآنسة ماتي على ذلك الاهتمام.

ولكنني كنتُ على صواب. أعتقد أنها لا بد أن تكون صفة وراثية، ذلك أن والدي يقول إنه نادراً جداً ما يكون مخطئاً. ذات صباح، بعد أسبوع من وصولي، ذهبتُ لزيارة الآنسة ماتي أحمل بين ذراعيّ صُرّة صغيرة من قماش الفلانيلا. وعندما أريتها ماذا كانت تلك الصرَّة أصابها ذهول شديد، وطلبت نظارتها التي على منضدة الزينة، ونظرت إليها بفضول، مع نوع من التعجب الرقيق من كمال أعضائها الصغيرة. لم تكن قادرة على إقصاء فكرة المفاجأة طوال اليوم، إلا أنها تجولت على أطراف أصابعها، وكانت صامتة جداً. ولكنها تسللت لرؤية مارثا وبكت كلتاهما بفرح، وانخرطت في خطاب إطرائي لجيم، ولم تعرف كيف تخرج منه مرة أخرى، ولم يخلّصها من معضلتها إلا صوتُ جرس المتجر الذي كان مصدر ارتياح مماثلٍ بالنسبة إلى جيم الصادق والفخور والخجول، والذي صافحني بقوة كبيرة عندما هنأته، إلى درجةٍ اعتقدَ معها أنني ما زلتُ أشعر بالألم حتى الآن.

كانت حياتي مزدحمة بالمشاغل ولزمتْ مارثا الفراش. كنتُ أقوم برعاية الآنسة ماتي، وأُعِدُّ وجباتها، وأجمع بيانات حساباتها،

وأتفحّص حالة علبها وأقداحها. وكنت أساعدها في المتجر أحياناً، أيضاً. وقد كان في مراقبة أساليبها هناك مصدر تسلية غير قليلة، وكانت مصدر قلق في بعض الأحيان، فإذا دخل طفل صغير لكي يطلب أونصة من حلوى اللوز المُسَكَّر (ويصل وزن أربع قطع من النوع الكبير الذي تبيعه الآنسة ماتي إلى ذلك القدر)، كانت دائماً تُضيف قطعة أخرى على سبيل «إتمام وزن»، على حد قولها، على الرغم من أن الميزان يكون مائلاً بسخاء قبل أن تفعل ذلك. وعندما اعترضتُ على هذا الأمر، كان ردها، «الأطفال الصغار يحبونه كثيراً!» ولم تكن هناك فائدة تُرجى من إخبارها بأن قطعة حلوى اللوز المُسَكَّر الخامسة تزن ربع أونصة، وأنها تحوّل كل عملية بيع إلى عملية خاسرة بالنسبة إليها. لذا تذكرت الشاي الأخضر، وعززتُ سهمي بريشة من طائرها، فأخبرتها كم كانت حلوى اللوز المُسَكَّر مُضرّة، وإلى أي مدى كان من الممكن للكمية الزائدة منها أن تضرّ الأطفال الصغار. لقد كان لهذه الحجة بعض التأثير، حيث إنها منذ ذلك الوقت فصاعداً، بدلاً من إعطائهم قطعة الحلوى الخامسة، كانت دائماً تطلب منهم أن يمدوا راحات أيديهم الصغيرة، وكانت تُنزل فيها أقراصاً مُحلّاة إما بالنعناع أو بالزنجبيل، وقايةً لهم من المخاطر التي من الممكن أن تنجم عن عملية البيع السابقة. إجمالاً، لم تكن المتاجرة بالأقراص المُحلّاة، القائمة على هذه المبادئ، مبشِّرة بأن تكون مجزية، لكنني كنت سعيدة عندما اكتشفت أنها كانت قد كسبت أكثر من عشرين جنيهاً خلال العام الماضي من خلال مبيعاتها من الشاي. وعلاوة على ذلك، فقد أصبحتْ الآنسة ماتي معتادة على ذلك ولم تعد تكره العمل الذي جعلها تنخرط في تواصل بلطف مع

الكثير من الناس في المنطقة. وإذا كانت تعطيهم وزناً راجحاً، فقد كانوا هم أيضاً يُحضِرون الكثير من هدايا الريف الصغيرة إلى «ابنة القسيس المسنّة»، كجبنة القشدة، وعدد قليل من البيض الطازج، وقليل من الفواكه الطازجة الناضجة، وباقة من الزهور، فكان الكاونتر، كما أخبرتني، يمتلئ تماماً بهذه المنح أحياناً.

بالنسبة إلى كرانفورد بشكل عام، فالأمور كانت تسير كالمعتاد إلى حدّ كبير. ما زال العَداء بين جاميسون وهوغينز محتدماً، إذا كان من الممكن تسميته عَداء، في حين كان طرف واحد مهتماً به كثيراً. كان السيد والسيدة هوغينز سعيدين جداً معاً، وكذلك، مثل الغالبية العظمى من الأشخاص السعداء، كانا مستعدين تماماً ليكونا ودودين. وفي الواقع، كانت السيدة هوغينز ترغب حقاً في أن تستعيد الحظوة عند السيدة جاميسون بسبب العلاقة الحميمية السابقة. ولكن السيدة جاميسون اعتبرت سعادتهما بحد ذاتها إهانة لأسرة غلينماير، التي ما زالت تتشرف بالانتماء إليها، فردّت ورفضت بإصرار كل عرض للتفاهم. وتبنى السيد مولينر، بوصفه رجل عشيرة مخلصاً، موقف سيدته بحماسة: إذا رأى السيد هوغينز أو السيدة هوغينز، فسوف يعبر الشارع إلى الجهة المقابلة، ويتظاهر بالاستغراق في التأمل بالحياة بصورة عامة، وبمساره هو بصورة خاصة، إلى أن يكون قد تجاوزهما. وكانت الآنسة بول تروِّح عن نفسها بالتساؤل ما الذي يمكن للسيدة جاميسون أن تفعله إذا أصيبتْ هي، أو السيد مولينر أو أي شخص آخر من المقيمين في المنزل، بمرض. لا بد أنها ستجد صعوبة كبيرة في التجرؤ على استدعاء السيد هوغينز بعد الجفاء الشديد الذي أبدته نحوهما. وقد أصبحت الآنسة بول نافدة الصبر جداً في

انتظار إصابة السيدة جاميسون أو من تعيلهم بوعكة صحية أو حادث، لكي ترى كرانفورد كيف من الممكن أن تتصرف في ظل الظروف المربكة.

كانت مارثا قد بدأت بالتجول مرة أخرى، وكنت قد حددت بالفعل نهاية، ليست بعيدة جداً، لزيارتي. وبعد ظهر أحد الأيام من تلك الفترة، وكنتُ جالسة في غرفة المتجر مع الآنسة ماتي - أذكر أن الطقس كان أبرد الآن مما كان عليه في شهر أيار/ مايو منذ ثلاثة أسابيع، وكنا قد أشعلنا النار وأبقينا الباب مغلقاً - رأينا رجلاً محترماً يمر بالنافذة ببطء، ثم يقف مقابل الباب، كما لو كان يبحث عن الاسم الذي كنا قد أخفيناه بعناية. أخرج نظارة مزدوجة العدسات وحدق بعض الوقت قبل أن يكتشفه. ثم دخل. وفجأة، خطر ببالي أنه كان الآغا نفسه! ذلك أن ملابسه كانت غير مألوفة وذات قَصَّة أجنبية، وكان وجهه شديد السمرة، كما لو كان مسفوعاً بالشمس مراراً وتكراراً، وتناقضت بشرته بشكل غريب مع شعره الكثيف ناصع البياض، وكانت عيناه دَكناوَيْن وثاقبتين، وكانت له طريقة غريبة في تضييقهما وفي تجعيد وجنتيه في تغضنات كثيرة عندما ينظر بجدية إلى الأشياء. وقد فعل ذلك مع الآنسة ماتي فور دخوله. كانت نظرته قد وقعت أولاً، واستقرت قليلاً، عليّ، لكنها تحولت بعدئذ، بنظرة الفحص الغريبة التي وصفتُها، إلى الآنسة ماتي. كانت مرتبكة ومتوترة قليلاً، ولكن ليس أكثر مما كانت عليه دائماً عند دخول أي رجل إلى متجرها. ربما كانت فكرت أن لديه ورقة نقدية، أو سفرونة على الأقل، ما سيضطرها إلى إعطائه فكة، وهي عملية كانت تكره بشدة القيام بها. ولكن العميل الحالي وقف مقابلها، دون

أن يطلب أي شيء، وقف ينظر إليها بشكل ثابت فحسب ناقراً على المنضدة بأصابعه، كما كانت تفعل الآنسة جينكينز بالضبط وبوضوح الشمس. كانت الآنسة ماتي توشك أن تسأله ماذا كان يريد (كما أخبرتني فيما بعد)، عندما استدار بحدة نحوي: «هل اسمك هو ماري سميث؟»

قلتُ، «أجل!»

تلاشت كل شكوكي بشأن هويته، وانحصرت تساؤلاتي عمّا سوف يقوله أو يفعله بعد ذلك، وكيف ستتحمل الآنسة ماتي الصدمة المبهجة الناجمة عمّا كان سيكشفه. من الواضح أنه كان في حيرة من أمره بشأن كيفية تقديم نفسه، ذلك أنه نظر حوله أخيراً بحثاً عن شيء يشتريه، وذلك لكسب الوقت، وعندما وقعت عيناه على حلوى اللوز المُسَكَّر، طلب بجرأة رطلاً من «تلك الأشياء». أشك فيما إذا كان لدى الآنسة ماتي رطلٌ كاملٌ في المتجر. وقد كانت، إضافة إلى كمية الطلب غير العادية، مكتئبة من فكرة عسر الهضم الذي يمكن أن تسببه حلوى اللوز المُسَكَّر عند تناولها بكميات كبيرة إلى هذه الدرجة. رفعتْ بصرها لكي تعترض، فكان هناك شيء من الاسترخاء الرقيق في وجهه أصابها في الصميم. قالت، «إنه .. أوه، سيدي! هل يمكن أن تكون بيتر؟» وارتجفت من رأسها حتى أخمص قدميها، وفي لحظة كان قد دار حول المنضدة وكانت بين ذراعيه، تنشج صرخات آهات الشيخوخة بلا دموع. أحضرتُ لها كأساً من النبيذ، ذلك أن لونها قد تغير بالفعل إلى درجة أقلقتني وأقلقت بيتر أيضاً. استمر بالقول، «لقد شكلتُ مفاجأة قوية جداً لك يا ماتي – لقد تسببتُ بذلك، يا فتاتي الصغيرة».

اقترحتُ أن تذهب فوراً إلى غرفة الاستقبال وتستلقي على الأريكة هناك. نظرتْ بحزن إلى أخيها الذي كانت تمسك يده بإحكام، حتى عندما كانت في حالة غيبوبة، تقريباً. ولكن بعد أن أكّد لها أنه لن يتركها، سمحت له بحملها إلى الطابق العلوي.

فكرتُ أنَّ أَفْضَلَ ما يمكنني فعله هو الذهاب بسرعة لوضع الغلاية على النار لإعداد الشاي وتناوله في وقت أبكر من المعتاد، ثم اهتم بالمتجر تاركة الأخ والأخت لكي يتبادلا بعضاً من آلاف كثيرة من الأشياء التي لا بد أنهما كانا يودان التحدث بها. وكان عليّ أيضاً نقل الخبر إلى مارثا، التي تلقته بنوبة بكاء كادت أن تصيبني بالعدوى. واصلتْ استعادة حالتها الطبيعية لكي تسأل ما إذا كنتُ متاكدة من أنه كان أخا الآنسة ماتي فعلياً، ذلك أنني ذكرت أن شعره كان رمادياً، وكانت تسمع دائماً أنه كان شاباً وسيماً جداً. وشيء من هذا القبيل حيّر الآنسة ماتي في وقت احتساء الشاي، عندما وُضِعت في كرسي كبير مريح مقابل السيد جينكيز تملأ ناظريها منه. كان من الصعب عليها أن تشرب بسبب النظر إليه، وبالنسبة إلى الأكل، فقد كان هذا غير وارد على الإطلاق.

«أعتقد أن المناخ الحارّ يجعل الناس تشيخ بسرعة كبيرة جداً». قالت ذلك بصوت خفيض كما لو أنها كانت تحدث نفسها، تقريباً. وأضافت، «عندما رحلتَ عن كرانفورد لم يكن في رأسكَ شعرة شيب واحدة».

قال بيتر مبتسماً، «ولكن كم سنة مضت منذ ذلك الحين».

واصلت كلامها، «آه، صحيح! نعم، أعتقد أننا كلَيْنا نتقدم في السن. ولكن مع ذلك لم أفكر أننا مسنّان جداً إلى هذه الدرجة!

ولكن الشعر الأبيض يليق بك كثيراً يا بيتر» - وكانت خائفة بعض الشيء أن تكون قد آذته بالكشف عن مدى تأثرها بمظهره.

«أعتقد أنني نسيت التواريخ أنا أيضاً يا ماتي، فماذا تعتقدين أنني أحضرتُ لك من الهند؟ لديّ رداء هنديّ من الموسلين وقلادة من اللؤلؤ من أجلك في حقيبتي الصندوقية في مكان ما في بورتسموث». وابتسم مبتهجاً من فكرة تناقض هداياه مع مظهر أخته. ولكن هذا لم يصدمها فوراً، بل صدمتها أناقة القطع. كنت قادرة على معرفة أن خيالها استرسل لحظات في فكرة رؤية نفسها مرتدية تلك الأشياء. ورفعت يدها إلى عنقها بصورة غريزية - ذلك العنق الرقيق الذي (كما أخبرتني الآنسة بول) كان من مفاتن شبابها. ولكن اليد لمست طيات الموسلين الناعم الذي كانت دائماً ملتفة به حتى ذقنها، واستدعى ذلك الإحساس إدراكاً بعدم ملاءمة عقد اللؤلؤ لسنها. وقالت، «أخشى أنني مسنة جداً. ولكنه كان لطفاً منك أن تفكر في ذلك. إنها تماماً الأشياء التي كان من الممكن أن أعجب بها منذ سنوات - عندما كنت شابة».

«وكذلك فكرتُ أنا، يا صغيرتي ماتي. تذكرتُ ذوقك، لقد كان مماثلاً لذوق أمي العزيزة إلى حد كبير». وعند ذكر ذلك اللقب تماسكت أيدي الأخوَيْن بحنان أكبر، وعلى الرغم من أنهما كانا صامتين تماماً، فتصورتُ أنه كان من الممكن أن يكون لديهما ما يقولانه لو كانا غير مراقَبَيْن بحضوري، فنهضتُ لترتيب غرفتي لكي يشغلها السيد بيتر في تلك الليلة، وفي نيتي مشاركة الآنسة ماتي في فراشها. ولكنه جفل من حركتي. وقال، «ينبغي لي أن أذهب وأختار غرفة في 'فندق جورج'. فحقيبتي اليدوية هناك أيضاً».

قالت الآنسة ماتي بضيق شديد، «لا! ينبغي ألّا تذهب. أرجوك يا عزيزي بيتر - أرجوك يا ماري - أوه! ينبغي ألّا تذهب!»

كانت مضطربة جداً إلى درجة أن كِلَيْنا وعدنا بتلبية كل رغباتها». جلس بيتر مرة أخرى وسلّمها يده، التي ضمتها بكلتا يديها لمزيد من الاطمئنان، وغادرتُ الغرفة لكي أكمل ترتيباتي.

تحدثنا أنا والآنسة فترة طويلة، طويلة جداً من الليل، حتى وقت متأخر، متأخر جداً من الصباح. لقد كان لديها الكثير لكي تقوله لي من حياة أخيها ومغامراته التي كان قد أخبرها بها في أثناء جلوسهما بمفردهما. قالت إن كل شيء كان واضحاً كلياً بالنسبة إليها. ولكنني لم أفهم القصة الكاملة فهماً تاماً قطُّ. وبعد عدة أيام، عندما تبددت رهبتي من السيد بيتر بما يكفي لكي أساله بنفسي، ضحك من فضولي، وأخبرني بقصص بدت مشابهة إلى حد كبير قصص بارون مونشهاوزِن، إلى درجة أنني كنت متأكدة من أنه كان يسخر مني. ما سمعته من الآنسة ماتي هو أنه كان متطوعاً في حصار رانغون، وأن البورميّين أسروه. وبطريقة ما، من معرفته بطريقة تفصيد رئيس القبيلة الصغيرة في حالة مرض خطير، حصل على حظوة عنده وعلى حريته فيما بعد، وأنه عند إطلاق سراحه بعد سنوات من الأسر أعيدت إليه رسائله من بريطانيا موسومة بالكلمة المشؤومة «ميت». واعتقاداً منه بأنه آخر فرد من جنسه، فقد استقر كمستعمِر يزرع أشجار النيلة، وعرض قضاء بقية حياته في البلد الذي أصبح معتاداً على سكانه وأنماط حياتهم عندما وصلته رسالتي. وبنفس الحماسة التي كانت من صفاته في كِبره، كما في شبابه، باع أرضه وكل ممتلكاته لأول مشترٍ، وعاد إلى الوطن إلى أخته المسنّة المسكينة، التي

كانت سعيدة وثرية أكثر من أي أميرة عندما نظرتْ إليه. أخيراً أقنعتني بالنوم، ثم أيقظني صوت خفيف على الباب، وقد طلبت مني العفو على ذلك في أثناء زحفها داخل الفراش وهي تشعر بالندم. ولكن يبدو أنه عندما لم يعد بإمكاني تأكيد اعتقادها بأن المفقود منذ أمد بعيد كان فعلياً حاضراً هنا - تحت السقف ذاته - كانت قد بدأت تخشى ألا يكون ذلك سوى حلم يقظة من أحلامها، وأنه لم يكن هناك بيتر قطُّ جالساً بالقرب منها طوال فترة المساء المباركة تلك - ولكن بيتر الحقيقي كان ميتاً ممدداً في مكان بعيد تحت موجة بحر عنيفة، أو تحت شجرة شرقية غريبة. وقد أصبح شعورها المضطرب هذا قوياً جداً إلى درجة أنها كانت على استعداد للنهوض وإقناع نفسها بأنه كان فعلياً هناك من خلال الاستماع من خلال الباب إلى تنفسه الطبيعي المنتظم - لا أحب أن أسميه شخيراً، لكنني سمعته أنا بنفسي من خلال بابين مُغلقين - وبمرور الوقت فقد طَمْأنَ ذلك الآنسة ماتي فنامت.

لا أعتقد أن السيد بيتر عاد إلى الوطن من الهند بثراء فاحش، بل إنه كان يعتبر نفسه فقيراً، ولكن لم يكن هو ولا الآنسة ماتي يهتمان كثيراً بذلك. على أي حال، كان لديه ما يكفي لكي يعيش به حياة «أرستقراطية جداً» في كرانفورد، هو والآنسة ماتي معاً. وبعد بضعة أيام من وصوله، كان المتجر مُغلقاً، في حين كانت هناك أعداد غفيرة من الأولاد الصغار الفقراء ينتظرون ببهجةٍ وابلَ حلوى الفاكهة المجففة المُسَكَّرة وأقراصَ الحلوى الذي كان ينهمر من وقت إلى آخر على وجوههم حيث كانوا واقفين يحدقون نحو الأعلى إلى نوافذ غرفة استقبال الآنسة ماتي. ومن حين إلى آخر، كانت الآنسة ماتي

تقول لهم (متخفية جزئياً وراء الستائر)، «أطفالي الأعزاء، لا تسببوا المرض لأنفسكم». ولكن ذراعاً قويّة سحبتها إلى الوراء، وتبع ذلك وابل مخشخش أكثر كثيراً من سابقيه. وأُرسِل جزء من الشاي إلى نساء كرانفورد، ووزِّع بعضه بين كبار السن الذين تذكروا السيد بيتر في شبابه المرح. وحُجِز رداء الموسلين للعزيزة فلورا غوردون (ابنة السيدة جيسي براون). لقد كانت أسرة غوردون في أوروبا خلال السنوات القليلة الماضية، ولكن عودتهم كانت متوقعة قريباً جداً الآن. وتوقعت الآنسة ماتي، بفخرها الأخوي، فرحة كبيرة عند تقديم السيد بيتر إليهم. اختفى عقد اللؤلؤ، وفي تلك الفترة ظهر العديد من الهدايا الجميلة والمفيدة في منزلَي الآنسة بول والسيدة فوريستر. وزيَّنتْ بعضُ الحليّ النادرة والناعمة غرفَ استقبال السيدة جاميسون والسيدة فيتز آدم. وأنا نفسي لم أكن منسية. لقد حصلتُ، من بين أشياء أخرى، على أفضل طبعة يمكن الحصول عليها من مؤلفات الدكتور جونسون مجلدة بأجمل تجليد. وناشدتني الآنسة ماتي، والدموع في عينيها، ان أعتبرها هدية من أخيها إلى جانب كونها منها هي نفسها. باختصار، لم يُنسَ أحد. والأكثر من ذلك أن كل شخص، مهما كان بسيطاً، صنع معروفاً من قبلُ للآنسة ماتي، كان من المؤكد أن يحظى بتقدير السيد بيتر النابع من القلب.



16

سلام في كرانفورد

لم يكن مستغرباً أن السيد بيتر أصبح محبوباً جداً في كرانفورد، وتنافست النساء فيمن تُعجَب به أكثر. ولا عجب، فقد تأججت عيشتهن الهادئة على نحو مثير للدهشة بسبب الشخص الوافد من الهند - خاصة أن الشخص الوافد حكى لهن قصصاً رائعة أكثر من قصص سندباد البحّار. وكما قالت الآنسة ماتي، كان جيداً مثل ألف ليلة وليلة في أي أمسية. ومن جهتي، فقد تأرجحتُ طوال حياتي بين درمبل وكرانفورد، واعتقدتُ أنه من الممكن تماماً أن تكون كل قصص السيد بيتر صحيحة، على الرغم من أنها كانت عجيبة. ولكن عندما اكتشفتُ أننا إذا صدّقنا بسذاجة، في أسبوع ما، حكاية ذات جسامة محتملة، فإن الجرعة كانت تزداد بشكل كبير في الأسبوع الذي يليه. بدأتُ أشعر بمبررات قوية لكي أكون متشككة، خصوصاً أنني لحظتُ أنه عندما تكون أخته حاضرة، فرواياته عن حياة الهنود تكون أخف حدة نسبياً، ليس لأنها كانت تعرف أكثر مما نعرف، بل ربما أقل. كما لحظتُ عندما كان القِسّيس يأتي في زيارة قصيرة، فكان السيد بيتر يتحدث بطريقة مختلفة بأخبار البلدان التي كان فيها. ولكنني لا أعتقد أن النساء في كرانفورد كنّ سيعتبرنه رحالة باهراً

جداً لو سمعنه يتحدث فحسب بالطريقة الهادئة التي كان يتحدث فيها إليه القِسّيس. لقد أُعجبنَ به أكثر، لأنّ ما سمعنَ وصفه منه كان «شرقياً جداً».

في أحد الأيام، أقامت الآنسة بول في منزلها حفلة على شرَفِه مقصورة على فئة مختارة. ونظراً لأن السيدة جاميسون شرفتها بحضورها، بل عرضت بكرمٍ إرسال السيد مولينر لكي يخدم فيها، فقد استُثني منها وجوباً السيد والسيدة هوغينز والسيدة فيتز آدم. قال السيد بيتر إنه تعبَ من الجلوس منتصباً ومستنداً إلى كرسيّ غير مريح ذي ظهر صلب، وسأل ما إذا كان من الممكن أن يحرّر نفسه من التكلف وأن يجلس مُتَرَبّعاً. وقد منحته الآنسة بول الإذن بتوق، فنزل إلى الأرض بقوة كبيرة. ولكن عندما سألتني الآنسة بول، بهمس مسموع، «إذا لم يكن يذكّرني بأبي المؤمنين؟» فلم يسعني إلا أن أفكر بالمسكين سيمون جونز، الخياط الأعرج، وعندما علقت السيدة جاميسون ببطء على أناقة الموقف ومواءَمته، تذكرتُ كيف حذونا جميعنا حذوها في اتهام السيد هوغينز بالابتذال لمجرد أنه وضع إحدى ساقيه فوق الأخرى في أثناء جلوسه ساكناً على كرسيه. وكثير من عادات السيد بيتر في الأكل كانت غريبة بين نساء مثل الآنسة بول والآنسة ماتي والسيدة جاميسون، على الأخص عندما تذكرتُ البازلاء الخضراء التي لم يُختبَر مذاقها، والشُّوَك ذات الشُّعبتين في غداء السيد هولبروك المسكين.

إنّ ذكر اسم ذلك الرجل المحترم يستدعي إلى ذهني محادثة بين السيد بيتر والآنسة ماتي ذات مساء في فصل الصيف بعد عودته إلى كرانفورد. كان اليوم حاراً، وكانت الآنسة ماتي مرهقة جداً بسبب

الطقس، الذي كان أخوها يجد متعة كبيرة في حرارته. أتذكر أنها كانت غير قادرة على رعاية رضيعة مارثا، التي أصبحت عملها المفضل في الآونة الأخيرة، والتي كانت تسْتكين بين ذراعيها بقدر ما كانت تسْتكين بين ذراعي أمها، ما دام بقي وزنها خفيفاً ويُمكن أن تحملها امرأة ضعيفة جداً مثل الآنسة ماتي. في هذا اليوم الذي أُشيرُ إليه، بدت الآنسة ماتي ضعيفة وفاترة الهمة أكثر من العادة، ولم تنتعش إلا عندما غابت الشمس، ونُقِلت أريكتها إلى النافذة المفتوحة. وعلى الرغم من أنها كانت تُطِلّ على شارع كرانفورد الرئيسي، إلا أن الرائحة الزكية لحقول القش المجاورة كانت تدخل بين الفينة والأخرى، تحملها النسائم الرقيقة التي كانت تحرك هواء شفق الصيف الراكد، ثم تتلاشى. تبدد صمت الجوّ الخانق في أصوات حفيف كانت تأتي من نوافذ ومن أبواب كثيرة مفتوحة. وحتى الأطفال كانوا في الخارج في الشارع، في ذلك الوقت المتأخر (بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة)، يستمتعون بلعب مباراة لم يكن لديهم المزاج النفسي لكي يلعبوها في حرارة النهار. لقد كان من دواعي ارتياح الآنسة ماتي أن ترى أن عدد الشموع المضاءة كان قليلاً جداً، حتى في حجرات تلك المنازل التي كانت تفيض بأكبر علامات الحيوية. كنّا، أنا والآنسة ماتي والسيد بيتر، جميعنا هادئين، لكل واحد منّا حلم يقظة منفصل، فترةً قصيرةً، عندما قال السيد بيتر فجأة :

«هل تعلمين يا صغيرتي ماتي، كنتُ متأكداً تماماً أنك كنتِ في طريقك إلى الزواج على وجه السرعة عندما رحلتُ عن إنجلترا آخر مرة! ولو قال لي أي شخص في ذلك الوقت إنك كنتِ ستعيشين وتموتين عانساً مُسِنّة، لكنتُ سخرتُ منه».

لم تردّ الآنسة ماتي، وحاولتُ عبثاً أن أفكر في موضوع ما يمكن أن يغير موضوع المحادثة فعلياً. ولكنني كنتُ غبية جداً، وواصل حديثة قبل أن أتكلم:

«لقد كان هولبروك، ذلك الشخص الرجولي الذي كان يعيش في ودلي، هو الذي اعتقدتُ أنه سيحمل صغيرتي ماتي. أظن أنك لا تعتقدين ذلك الآن يا ماري، لكن أختي هذه كانت فيما مضى فتاة جميلة جداً - على الأقل كنتُ أعتقدُ ذلك، وكان لديّ انطباع بأن المسكين هولبروك كان يعتقد ذلك أيضاً. بأي حق يموت قبل عودتي إلى الوطن لكي أشكره على كل لطفه تجاه فتى لا خير فيه، كما كنتُ أنا؟ لقد كان ذلك هو ما جعلني أعتقد أنه يهتم بك في المقام الأول. ذلك أنه في جميع رحلات صيد السمك التي قمنا بها كانت ماتي، ماتي هي من نتحدث بشأنها. ديبورا المسكينة! يا لها من محاضَرَة ألقتها عليّ لأنني دعوته على الغداء في المنزل في أحد الأيام، عندما كانت قد رأت عربة آرلي في البلدة، واعتقدتْ أن السيدة من الممكن أن تأتي في زيارة قصيرة. حسناً، لقد كان ذلك منذ سنوات طويلة مضت، أكثر من فترة نصف العمر، ومع ذلك يبدو كما لو أنه بالأمس! لا أعرف شخصاً كان من الممكن أن أحب أن يكون زوج أختي أكثر منه. لا بد أنك لعبتِ أوراقك بشكل سيئ يا صغيرتي ماتي، بطريقة أو بأخرى - أردتِ أن يكون شقيقك وسيطاً جيداً، إيه، يا صغيرتي؟» قال وهو يمدّ يده ليمسك بيدها حيث كانت تستلقي على الأريكة. «آه، ما هذا؟ إنك ترتعشين وتنتفضين يا ماتي، بتلك النافذة اللعينة المفتوحة. أغلقيها يا ماري، أغلقيها فوراً!»

فعلتُ ذلك، ثمّ انحنيتُ لتقبيل الآنسة ماتي، لأعرف ما إذا كانت باردة جداً بالفعل. أمسكتْ بيدي وضغطت عليها بشدة - لكن دون وعي، على ما أعتقد - ذلك أنها بعد بضع دقائق تحدثت إلينا بصوتها المعتاد تماماً، وبددت قلقنا بابتسامة، على الرغم من أنها رضخت بصبر للوصفات التي فرضناها من فراش دافئ وكأس من النيجوس المخفف. لقد كان من المقرر أن أغادر كرانفورد في اليوم التالي، وقبل أن أذهب تأكدت من أن جميع تأثيرات النافذة المفتوحة قد اختفت تماماً. وكنتُ قد أشرفتُ على معظم التعديلات اللازمة في المنزل والعائلة خلال الأسابيع الأخيرة من إقامتي. كان المتجر قد أصبح ردهة مرة أخرى، وكانت الغرف الفارغة التي كان يتردد فيها الصدى قد أُثِّثَت مرة أخرى حتى الغرف العليا المبنيّة تحت السقف مباشرة.

كان هناك بعض الكلام بجعل مارثا وجيم يستقران في منزل آخر، لكن الآنسة ماتي لم تسمح بذلك. في الواقع، لم يسبق لي قطُّ أن رأيتها منفعلة كثيراً كما كانت، عندما اعتبرت الآنسة بول أنه الترتيب الأكثر مواءمة. ما دامت مارثا ستبقى مع الآنسة ماتي، فإن الآنسة ماتي كانت ممتنّة جداً لبقائها حولها. نعم، وجيم أيضاً، الرجل الذي كانت إقامته في المنزل مقبولة جداً، ذلك أنها لم تكن تراه قطُّ من نهاية أسبوع إلى نهاية أسبوع. وبالنسبة إلى الأطفال المحتملين، إذا حدث أن كانوا جميعهم صغاراً فاتنين جداً مثل ابنتها بالمعمودية، ماتيلدا، فإنها لن تكترث للعدد، إذا لم تكترث لمارثا. إضافة إلى ذلك، كانت الابنة التالية ستسمى ديبورا - غايةٌ كانت الآنسة ماتي قد تنازلت عنها على مضض أمام تصميم مارثا العنيد على أن يكون اسم الابنة الأولى ماتيلدا. لذا كان على الآنسة بول أن تخفض أعلامها معلنة

استسلامها، بل أن تخفض صوتها أيضاً، عندما قالت لي إنه بما أن السيد والسيدة هيرن كانا سيستمران بالعيش في المنزل نفسه مع الآنسة ماتي، فمن المؤكد أن توظيف ابنة أخت مارثا مساعدةً كان أمراً حكيماً.

تركتُ الآنسة ماتي والسيد بيتر في قمة الراحة والرضا. وكان سبب الأسف الوحيد على القلب الرقيق لأحدهما، وعلى الطبيعة الاجتماعية الودية للآخر، هو الخصومة البائسة بين السيدة جاميسون وأسرة هوغينز، وهي أسرة من العوام، ومُريديهم. وقد توقعتُ ذات يوم، على سبيل المزاح، أن هذا الأمر سيدوم حتى يمرض السيد مولينر أو السيدة جاميسون. وفي هذه الحالة، سيكونان سعيدين جداً بأن يكونا أصدقاء للسيد هوغينز. ولكن الآنسة ماتي لم يُعجبها تطلعي إلى أي شيء مثل المرض بمثل هذا الاستخفاف، وقبل انتهاء السنة، تبدل كل شيء بطريقة مُرضية جداً للجميع.

استلمت رسالتين من كرانفورد في صباح ميمون من شهر تشرين الأول/ أكتوبر. وكانت كل من الآنسة بول والآنسة ماتي قد كتبتا إليّ تطلبان مني الحضور من أجل لقاء الزوجين غوردون، اللذين عادا إلى إنجلترا مفعمين بالحيوية وبصحة جيدة مع طفليهما، اللذين أصبحا بالغين، تقريباً. كانت جيسي براون العزيزة ما تزال تحتفظ بطبيعتها اللطيفة على الرغم من أنها كانت قد غيّرت اسمها ووضعها. وكتبت تقول إنه من المتوقع وصولهما، هي والرائد غوردون، إلى كرانفورد في اليوم الرابع عشر من الشهر، وأَمَلَتْ وناشدت إهداء تحياتها إلى السيدة جاميسون (ذُكِرت أولاً، بما يتناسب مع فخامة مركزها)، وإلى الآنسة بول والآنسة ماتي - هل تستطيع أن تنسى

لطفهما مع والدها المسكين وأختها المسكينة؟ - وإلى السيدة فوريستر والسيد هوغينز (وهنا أيضاً جاءت إشارة ضمنية إلى اللطف المُقدَّم للموتى قبل وقت طويل)، وزوجته الجديدة، التي في وضعها الحالي لا بد أن تجعل السيدة غوردون راغبة في التعرف إليها، والتي كانت، علاوة على ذلك، صديقة اسكتلندية قديمة لأقارب زوجها. باختصار، كان كل شخص قد ذُكِر، من القسيس - الذي كان قد عُيّن في الفترة الفاصلة بين موت النقيب براون وزواج الآنسة جيسي، وكان مرتبطاً بالحدث الأخير - وصولاً إلى الآنسة بيتي باركر. لقد كانوا جميعهم مدعوّين إلى مأدبة الغداء. الجميع باستثناء السيدة فيتز آدم، التي جاءت لكي تعيش في كرانفورد منذ أيام الآنسة جيسي براون، والتي وجدتُها مكتئبة إلى حد ما بسبب الاستثناء. استغرب الناس إدراج الآنسة بيتي باركر في قائمة الشرفاء. ولكن، من ناحية أخرى، كما قالت الآنسة بول، ينبغي لنا أن نتذكر التربية التي أنشأ النقيب المسكين بناته عليها والتي تجاهلت خصائص الحياة الأرستقراطية، وإكراماً له تنازلنا عن كبريائنا وقبلنا دون اعتراض. في الواقع إن السيدة جاميسون وجدت في ذلك إطراءً لها، بسبب وضع الآنسة بيتي (التي كانت خادمتها في السابق) في مستوى أسرة هوغينز تلك».

ولكن عندما وصلتُ إلى كرانفورد، لم تكن أي من نوايا السيدة جاميسون مؤكدة. هل ستذهب المرأة الشريفة، أم لن تذهب؟ صرح السيد بيتر إنها يُفترض أن تذهب وأنها كانت ستاتي. هزت الآنسة بول رأسها ووجمت. لكن السيد بيتر كان رجلاً واسع الحيلة، فقبل كل شيء، أقنع الآنسة ماتي أن تكتب إلى السيدة غوردون، وأن تُخبرها بأهمية حضور السيدة فيتز آدم، وتناشدها التكرم بأن تكون

تلك المرأة اللطيفة جداً والودود والسخية مُدرجة في الدعوة اللطيفة. وصل الرد بعودة البريد، مع مذكرة صغيرة جميلة للسيدة فيتز آدم، وطَلب أن تقوم الآنسة ماتي بتسليمها بنفسها وتوضيح سبب الاستثناء السابق. كانت السيدة فيتز آدم مسرورة إلى أقصى درجة، وشكرت الآنسة ماتي مراراً وتكراراً. وقال السيد بيتر، «اتركن السيدة جاميسون لي». وهكذا فعلنا، لاسيما أننا لم نكن نعرف أي شيء يمكننا أن نفعله لكي نغير رأيها عندما تُصمم على أمر ما.

لم أكن أعرف، وكذلك الآنسة ماتي لم تكن تعرف، كيف كانت تسير الأمور، إلى أن سالتني الآنسة بول، قبل يوم واحد من وصول السيدة غوردون، إذا كنتُ أعتقد أنه كان هناك أي شيء بين السيد بيتر والسيدة جاميسون في مجال الزواج، ذلك أن السيدة جاميسون كانت ذاهبة فعلياً للغداء في «فندق جورج». وكانت قد أرسلت السيد مولينر لطلب أن يكون هناك مسند أقدام قرب أدفأ مقعد في الغرفة، فقد كانت تنوي أن تحضر، وكانت تعرف أن كراسيهم عالية جداً. التقطت الآنسة بول هذا الخبر، وظنت به ظنوناً كثيرة، وتحسّرت كثيراً. «إن كان بيتر سيتزوج، فما الذي يمكن أن يحدث للآنسة ماتي العزيزة المسكينة؟ والسيدة جاميسون من بين كل الناس!» وبدا أن الآنسة بول تفكر في أنه كان هناك نساء أخريات في كرانفورد كان من الممكن أن يقدّرنَ اختياره بشكل أفضل، وأنا أعتقد أنه لا بد أن تكون هناك في ذهنها فتاة ما غير متزوجة، ذلك أنها كانت تقول باستمرار، «إن تفكير أرملة في أمر كهذا يدل على افتقارٍ شديد إلى الكياسة».

عندما عدتُ إلى الآنسة ماتي بدأت أفكر فعلياً في أن السيد بيتر ربما كان يفكر في اتخاذ السيدة جاميسون زوجة له، وقد اكتأبت بشأن ذلك بقدر ما كانت الآنسة بول مكتئبة. لقد كان يحمل في يده مسودة الطبع ليافطة كبيرة. «السينيور برونيوني، ساحر ملك دلهي، راجا ولاية أوده، ولاما التيبت العظيم»، إلخ، إلخ. لقد كان «سيقدم عرضاً في كرانفورد ليلةً واحدةً فحسب»، في الليلة القادمة ذاتها. وعرضتْ عليّ الآنسة ماتي، مبتهجة، رسالة من أسرة غوردون يَعِدون فيها بالبقاء طوال الوقت لمشاهدة هذه المباهج، التي قالت فيها الآنسة ماتي إنها برمّتها من صنيع بيتر. وكان قد كتب رسالة لكي يطلب من السينيور أن يحضر، وكان سيتحمل جميع نفقات الأمر، وكانت التذاكر سترسل بالمجان إلى أكبر عدد تتسع له الصالة. باختصار، كانت الآنسة ماتي مفتونة بالخطة، وقالت إن كرانفورد في الغد سوف تذكِّرها ببرستون غيلد، الذي تواجدت فيه في شبابها، فهناك مأدبة غداء في «فندق جورج»، مع أسرة غوردون الأعزاء والسينيور في قاعة الاجتماعات في المساء. ولكنني - نظرت فحسب إلى الكلمات القاتلة:

«تحت رعاية فخامة السيدة جاميسون».

تم اختيارها، بعدئذ، لكي تترأس هذا الترفيه الذي يقدمه السيد بيتر. ربما كانت ستحل محل الآنسة ماتي العزيزة في قلبه، فتجعل حياتها موحشة مرة أخرى! لم يكن في إمكاني التطلع إلى الغد بأي قدر من السرور، وكل توقع بريء من الآنسة ماتي لم يؤدِّ إلا إلى زيادة في انزعاجي.

كنتُ غاضبة ومغتاظة جداً، وأضخِّم كل حدث عرضي صغير، ما كان يزيد من غيظي. استمر وضعي هكذا إلى أن اجتمعنا جميعنا في الصالة الكبيرة في «فندق جورج». كان الرائد والسيدة غوردون وفلورا الجميلة ولودفيك جميعهم بشوشين وجميلين وودودين إلى أقصى درجة. ولكنني كنت غير قادرة على الاهتمام بهم إلا نادراً بسبب مسارعة السيد بيتر إلى مؤانستهم، ورأيتُ أن الآنسة بول كانت منشغلة بالدرجة ذاتها. لم يسبق لي قطُّ أن رأيت السيدة جاميسون منفعلة ومفعمة بالحيوية إلى هذه الدرجة. بدا وجهها يفيض اهتماماً بما كان يقوله السيد بيتر. اقتربتُ لكي أستمع، وكان شعوري بالارتياح شديداً عندما أدركتُ أن كلماته لم تكن كلمات في الحب، لكنه، على الرغم من ملامح وجهه الجديّة، فقد كان يمارس حيله القديمة. لقد كان يُحدثها بأسفاره في الهند، ويصف الارتفاع الشاهق لجبال الهملايا: لمسة تلو الأخرى أضافت إلى جسامة قصصه، وكل واحدة كانت تفوق سابقتها في السخف. ولكن السيدة جاميسون استمتعت حقاً بها جميعها بحسن نية تامة. أعتقدُ أنها كانت بحاجة إلى منبهات قوية لكي تحفزها إلى الخروج من خمولها. واختتم السيد بيتر وصفه بقوله: إنه، عند ذلك الارتفاع، لم يكن هناك، قطعاً، أي من الحيوانات التي يمكن العثور عليها في المناطق المنخفضة أكثر. لقد كان الصيد مختلفاً تماماً. وذات يوم أطلق النار على كائن ما يطير، فخاف خوفاً شديداً عندما سقط واكتشف أنه أطلق النار على ملاك! لفت السيد بيتر انتباهي في هذه اللحظة، وغمزني غمزة مضحكة جداً، إلى درجة أنني تأكدت منذ ذلك الوقت أنه لم يكن لديه أي تفكير في أن يتخذ من السيدة جاميسون زوجة له. أما السيدة جاميسون، فقد بدت مندهشة بتضايق:

«ولكن يا سيد بيتر، إطلاق النار على ملاك - ألا تعتقد - أخشى أن ذلك كان انتهاكاً للحرمات!»

ضبط السيد بيتر ملامح وجهه في لحظة، وبدا مصدوماً من تلك الفكرة التي، كما قال بصدق كبير، ذُكرت له الآن أول مرة. ولكن، من ناحية أخرى، ينبغي للسيدة جاميسون أن تتذكر أنه كان يعيش فترة طويلة بين المتوحشين -كانوا جميعهم وثنيين- وبعضهم، مع الأسف، كانوا منشقين تماماً. وبعدئذ، عندما رأى الآنسة ماتي تقترب، غيّر موضوع الحديث بسرعة، وبعد فترة قصيرة، قال وهو يلتفت إليّ، «يا صغيرتي الأنيقة ماري، لا تكوني مصدومة من كل قصصي العجيبة، فأنا أعتبر خداع السيدة جاميسون أمراً مشروعاً، وأنا عازم على استرضائها إضافة إلى ذلك، والخطوة الأولى نحو ذلك هي إبقاؤها متنبهة تماماً. لقد رشوتها من خلال الطلب منها أن تسمح لي باستخدام اسمها راعيةً لمشعوذي المسكين هذا المساء. وأنا لا أريد منحها وقتاً كافياً لتوقظ ضغينتها على الزوجين هوغينز، اللذين كانا يدخلان في هذه اللحظة. أريد أن يكون الجميع أصدقاء، لأن سماع ماتي بهذه الخصومات يضايقها كثيراً. سوف أكرر ما كنتُ أفعله مرة أخرى بعد قليل، لا داعي لأن تَظْهَري مصدومة. إنني أعتزم أن أدخل صالة الاجتماعات في هذه الليلة والسيدة جاميسون من جهة، وسيدتي النبيلة، السيدة هوغينز، من الجهة الأخرى. إنني متأكد من أنني سأنجح في ذلك».

لقد فعلها، بطريقة أو بأخرى. وجعلهما تتحدثان معاً بطريقة جميلة. وساعد الرائد والسيدة غوردون على إتمام هذا العمل الجيد بجهلهما المطبق أيَّ فتور قائم بين أي من سكان كرانفورد.

ومنذ ذلك اليوم، كانت هناك المخالطة الاجتماعية الودية في مجتمع كرانفورد. وهو أمر أشعرُ بامتنان لأجله، بسبب محبة عزيزتي الآنسة ماتي للسلام واللطف. نحن جميعنا نُحب الآنسة ماتي، وأنا أعتقد أننا نكون جميعنا أفضل عندما تكون قريبة منا.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

لمحة عن الكاتبة

اليزابيث غاسكل (1810-1865) من أشهر الروائيين وكتاب القصص القصيرة في العصر الفيكتوري في بريطانيا. من أشهر رواياتها «كرانفورد» و«شمال وجنوب» و«زوجات وبنات». إضافة إلى السيرة الذاتية لصديقتها تشارلوت برونتي.

سلسلة منتخبة من الروايات العالمية المعربة

CRANFORD
UNITSD KINGDOM
رواية من انجلترة

8

إليزابيث غاسكل

كرانفورد



كرانفورد بلدةٌ إنجليزيّة صغيرةٌ تدير شؤونها نساء، وهذه الرواية تصف الحياة اليوميّة لمجموعة من النساء في منتصف العمر، من الطبقة المتوسّطة الدنيا، يَعِشن في بلدة كرانفورد في العصر الفيكتوريّ. ويحاولن المحافظة على المظاهر والأعراف الاجتماعيّة المتزمّتة في ذلك العصر بصورةٍ فكاهيّةٍ في كثير من الأحيان. ترتكز هذه الرواية، في المقام الأوّل، على علاقات الصداقة بين النساء بوجه خاصّ، وعلى كيفيّة استمرارها وتطوّرها مع مرور الوقت.

حظيت الرواية بشعبيّة هائلة في السنوات الّتي تلت وفاة **إليزابيث غاسكل**، وعلى الرغم من أهمّيّتها فإنّها لم تنقل إلى العربيّة من قبل، وذلك ما يجعل هذه الترجمة الأولى عربيًا. هيئة الإذاعة البريطانيّة (**بي. بي. سي.**) حوّلت رواية **كرانفورد** هذه إلى مسلسل تلفزيونيّ، أنتجت النسخة الأولى منه في العام 1951، والنسخة الثانية في العام 1972، والنسخة الثالثة في العام 2007.

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2021
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962